سيرة

2020

2.1.2020

ستيفان زفايغ

# تولستوي

ترجمة
فؤاد أيوب

منشورات تكوين | الكتابة عن الكتابة
TAKWEEN PUBLISHING

ستيفان زفايغ

# تولستوي

ترجمة:

فؤاد أيّوب

منشورات تكوين TAKWEEN PUBLISHING | الكتابة عن الكتابة

www.daralrafidain.com

# تولسْتوي

## Tolstoy

### ستيفان زفايغ

### ترجمة: فؤاد أيّوب


الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2019

First Edition: Beirut ـ Lebanon, 2019



© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق



لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 07714440520 / 07811005860

dar alrafidain

Dar.alrafidain

@daralrafidain_1دار الرافدين

daralrafidain@yahoo.com

info@daralrafidain.com

www.daralrafidain.com

منشورات تكوين للنشر والتوزيع

الكويت ـ الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 96598810440 +

بغداد ـ شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 9647811005860 +

الموقع الالكتروني:

www.takweeen.com

البريد الالكتروني:

Publishing@takweeen.com



تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.



ISBN: 978 - 9922 - 607 - 60 - 3

*«ليس هناك ما يترك في النفس انطباعاً*

*أعمق ويوحّد بين الناس في عاطفة واحدة*

*بصورة أمتن، مثل نتاج حياة إنسان كاملة،*

*وبالنتيجة مثل هذه الحياة نفسها».*

*تولستوي*

*«المذكرات» 23 آذار 1894*

# الفهرس


**الإهداء** ..... 7

**تصدير** ..... 9

**المقدمة** ..... 21

صورة تولستوي ..... 27

حيوية تولستوي ونقيضها ..... 35

الفنان ..... 57

تولستوي كما يصف نفسه ..... 81

الأزمة والتحوّل ..... 97

المسيحي المصطنع ..... 109

عقيدة تولستوي والضلال الذي فيها ..... 123

النضال في سبيل التحقيق ..... 145

يوم من حياة تولستوي ..... 163

العزم والتجلّي ..... 181

الهرب نحو اللّه ..... 191

**الخاتمة** ..... 197

# الإهداء

## مكسيم غوركي

## ستيفان زفايغ

ستيفان زفايغ
1942 - 1881

# تصدير

إنّ الفكر العربي ليتطلّع أكثر فأكثر، في تفتّحه المستمر وازدهاره الدائب، نحو آداب الشعوب الأخرى يريد أن ينهل من معينها الثر، وأن يسكر من نشوة خمرتها اللذيذة، يحدوه الإدراك الوطيد بأنّه لن يستطيع ارتفاعاً إلى المكانة التي يطمح إليها في مراتب الأدب العالمي؛ ما لم يتفهّم هذا الأدب العالمي جيّداً ويتمثّله بصورة حسنة، بحيث يوطّد الأسس التي يقوم عليها، لا بتقليد آداب الشعوب الأخرى، بل باستمداده العون منها؛ كي يدخل أعمق فأعمق إلى غور الأشياء، ويزداد نفوذاً إلى لبّ الأمور، ويتجرّد عن كثير من السطحية التي ما برحت تطغى على أدبنا، ويجعل أن يكون تراثنا الفكري هو الأدب وحده تقريباً، دون سائر ميادين النشاط الفكري الأخرى.

وفي الحقيقة، هل كانت النهضة الأوروبيّة تعقل دون ما حمله إلى الغرب أولئك العلماء الهاربون من وجه العثمانيين لدى فتح القسطنطينية، بالإضافة إلى سائر العوامل الأخرى؛ الاجتماعيّة منها والسياسيّة على حدٍّ سواء، المتوفّرة لأوروبا في ذلك الحين بالضبط؟ ومن قبل ذلك، هل كانت نهضة الفكر العربي، في العصر العباسي خاصة، تعقل دون ترجمة الآثار الفلسفية الإغريقيّة واللاتينيّة إلى لغة الضاد، بالإضافة إلى مختلف العوامل الاجتماعية والسياسية الأخرى أيضاً؟ ومن بعد ذلك هل كان ازدهار الفكر والأدب الروسيين يعقل دون ذلك الانصباب، المنقطع النظير، على الآثار الفكريّة الغربيّة بعد إصلاحات بطرس الكبير؟ ولِم تصاب آداب كلّ أمّة وفنونها بنكسة قوية من حينٍ لآخر، بينا هي تعتقد أنّها قد

بلغت الأوج من التطور، فلم يعد النشاط الفكري لأيّة أمّة أخرى يستطيع أن يطاولها أو يسابقها، فهي في غنى عنه إذن؟ ممّا لا ريب فيه أنّ الحواجز بيننا وبين آداب الأمم الأخرى يجب أن تنهار بالضرورة، وأنّه لا بدّ لنا ـ ونحن نحتفظ بطابعنا الخاص وشخصيّتنا القومية ـ من أن نستقي من تلك الينابيع، لكن بشرط أن نعرف كيف نستقي.

وفي الواقع إنّنا بحاجة إلى الآداب الأجنبية، ولكن علينا أن نختار خيرها دون شرّها؛ يجب أن ننتقي؛ لأنّ الانتقاء هو الشرط الأساسي للفائدة في هذا المضمار.

* * *

وُلد ستيفان زفايغ في فيينّا، عاصمة الإمبراطوريّة الجبّارة، حيث تلقّى علومه، في الثالث والعشرين من تشرين الثاني عام 1881، وكان في الثالثة والعشرين عندما نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة بأطروحة عن الناقد الفرنسي الشهير تين، كما فاز في الوقت نفسه بجائزة بويرنفيلد للشعر، وهي إحدى الألقاب الأدبيّة الرفيعة في النمسا في ذلك الحين، إثر إصداره مجموعة من الأشعار، وترجمته لبعض قصائد الشاعر الفرنسي فرلين الشهيرة، وتأليفه لبعض الأقاصيص، ووضعه مسرحية شعرية أيضاً. ولكنه يرى «أنّ الأدب ليس هو الحياة»، بل لا يعدو كونه «وسيلة للسموّ بها، وسيلة لإدراك مأساتها بصورة أكثر وضوحاً وتفهّماً». كان يطمح إلى السفر بصورة خاصة، إلى «إعطاء وجوده السعة، والكمال، والقوّة، والمعرفة، وإلى ربطه في الوقت ذاته بجوهر الأشياء وأعماقها». وهكذا نجده عام 1904 في باريس، حيث أقام مدة طويلة من الزمن في فترات مختلفة، وارتبط مع عدد كبير من الكتّاب الفرنسيين، وجول رومانس بصورة خاصة، بأواصر الودّ، والصداقة، والمحبّة... ومن ثمّ غدا إلى بلجيكا حيث زار الشاعر فرهايرن في داره المتواضعة الريفية ـ وقد ترجم حياته فيما بعد، ونقل مؤلفاته جميعاً إلى الألمانيّة ـ وتنقّل بعد ذلك في إيطاليا، وإسبانيا، وأفريقيا، وإنكلترا، والولايات

المتحدة، وكندا، والمكسيك، وكوبا، والهند ـ أيضاً ـ حيث قضى عاماً كاملاً. إنّ هواه الجامع للمعرفة، هذا الفضول الذي لا يهدأ ولا يرتوي، هذا الشيطان المتأرّث الذي يريد أن يرى، وأن يعرف، وأن يعيش سائر الحيوات على الإطلاق، وأن يحتكّ بمختلف المدنيات دون تفريق؛ كان يدفعه دوماً إلى عدم الاستقرار في مكان واحد، فهو يلتهم الكتب والبلاد جميعاً، بجميع التواقيع ـ أثناء ذلك كانت لديه مجموعة منها رائعة للغاية حقّاً ـ متعطّشاً إلى اكتشاف سرّ الرجال العظماء، نَهِماً إلى سبر أغوار عواطفهم العظيمة، توّاقاً إلى إنارة غوامض إبداعاتهم الكبيرة، وفضح ما أخفوه عن الناس في حرصٍ شديد، ولم يعترفوا به البتّة. وإنّ رومان رولان ـ الذي كان صديقاً حميماً له ـ ليشبّهه بذلك الصيّاد الحاذق، الذي يدور حول حفاف الغابة العذراء، يرهف أذنيه في انتباه زائد، متلصّصاً خافق القلب؛ كي يسمع ضربات الأجنحة الخفيّة، أو حفيف الأغصان المتحرّكة في لطف، منتظراً عودة الطريدة إلى عشّها ـ والطريدة هي كلّ نفس كبيرة ـ كي يصطادها، حيّة، ولا يقتلها بعد ذلك أبداً؛ إنّ حياته لتمتزج امتزاجاً وثيقاً بحياة هذه الغابة الكثيفة، وكينونته تختلط كلّ الاختلاط بكينونة العالم العظيم.

وفي أثناء ذلك كان يكتب دون انقطاع، ومن دون أدنى جهد ـ إن صحّ التعبير ـ إنّه يقول: «إنّي لا أتذكر، بالرغم من سائر الجهود الطيّبة التي أبذلها، أنّي اشتغلت أثناء تلك المدّة، ولكن الوقائع تناقض ذلك، ما دمت قد ألّفت كتباً عديدة، ووضعت مسرحيّات مُثّلت جميعاً في سائر مسارح ألمانيا تقريباً، وفي الخارج أيضاً حتى درجة بعيدة». وفي الوقت نفسه كان يترجم بودلير، وفرلين، ورامبو، وفرهايرن، وسوياريس، ورومان رولان، الذين أحبّهم جميعاً، وأغنى لغته الأم بآثارهم الرائعة.

وكانت الحرب العالمية الأولى التي تركت في قلبه جرحاً عميقاً للغاية؛ فقد كان دوماً رجلاً محبّاً للسلام، أوروبيّاً بكل معنى الكلمة، يؤمن إيماناً وطيداً

بجماعية أوروبا الفكريّة، وبالصداقة العقلية التي لا تعرف حدوداً أو فوارق على الإطلاق. وهكذا لجأ في عام 1919 إلى مدينة سالزبورغ الصغيرة في النمسا حيث قضى عشرين عاماً تقطعها الأسفار، يرسل من هناك إلى أنحاء العالم أجمع رسائله ومؤلفاته: «أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة» (كان غوركي يقول عن هذه القصة إنّه لا يتذكر أنّه قد قرأ شيئاً أشدّ عمقاً منها...) و«آموك»[1]، و«اختلاط العواطف»، و«الخوف»...

وفي أقلّ من عشر سنوات نشر زفايغ ـ هو الذي لم يكن يرى في العمل إلّا «شعاعاً بسيطاً من الحياة شيئاً ثانوياً إن صحّ التعبير» ـ عشراً من الأقاصيص، وعدداً كبيراً من الدراسات عن دستويفسكي، وتولستوي، ونيتشه، وفرويد، وستندال، والشاعرة الفرنسية مارسلين فالمور، وفرهايرن، وبلزاك... تبرهن جميعاً عن اتّساع المدى الثقافي لهذا الفنّان الأصيل، وتؤكّد أنّ سائر أولئك العمالقة الذين كتب عنهم قد وجدوا فيه مترجماً لحياتهم جديراً بهم كلّ الجدارة. ومن ثمّ كانت سلسلة كتاباته التاريخية: «فوشيه»، «ماري أنطوانيت»، «ماجلان»... التي رفعته منذ الوهلة الأولى إلى مصاف المعلّمين الكبار.

وفي الحقيقة أنّه لم يترك مقولة واحدة من المقولات الأدبيّة إلّا وطرقها، وكان أستاذاً فيها. ولقد كتب رومان رولان يقول عنه، في عام 1926، حين أخذ الناس في فرنسا يُقبلون على مؤلفات زفايغ بصورة تفوق التصوّر: «ليس ستيفان زفايغ واحداً من أولئك الكتّاب الذين لم يرفعوا فوق المستوى العادي إلّا بأمواج الحرب، وبالجهد اليائس المبذول لمقاومتها، بل هو بالأحرى ذلك الفنّان الذي وُلد فنّاناً، والذي تستقل عنده الطاقة الخلّاقة عن الحرب، وعن السلم، وعن سائر الشروط الخارجية الأخرى، الذي يوجد كي يُبدع، الذي هو شاعر حسب المفهوم

(1) كلمة تعني المجنون بلغة أهل الملايو.

الجوتي، الذي تشكّل الحياة مادة الفن بالنسبة إليه، والفن تلك النظرة التي يرسلها في صميم الحياة. إنّه ليس بتابع لأيّ شيءٍ كان، وليس شيء بغريبٍ عنه، لا شكل من أشكال الفن، ولا شكل من أشكال الحياة».

ويضيف رومان رولان أيضاً: «يقولون إنّ الودّ هو مفتاح المعرفة. وهذا صحيح بالنسبة إلى زفايغ، ولكن العكس صحيح أيضاً: إنّ المعرفة هي مفتاح الودّ. إنّه يحبّ بالعقل، ويفهم بالقلب، فإذا للعقل والقلب اللذين يختلطان معاً يضفيان على الفضول الإنساني اللاهب مميزات «الهوى الجسدي» كما نعرفه عند بطل «آموك» مثلاً».

واستولى هتلر على الحكم في ألمانيا، وراحت أعمال العنف ضدّ المتمرّدين تتكرّر وتتضاعف دون انقطاع. وما لبثت النازية أن اجتاحت النمسا بدورها، فاضطرّ زفايغ إلى مغادرة بلاده إلى إنكلترا، ولكنّ نفسه، التي طغى القلق عليها وراح يعذّبها؛ لم تترك له فرصة للراحة منذ ذلك الحين، فهو يتنقّل بين أميركا الشمالية، والبرازيل، وإنكلترا، والنمسا (حيث عذّب النازيّون أُمّه حتّى الموت)، وفرنسا؛ ساعياً وراء الاستقرار، والهدوء، والطمأنينة، دون أن يجد سبيلاً إليها جميعاً قط. وما أسرع ما اشتعلت شرارة الحرب، فإذا فرنسا تُمنى بهزيمة نكراء، وإذا ما كان يخشاه دوماً يتحقق، وإذا الظلمات تجتاح أوروبا بأسرها. ولنستمع إليه بأيّة مرارة أليمة يصف تلك الفترة من الزمان التي عاشها نهباً لعذاب موجع حتى الدرجة القصوى:

«إنّ الزلازل قد قلبت بيتي ووجودي ثلاث مرات متواليات، وانتزعتني بكل عنفها المفجع من ماضيّ، وألقت بي في هاوية الفراغ، في هذا البعد اللامتناهي، التي سبقت معرفتي له، حيث الاضطراب يدفع المرء إلى الهتاف في أسى: «إنّي لا أعرف أين أذهب».

«وإن يكن في العالم إنسان قد انْتُزِع من سائر الجذور، بَلْهَ من ذات الأرض

التي غذّت تلك الجذور، فذلك الشخص هو أنا بالضبط. لقد وُلدت في عام 1881 في إمبراطوريّة عظيمة جبّارة، إمبراطوريّة آل هابسبورغ. ولكن يجب ألا نفتّش عنها في الخارطة اليوم؛ لأنها قد امّحت منذ زمنٍ بعيدٍ دون أن تترك وراءها أدنى أثر على الإطلاق. وترعرعت في فيينا، العاصمة التي يرجع تاريخها إلى ألفين من السنوات، والتي كانت تسود على أمم عديدة، والتي اضطررت إلى مغادرتها مثل مجرم قبل أن تذلّ وتهان حتى لا تعود أكثر من مدينة في مقاطعة ألمانية ليس غير. أمّا آثاري الأدبيّة فقد أُحيلت كومة من الرماد في لغتها الأصلية، وفي ذات البلاد التي اكتسبت كتبي فيها ملايين من القرّاء والأصدقاء. وهكذا، لم تعد لي صلة في بقعة من هذا العالم، بل أصبحتُ غريباً في كلّ مكان، ضيفاً على الأكثر في البلد الذي يضمر لي العداوة الأقل. لا بل إنّ الوطن الحقيقي الذي اختاره قلبي، أوروبا، قد ضاع بالنسبة إليّ منذ أن راح يمزّق نفسه للمرة الثانية، وقد تملّكته حمّى الانتحار، في قتال يتذابح الإخوة فيه. ولقد كنت شاهداً، بالرغم من إرادتي، على أرهب هزيمة مُنِي العقل بها، وعلى أوحش انتصار ظفرت القسوة به، انتصار لم يعرف الزمان أكثر وحشية منه على الإطلاق. ليس جيل قد سقط قط ـ وأنا لا أذكر ذلك في غرور، بل في شعور من العار بالأحرى ـ مثلما تردّى جيلنا من العظمة الفكرية في مثل هذا الانحلال الأخلاقي. لقد حدث خلال هذه السنوات القليلة التي انقضت، بين نموّ لحيتي واجتياح المشيب لها، خلال نصف القرن الأخير، حدث من التبدّلات الجذريّة أكثر ممّا يحدث في أزمان أخرى طوال عشرة من الأجيال البشرية، الأمر الذي يحسّه كلّ منّا بوضوح: إنّ أموراً كثيرة، قد وقعت! إنّ يومي ليختلف كثيراً عن كلّ من أيامي الماضية، في صعودي وسقطاتي المتعاقبة، حتّى لأخال أحياناً أنّي لم أعش وجوداً واحداً، بل عدة حيوات مختلفة جداً عن بعضها البعض؛ ذلك أنّه يحدث لي أحياناً، حين أقول دون انتباه: «حياتي»، أن أروح أتساءل بالرغم مني: «أيّة حياة من

حيواتي؟». أهي حياتي قبل الحرب العالمية؟ أهي حياتي قبل الحرب الأولى أم الثانية؟ أم هي حياتي في الوقت الراهن؟ ثمّ أفاجئ نفسي وأنا أقول: «بيتي» فلا أستطيع أن أجزم مباشرة أيّاً من بيوتي السابقة قد عنيت، أهو بيت باث أم بيت سالزبورغ، أو أنّه البيت الأمومي في فيينا. أو أنّي أتذكّر مرتعشاً، عندما أقول أحياناً: «عندنا» أنّي لم أعد من صلب أناس وطني أكثر منّي من صلب الإنكليز أو الأميركيين، وأنّي لم أعد متصلاً عضويّاً بأولئك، وأنّي لن أستطيع قط أن أجد ههنا مركزي ومكاني الوطيدين. إنّ العالم الذي ترعرعت في وسطه، وعالم اليوم، والعوالم التي تندسّ بين هذين الطرفين، لتفترق عن بعضها البعض أكثر فأكثر في شعوري؛ كي تصير عوالم متمايزة عن بعضها كلّ التمايز.

«أيّ شيء لم نره، ونعشه، ونتحمّل وطأته، نحن الذين قد بلغنا اليوم الستين من عمرنا، والذين ما برح لنا الحقّ في بعض سنوات أخرى من الحياة؟ لقد حرثنا حقل سائر الكوارث التي يمكن للخيال أن يتصوّرها من أقصاه إلى أقصاه، ولم نقلب الصفحة الأخيرة حتى الآن. وأنا وحدي قد كنت شاهداً على أكبر حربين حطّمتا الإنسانية، وعشتهما في جبهتين مختلفتين؛ الأولى في الجبهة الألمانية، والثانية في الجبهة المقابلة. ولقد عرفت، ما قبل الحرب، أرفع شكل للحرية الفردية، أسمى درجة لها، ومن ذلك الحين عرفت أسوأ انحطاط شاهدته البشريّة منذ قرون عديدة. لقد مجنت، وأصبحت طريد القانون، لقد كنت حرّاً ومستعبداً، غنياً وفقيراً. إنّ سائر جياد سفر الرؤيا الشاحبة قد انطلقت عدواً عبر وجودي، الثورة والمجاعة، تدهور العملة والإرهاب، جائحات الأمراض والهجرة. لقد شاهدت أساليب التفكير الكبرى تنمو تحت أعيننا، وتنتشر بين الجماهير: الفاشية في إيطاليا، والقومية الاشتراكيّة في ألمانيا، والبلشفية في روسيا، وقبل كلّ شيء القومية، طاعون الطواعين هذا، التي سمّمت زهرة ثقافتنا الأوروبية. لقد كنت مجبراً على أن أكون الشاهد العاجز، المجرّد عن كلّ دفاع، على هذه العودة التي لا يتصوّرها العقل، والتي رجعت

بالإنسانيّة إلى حالٍ من البربريّة كنّا نظنّ أنّها قد أصبحت في حكم النسيان منذ زمنٍ طويلٍ جداً، وذلك بعقائد وبرامج مضادّة للإنسانية، وموضوعة في وعيٍ تامٍّ من أصحابها. لقد كان مقدّراً لنا أن نرى من جديد بعد قرون من الحروب المشتعلة دون إعلان للحرب، معسكرات للاعتقال، وأساليب جهنّميّة للتعذيب واغتصاب الجماهير، وتدميراً وحشيّاً للمدن المجرّدة عن كلّ وسيلة للدفاع، وكل هذه الأفعال من الحيوانية التي لم تعرفها الأجيال الخمسون الأخيرة، والتي لن تتحمّل وطأتها ـ فلنترجّ ذلك ـ الأجيال المقبلة أيضاً. والأمر المتناقض حقّاً أنّي رأيت هذه الإنسانية نفسها، في الوقت الذي كان عالمنا فيه يعود القهقرى أخلاقياً قرناً كاملاً، ترتفع فيه بالذكاء والتكتيك إلى أعاجيب لم يسبق لها مثيل، متجاوزة بضربة جناح واحدة كلّ ما أنتجته ملايين السنوات: غزو الأثير بالطائرة، نقل الكلمة الأرضية الآني على كلّ مساحة كرتنا الأرضيّة، والانتصار بذلك على المكان الذي يحيط بنا، وانقسام الجوهر، والانتصار على أكثر الأمراض شرّاً وخيفة، والتحقيق الذي يكاد يكون يومياً لكل ما كان يبدو مستحيلاً البارحة فقط. إنّ الإنسانيّة لم تبدُ أبداً حتّى عصرنا هذا أكثر شيطانيّة منها اليوم، كما أنّها لم تحقّق قط هذا المقدار من المعجزات الذي يرفعها إلى مرتبة الألوهية».

هكذا إذن، قد ذهب هباءً منثوراً كلّ ما عاش هذا الإنسان من أجله. وإنّه ليترجّى في المستقبل، ولكنّه رجاءٌ يائسٌ على أيّة حال. إنّ جيوش النازيّين قد دخلت شوارع ستالينغراد، وهي تدقّ أبواب القارة، تثقل على الدنيا بأسرها بجزمتها الرهيبة. إنّ المقاومة عبث... وقلق زفايغ الفكري أقسى من أن يصمد في وجهه. وهذا هو يكتب، في الثاني والعشرين من شباط عام 1942، رسالة الوداع:

«قبل أن أغادر الحياة بملء إرادتي، متمتّعاً بسائر قواي العقليّة، أحسّ بالحاجة إلى إنجاز واجب أخير: أن أوجّه شكري الجزيل إلى البرازيل، هذا البلد الرائع الذي وفّر لي، كما وفّر لعملي، راحة صديقة للغاية، ومضيافة حتّى الدرجة

القصوى. لقد تعلّمت يوماً بعد يوم أن أحبّ هذا البلد أكثر فأكثر، حتى إنّي لم أكن لأفضّل أن أبني لي في أيّ مكان آخر وجوداً جديداً، بعد أن زال عالم لغتي بالنسبة إليّ حالياً، وبعد أن دمّر وطني الفكري، أوروبا، نفسه بنفسه.

«ولكن المرء يحتاج، بعد أن يتجاوز الستين، إلى قوى استثنائية كي يبدأ حياته مجدّداً من أوّلها، ولكن قواي قد نضبت بعد سنين طويلة من التشرّد؛ بحيث أجد من الأفضل لي أن أضع حدّاً، مرفوع الرأس، لوجودٍ كان العمل الفكري فيه هو الفرحة الأصفى دوماً، وكانت الحرية الفرديّة فيه هي الثروة المثلى لهذا العالم في كلّ حين.

«إني أحيّي سائر أصدقائي. ألا فليروا الفجر مرّة أخرى بعد الليل الطويل، أمّا أنا فقد فرغ صبري؛ ولذا فإنّي أسبقهم».

**ستيفان زفايغ**

**بتروبوليس، 22 ـ 2 ـ 42**

*وفي الغداة، لم يعد زفايغ من هذا الوجود.*

**فؤاد أيوب**

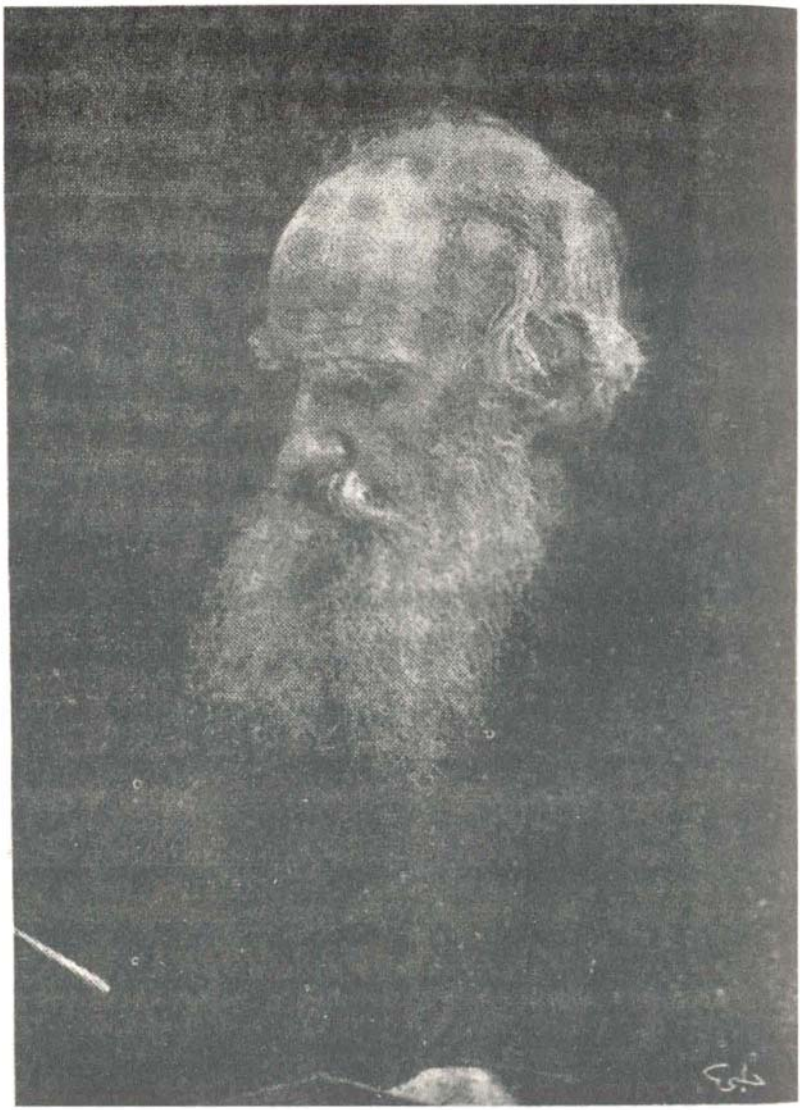

ليون تولستوي، عام 1910

# المقدمة

**«ليس الكمال الأخلاقي الذي يبلغه المرء ما يهمّنا، بل الطريقة التي يبلغه بها...».**

**تولستوي**
**مذكرات الشيخوخة**

«**كان** إنسان يعيش في أرض عوص، يخاف اللّه ويتجنّب الشر. وكانت مواشيه سبعة آلاف من الخراف، وثلاثة آلاف من الجِمال، وخمسمائة أتان، أمّا خدمه فكثرة عظيمة. ولقد كان هذا الرجل أعظم بني المشرق على الإطلاق».

هكذا تبدأ قصة أيّوب الذي كثرت خيراته وتعاظمت حتى الساعة التي رفع اللّه فيها ذراعه ضدّه وأصابه بالطاعون؛ كيما يفيق من البحبوحة الفظّة السمجة التي ينعم بها ويرفل، ويتألّم في صميم روحه بعذابٍ موجع، ويتقدّم أمام وجهه في دينونة رهيبة قاسية. وهكذا تبدأ القصة الروحيّة التي عاشها ليون نيقولايفيتش تولستوي؛ هذا الإنسان الذي كان هو الآخر أعظم بني وطنه وعصره، والذي كان هو الآخر «يجلس عالياً» بين أقوياء الأرض والمتسلّطين فيها، يعيش في ثراء فاحش ورفاهية منقطعة النظير في داره العتيقة الموروثة عن الآباء والأجداد.

كان جسده يطفح صحّة وقوّة وعزماً، كما استطاع أن يقترن بالفتاة التي يحبّها ويهواها قلبه، فأنجبت له ثلاثة عشر ولداً. إنّ أعمال يديه وروحه لخالدة

على مرّ الزمان تضيء ببريق شديد ساطع فوق العصر الذي عاش فيه، وفلّاحي ياسنايا بوليانا[1] ينحنون في إجلال عظيم عندما يمرّ الإقطاعي الجبّار من أمامهم يعدو جواده به خبباً، والكون بأسره يطأطئ هامته في احترام كبير أمام مجده المدوّي. وإنّ ليون تولستوي، مثله مثل أيّوب قبل التجربة، لا يشتهي في الدنيا شيئاً على الإطلاق؛ لأنّه لم يبقَ في الدنيا ما يشتهيه، بل هذا هو يكتب ذات يومٍ في إحدى رسائله أكثر الكلمات الإنسانية جسارةً وتهوّراً: «إنّي سعيدٌ حتى أبعد حدود السعادة».

وفجأةً، في إحدى الليالي الحالكات، يفقد كلّ هذا معناه، ويضيع قيمته وجدواه أيضاً. إنّ العمل ينفّر ـ بعد اليوم ـ هذا العامل الذي لا يتعب، وامرأته تصبح غريبة عنه، وأمور أبنائه لا تعنيه في كثير أو قليل... إنّه يغادر فراشه إذا ما جنّ الليل، مضطرب النفس مبلبل الفكر، ويروح يذرع أرض غرفته في جيئة وذهوب، مثل مريض يضنيه الداء ويعذّبه، لا يعرف للراحة طعماً، ولا إلى السكون سبيلاً. وإذا ما أشرق النهار جلس أمام طاولة العمل متلبّد الخاطر، جامد النظرات، مشلول اليدين، لا يدري ماذا يفعل أو ما يكتب. وهذا هو ذات مساء ينهب السلّم أربعاً أربعاً كي يقفل باب دولابه على بندقية صيده، خوفاً من أن يوجّه، في أيّة لحظة، السلاح الرهيب ضدّ نفسه... وإنّه ليزمجر في بعض الأحايين فكأنّ الصدر منه ينفجر، وفي أحايين أخرى يبكي كالطفل الصغير في غرفته المظلمة. ولم يعد يقرأ الرسائل التي ترد إليه، ولم يعد يستقبل أيّاً من الأصدقاء الذين يأتون لزيارته، بينا أبناؤه يتطلّعون في رهبة، وزوجته في يأس، إلى هذا الرجل الذي أظلم كلّ شيء فيه على حين غرّة، وبدون سابق إنذار.

ما هو السبب في هذا التبدّل المفاجئ؟ هل الداء يقضم حياته خفية؟ هل اجتاح الطاعون جسده؟ هل نزل السوء بساحته من الخارج؟ ما الذي أصابه،

---

(1) مِلكية تولستوي.

هو ليون نيقولايفيتش تولستوي، الأقوى بين الجميع، حتى يُحرم بغتةً من الفرح والسرور، وحتى ييأس على هذه الصورة المفجعة الأليمة، وهو أعظم أبناء الأرض الروسية طرّاً؟ وهذا هو الجواب الرهيب... لا شيء! إنّ شيئاً لم يحدث له أبداً، أو بالأحرى ـ وهذا أكثر هولاً أيضاً ـ إنّ ما صادفه هو العدم. إنّ تولستوي قد رأى العدم وراء الأشياء. إنّ في نفسه صدعاً، وفي باطنه فُتح شقٌّ، شقٌّ ضيّق مظلم، فإذا عينه الغريقة تنظر، بالرغم منه، في ذلك الفراغ بثبات وجمود، تنظر في هذا العدم الذي لا اسم له، هذا اللاشيء، هذه اللاكينونة المخوفة... هذا الحضور الآخر، الغريب، البارد، القاتم، العصي على الإدراك، والقائم فيما وراء حياتنا الخاصة، الدافئة والمشبعة بالدم... إنّه يرى إلى العدم الخالد خلف الكينونة الفانية.

إنّ المرء الذي أمعن النظر مرّة في هذه الهاوية الفائقة الوصف، لن يستطيع بعد ذلك أن يحيد ببصره عنها أبداً... إنّ الظلمة تجتاح حواسّه وتخنقها، وضياء الحياة ولونها ينطفئان بالنسبة إليه ويتلاشيان، والضحك يتجمّد في فيه ويخرس، فيصبح عاجزاً عن بلوغ أيّ شيءٍ كان دون أن يحسّ الصقيع يسري في أوصاله، من أصابعه المرتجفة حتى قلبه المرتعش، عاجزاً عن التأمّل في أيّ شيءٍ كان دون أن يفكّر، في الوقت نفسه، في الآخر، في العدم، في اللاشيء... إنّ الأشياء تسقط ذاوية معدومة القيمة خارج منقطة الإحساس الذي كان دافئاً بعد، حتّى قبل لحظة واحدة فقط؛ والمجد يصبح عَدْواً خلف دخان هباء؛ والفن ينقلب لعب مجانين لا يفقهون؛ والمال يصير زبداً تافهاً أصفر اللون؛ غير أنّ الجسد ذاته، وقد كان حارّ الأنفاس طافحاً بالصحّة، لم يعد الآن إلّا مرتعاً للديدان تنهش أوصاله وتلتهمها... إنّ هذه الشفة ذات المرشف الأسود الخفي تنتزع، من سائر خيرات هذا العالم، مذاقها وحلاوتها. إنّ الكون يقشعرّ من البرد عندما يفغر ذلك العدم المضني، الجشع، الأسود، فاه أمام عيني الكائن الفاني بكل عذاب

المخلوق البدائي. إنّه «مايلستورم»[1] إدجار آلان بو الذي يأتي في طريقه على كلّ شيءٍ ولا يخلّف وراءه شيئاً، و«هاوية» باسكال التي يفوق عمقها كلّ ارتفاعٍ يمكن للفكر أن يبلغ إليه.

عبث السعي وراء الاختباء والتخفّي... وكذلك لن يفيدك شيئاً أن تضفي على هذا الظلّ الذي يلتهمك صفتي الإلهي والمقدّس، ولن تفيدك شيئاً ـ أيضاً ـ محاولاتك ستر هذا الثقب الأسود بوريقات الإنجيل... إنّ تلك الظلمات لترشح من سائر الأوراق وتتسرّب، وتنفخ على سائر شموع الكنيسة وتطفئها، فمثل هذا البرد القادم من قطبي الكون لا يمكن أن يدفأ بأنفاس الكلمة الإنسانية الحارّة... لن يفيدك شيئاً؛ كي تبرقع هذا السكون المرهق حتى الموت، أن تأخذ بالتبشير بصوتٍ رنّان، مثل أولئك الأطفال الذين يرفعون عقيرتهم بالغناء، في قلب الغابة الشاسعة الأبعاد؛ كي يضلّلوا قلقهم ويحتالوا على ذعرهم... إنّ العدم الساكن، الأسود، الآسن، لن يبرح يحلّق غير مقهور فوق الوجدان، فوق سائر جهوده على الإطلاق، ولن تستطيع أيّة حكمة أن تُطمئن القلب الموجع المتألّم الذي عرف ذات مرّة معنى القوّة الرهيبة المرعبة التي تملكها تلك اللاكينونة وتمتاز بها. لقد شاهد تولستوي للمرّة الأولى، وهو في الرابعة والخمسين من سِنِيّ حياته الدنيوية، ذلك العدم الشاسع، فأدرك أنّه المصير المقدّر له ولسائر البشر أجمعين، وهو لن يفعل، منذ ذلك الحين حتى الموت، إلّا الشخوص بثبات إلى هذا الثقب الأسود، هذا الدخيل الممتنع على الإدراك، الرابض وراء كينونته الخاصة. ولكن نظرة ليون تولستوي، حتى إذا استدارت نحو العدم، تظل تملك وضوحاً نافذاً وحاداً... إنّها نظرة لم يعرف زماننا أكثر منها بصيرة وتشرّباً للروح. إنّ إنساناً لم يأخذ قط على عاتقه، بمثل هذا الاندفاع الشديد، قضية النضال ضدّ ما لا يمكن وصفه، ضد عذاب المخلوق البدائي. إنّ إنساناً لم يقابل أبداً

(1) إعصار مائي على شواطئ النرويج، وبالتالي قوّة دمار منقطعة النظير.

بمثل هذا العزم القضية التي يطرحها القدر على الإنسان بقضية الإنسانيّة التي تسأل قدرها. إنّ إنساناً لم يتعذّب يوماً بمثل هذه القسوة بسبب تلك النظرة الفارغة التي تلتهم النفس شيئاً فشيئاً؛ تلك النظرة القادمة من العالم الآخر. أبداً لم يتحمّل إنسان تلك النظرة بمثل هذه العظمة؛ لأنّ وجداناً طافحاً بالعنفوان يجابه ههنا التساؤل القاتم الذي تلقيه تلك الحدقة المظلمة، يجابهه بنظرة برّاقة، مقدامة، نظرة الفنّان التي تراقب الأشياء بعزم وثبات. أبداً، حتّى ولا لحظة واحدة، لم يطرف ليون تولستوي بعينيه أو يغمضهما جبناً أمام ما في القضاء من أمرٍ مفجع وأليم... هاتان العينان هما أكثر ما عرفه فنّنا الحديث يقظة، وإخلاصاً، وعصياناً على الفساد... وبالتالي ليس أعظم من هذه المحاولة البطولية لإعطاء معنىً خلّاقاً حتّى لما يخرج عن حيّز الإدراك، وإسباغ الحقيقة على ما يستحيل تنحيته والخلاص منه.

لقد عاش تولستوي، طوال ثلاثين عاماً، من العشرين حتّى الخمسين، في خلق مؤلفاته، حرّاً لا مبالياً... وطوال ثلاثين عاماً أخرى، من الخمسين حتّى الوفاة، لم يحْيَ إلّا كي يعرف معنى الحياة ويفهمها، مناضلاً ضدّ ما لا يمكن إدراكه، مقيّداً إلى ما يعسر البلوغ إليه... ولقد ظلّت مهمّته يسيرة سهلة حتّى اليوم الذي أخذ فيه على كاهله هذه الرسالة الهائلة: أن يخلّص، بنضاله في سبيل الحقيقة، ليس شخصه فحسب، بل الإنسانية بأسرها أيضاً. وإنّ إقدامه على هذه الرسالة يجعل منه بطلاً، بل قدّيساً تقريباً، أمّا سقوطه في غمرة النضال في سبيل تحقيقها فيجعل منه أكثر الناس إنسانيّة على الإطلاق...

# صورة تولستوي

**«كان لي محيّا فلّاحٍ عادي».**

وجهٌ أشبه ما يكون بالغابة الكثيفة، الآجام فيه أكثر عدّاً من الفسح العاريات، تسدّ كلّ منفذٍ إلى الرؤية الباطنة، ولحية عريضة مسترسلة أشبه ما تكون بلحية بطريرك مهيب عظيم الوقار، تتزاحم حتى أعلى الوجنتين وتتدافع، وتغطّي بأمواجها ـ طوال عشرات من السنين ـ الشفة الغليظة الشهوانيّة، وتُقنّع القشرة المخطّطة التي تكسو الجلد ذا الغضون السمراء. وإلى الأمام من الجبهة يتربّع حاجبان جبّاران، غليظان كالإصبع، متشابكان كجذور الأشجار المتعانقة، بينا تزبد فوق الرأس كتلة مضطربة من خصل شعر كثيف متلاحم أشبه ما تكون بموجة بحرية عاتية رماديّة اللون... إنّها كثرة الأشعار الشائكة، الاستوائيّة، المنتصبة في كلّ مكان، تنشر على غرار الإله (بان) فيض العالم البدائي. وإنّ الناظرتين لا تُشاهَدان للوهلة الأولى في محيّا تولستوي، تماماً مثل موسى ميكيل أنجلو؛ هذه الصورة التي تمثّل أكثر البشر عنفواناً ورجولة،فتبدو الموجة المتدفقة المبيضّة الزبد لتلك اللحية العملاقة التي أشبه ما تكون بلحية الأب الأبدي.

وعندئذٍ، كي نرفع اللثام عن نفس هذا الإنسان، كي نكشف عري وجهٍ هذا كساؤه، كي نسبر أغوار جوهره المقنّع؛ لا بدّ لنا من تفكيك سيماء آجام تلك اللحية (وصور الشباب الأمرد تساعد كثيراً على هذا الإظهار المرن). إنّنا لنفعل ذلك إذن، فإذا نحن نخاف ونذهل ونعجب، لأنّ محيّا هذا النبيل، هذا الابن البار للفكر المتوقّد ـ ولا بدّ لنا من الاعتراف بهذا الواقع الذي لا سبيل إلى

نقضه ـ لذو بنية فظّة غليظة، لا يفترق في شيء عن سيماء أيّ فلّاح نصادفه على قارعة الطريق... ههنا قد اختارت العبقرية منزلاً لها ومصنعاً، كوخاً حقيراً ملطّخاً بالهباب، والدخان، كيبيتكا[1] روسية حقيقية... من وضع تصميم مسكن هذه الروح العظيمة؟ إنّه ليس إلهاً إغريقياً خالقاً، بل إن هو إلّا نجّار قروي كثير الإهمال، عديم المبالاة والاكتراث... إنّ كلّ شيءٍ فيه منحوت في ثقل وخشونة، فجسور الجبهة الواطئة ـ فوق النافذتين اللتين تمثّلان العينين ـ ثخينة العمد كبيرة الحبيبات، أشبه بالخشب المتشابك المتداخل في بعضه البعض، والجلد ليس إلّا تراباً وطيناً، قاتماً معدوم البريق، وفي وسط هذا المربّع الخالي من الجمال ينهض أنف مفتوح المنخرين كثيراً، واسع حتّى ليكاد أن يشبه كتلة من اللحم مسلوقة، مسطّح وكأنّما تلقّى لكمة جبّارة شديدة قاسية، وإلى الخلف من الشعر الأشعث أُذنان مشوّهتان متهدّلتان، وبين جوفي الوجنتين الغائرتين فوه أنبس غليظ الشفتين... سيماء يعوزها جميعاً ضياء الروح، إن هي في الحقيقة إلّا ملامح عادية، مشتركة، تكاد أن تكون عامة أيضاً.

في هذا الوجه المفجع الذي يخصّ بالأحرى عاملاً يدوياً، لن تجد إلّا الظلّ والعتمة، إلّا الابتذال والفظاظة... عبثاً تبحث عن الانطلاق أو الحنين، عن شعاع من النور أو عن تحليق روحي جريء، هذه الأمور جميعاً حيث تجدها في القبّة الرخاميّة التي يرسمها جبين دستويفسكي. ههنا لا ينفذ النور في أيّ مكان، ولا يتألّق أيّ بريق على الإطلاق، وكل إنكار لذلك إن هو إلّا ادّعاء وتزييف وكذب فاضح... كلّا، ليس ههنا، بكل تأكيد، إلّا وجه واطئ مغلق، لا يمكن أن يكون هيكلاً للفكر، بل هو بالأحرى محبس مظلم كئيب، خالٍ من الفرح، مجرّد عن الجمال... وإنّ تولستوي الشاب ليدرك، في وقت مبكّر جداً، أنّ صفحة سيمائه ناقصة، فلا يطيق أيّة إشارة إلى محيّاه، فهو يرتاب في إمكان «وجود سعادة

(1) اسم بيوت الفلّاحين الروسيين، وهي متشابهة في كلّ أنحاء البلاد تقريباً.

أرضيّة لامرئٍ له مثل هذا الأنف المسطّح، مثل هاتين الشفتين الغليظتين، ومثل هاتين الصغيرتين الرماديتين». ولذا فإنّ الفتى يسرع، مبكراً، فيخفي هذه الملامح المقيتة خلف ذلك القناع السميك من اللحية المسودة، التي لن تفضّضها السنوات، وتضفي عليها الجلال إلّا في وقت متأخّر، ومتأخّر جداً في الحقيقة. إنّ السنوات العشر الأخيرة من حياته وحدها تبدّد هذه السحب القاتمة وتبعثرها؛ فلا يقع شعاع رقيق من الجمال على هذا المشهد المفجع إلّا في ضياء مساء الخريف المتقدّم.

إنّ العبقريّة، المتجوّلة أبداً، قد أقامت عند تولستوي، كما في فندق متواضع، بين جدران مسكن منخفض قبيح، في محيًا أيّ إنسانٍ كان، محيًا روسيٍّ عادي، يمكن أن نفترض وجود كلّ شيء وراءه، ما عدا وجود المفكّر، والشاعر، والمبدع. إنّ تولستوي، طفلاً كان أم مراهقاً، رجلاً أم شيخاً طاعناً في السنّ، ليترك في النفس دوماً تأثير امرئٍ عاديٍّ من عداد ملايين الناس العاديين. إنّ كلّ لباس، وكل قبّعة، ليلائمانه تماماً... والمرء يستطيع بهذا الوجه المغفل، وجه إنسان روسي عديم الفردية، أن يرأس اجتماعاً وزارياً، مثلما يستطيع أن يسكر ويعربد ما شاء له هواه في حانة مشبوهة يرتادها المتشرّدون؛ يستطيع أن يبيع الخبز الأبيض في السوق، مثلما يستطيع ـ رافلاً في الحرير والدمقس كالمطران في القداس الاحتفالي ـ أن يرفع الصليب يبارك به الجماهير الجاثية في خشوع. أبداً لن يكون هذا الوجه في غير مكانه، في أيّ بقعةٍ كانت من الأرض الروسية الواسعة الأرجاء، وفي أيّة مهنةٍ وأيّ كساء... لقد كان تولستوي، طالباً، يشبه جميع رفاقه مثلما تتشابه قطرتان من الماء، وعندما أصبح ضابطاً كان يشبه سائر الذين حملوا السيف أو تخصّروه، ثمّ رجع إلى الريف يشرف على أملاكه فإذا هو لا يختلف في شيءٍ عن أي إقطاعي عادي... وإذا ما كان في العربة، وإلى جانبه خادمه الأشيب اللحية، فلا بدّ لك من الإمعان طويلاً في صورته، قبل أن تستطيع تمييز الكونت

من السائق بين ذينك الجالسين في مقعد العربة... وإذا وقعت على رسم يمثّله وهو يتجاذب أطراف الحديث مع الفلاحين، فلن تستطيع أبداً ـ إن كنت جاهلاً به من قبل ـ أن تخمّن أنّ «ليون» هذا ـ الذي يتوسّط تلك الحلقة من الرعاع ـ هو كونت رفيع المرتبة عريق المحتِد، وأنّه يفوق بملايين المرّات سائر هؤلاء الفلّاحين، من جريجوري إلى إيفان، ومن إلياس إلى بيرتر، الذين يحيطون به من كلّ جانب ويحفّون... وأنت تقول عندئذٍ، لشدّة ما يبدو محيّاه مغفّلاً، خالياً من أيّة سمة تميّزه عن سواه: إنّ هذا الرجل هو في الوقت نفسه كسائر الباقين، فكأنّ العبقرية عنده لم ترتدِ قناع فردٍ خاص، بل تنكّرت في الشعب بمجموعه... إنّ تولستوي لا يملك وجهاً خاصاً، بالضبط؛ لأنّه يحتوي روسيا بأسرها، بل يملك بكل بساطةٍ وجه الإنسانيّة الروسية بكاملها...

وهكذا فإنّ الناظر إليه للمرّة الأولى يصاب ـ للوهلة الأولى ـ بخيبة شديدة قاسية... لقد جاؤوا من بعيد جداً، بالقطار أوّلاً حتّى تولا، ومن هناك بالعربة حتّى ياسنايا بوليانا، وهم ينتظرون الآن في قاعة الاستقبال قدوم المعلّم، ينتظرون في إجلال عظيم واحترام لا حدود له، وكل منهم يتخيّل في نفسه أنّه سيقابل بعد برهة وجيزة كائناً مهيباً عظيم الجلال، فيروح الفكر يتصوّره سلفاً رجلاً بهيّ الطلعة، ذا لحية مسترسلة كلحية الآب الأبدي، عالي القامة، فخور الملامح، عملاقاً وجنّيّاً في شخص واحد. وهذه قشعريرة الانتظار، منذ الآن، تثقل على كتفي كلّ من الحاضرين، وهذه العين، منذ الآن، تطرق بالرغم منها أمام جبروت البطريرك الذي ستشاهده بعد لحظة قصيرة... وأخيراً، هذا الباب يفتح... ماذا نرى؟ إنّ رجلاً صغيراً قصير القامة يدلف إلى القاعة في عجلة حتى تترنّح لحيته، يدفدف بخطىً قصيرة سريعة حتى ليكاد أن يخبّ خبباً... ثمّ هذا هو يتوقّف، وعلى شفتيه تسبح ابتسامة لطيفة محبّبة، أمام الزائر المدهوش، ويروح يتحدّث إليه في لطف وبصوت سريع النبرات، وهو يصافح كلّاً من الموجودين فيقدّم إليهم

يده بحركة سريعة ميسورة، فيتناولون هم تلك اليد الممدودة إليهم وفي صميم أفئدتهم خوف دفين... كيف؟ هذا الإنسان الصغير الذي يتحرّك في مرح عذب لطيف، «هذا الأب الصغير، الرشيق الحركة، الأبيض اللحية كالثلج الناصع»، أهو حقّاً ليون نيقولايفيتش تولستوي؟ إنّ القشعريرة التي أحسّها المرء سلفاً أمام جلال الرجل العظيم تتلاشى الآن وتزول، بينما يرتفع النظر نحو وجهه وقد دبّت الشجاعة فيه، وسرت الجرأة في أوصاله.

ولكن الدم يكفّ بغتةً عن الجريان في عروق أولئك الذين يتطلّعون إليه هكذا. إنّ نظرةً رماديةً قد قفزت عليهم، كالأفعى، من وراء دغل الحاجبين الأشعثين، هذه النظرة الفريدة التي تنطلق من عيني تولستوي، والتي لا يستطيع أيُّ رسمٍ أن يعطي عنها أدنى فكرةٍ على الإطلاق، والتي يتكلّم عنها بالرغم من ذلك سائر الذين ألقوا يوماً ما بأنظارهم على محيّا الرجل الشهير! هذه النظرة تسمّرك في مكانك، فكأنّها طعنة نجلاء من سكّين قاسية النصل، برّاقة مثل الفولاذ الصقيل. وهذه الحركة تصبح عليك مستحيلة، وكذلك الإفلات من تلك النظرة، بل لا بدّ لكل إنسان، وقد أطبقت عليه أغلال قوّة مغناطيسيّة لا تقاوم، من الخضوع لهذه النظرة التي تخترقه حتّى أعمق أعماق باطنه، ليس من سبيل إلى الهرب أمامها، ولا من ملجأ للاختفاء منها، بل هي تثقب مثل القذيفة سائر دروع التمويه والتخفّي وتنفذ منها، وتقطع مثل الماس كلّ ما تصادفه من جليد وتحطّمه... إنّ أحداً لا يستطيع (وهذا ما يؤكّده تورجنيف وغوركي ومائة آخرون) أن يكذب أمام نظرة تولستوي الحادّة النفّاذة.

ولكن هذه العين لا تحتفظ بقسوتها المتفحّصة إلّا ثانية واحدة فقط، بل ما أسرع ما تلين قزحيّتها وتطلق بريقاً رمادياً، ثمّ تروح ترتعش كالفراشة بابتسامة متحفّظة، أو تضيء بلمعان عذب يطفح رقّةً وعطفاً... إنّ سائر تبدّلات العاطفة وتحوّلاتها تلعب باستمرار وتمرح، مثل ظلّ السحب على وجه المياه، في هاتين

الحدقتين السحريّتين اللتين لا تعرفان الراحة أبداً. إنّ الغضب قد يفجّرهما في شرارة جليدية وحيدة، والاستياء قد يجّمدهما في بلورة باردةٍ نقيّة، والحنان قد يدفئهما بشعاعه الحار، والهوى قد يشعلهما بلهيبه المتأرّث. هذان الكوكبان العجيبان قد يبتسمان بفعل نورٍ باطنيٍّ دون أن يتحرّك الفم القاسي أبداً، فإذا ما أرسلت الموسيقى فيهما ليناً ورقّة؛ يستطيعان أن «يسحّا سيلاً من العبرات» كما تفعل عينا فّلاحةٍ شقيّةٍ بائسة. إنّهما قادرتان على أن يستقيا النقاء والصفاء في رضا الفكر واكتفائه، أو يظلما حزناً على حين غرّة، إذا ما دبّت الكآبة إليهما؛ كي يتقلّصا من جديد ويظلّلهما الغموض، فيعودان ممتنعين على الإدراك، عصيين على الفهم. إنهما يقدران أن يلاحظا الأمور، باردتن قاسيتن لا يعرفان معنى للرحمة أو الشفقة، مثلما يقدران أن يقطعا كالمشرط، وأن يشعّا كنار رونتجن؛ كي يجتاحهما في اللحظة التالية انعكاس متراقص، انعكاس فضول يشوبه المرح ولا يبرأ من البشاشة أيضاً... هاتان العينان، إنّهما تتكلّمان سائر لغات العاطفة، وهما أبلغ الأعين التي التمعت أبداً تحت جبينٍ بشري وأقواها تعبيراً. وها هو غوركي الذي يجد، كعادته دائماً، أصدق الكلمات كي يصفهما عندما يقول: «إنّ تولستوي، في هاتين العينين، يملك مائة عيناً».

بهاتين العينين، وبهما وحدهما، تبدو العبقرية في وجه تولستوي وتتجلّى. إنّ كلّ القوّة الإشعاعيّة التي يملكها هذا الإنسان، الذي كان نظرة كلّه، لتتمركز في ألق صفيحات عينية فقط، مثلما يتمركز جمال دستويفسكي الرجل المفكر في الصورة الرخامية الجانبية لجبينه الرائع. وكل شيء آخر في وجه تولستوي، اللحية والشوك معاً، لا يزيد عن أن يكون غلافاً فقط، فراغاً واقياً يخفي في عمق سحيق المادة الثمينة لهذين الحجرين المضيئين،الساحرين والمغناطيسيّين، اللذين يبتلعان الكون فيهما، ثمّ يشعّانه خارجاً عنهما، فلا يعرف زماننا طيفاً للكون أكثر منهما دقّة وأمانة... إنّ العالم ليخلو، في الحقيقة، من كلّ صغير دقيق لا تستطيع هاتان

العدستان أن تبيّناه للعيان بوضوح وجلاء... هاتان العينان تستطيعان، مثل السهم الموتور، أو مثل العقاب الذي ينقضّ من الأعالي المغرقة في البعد على فأر يولّي الأدبار، أن تنقضّا على كلّ صغيرة، مثلما تستطيعان في الوقت ذاته أن تعانقا ـ في نظرة واحدة ـ سائر آفاق الكرة الأرضيّة. إنهما تستطيعان أن تشعّا في علياء العالم الفكري، مثلما تستطيعان أن تضربا ـ دون عثار ـ في ظلمات النفس الحالكة فلا تخطئان، وكأنّهما تتجولان في مملكة الهواء الحرة الطليقة؛ هاتان البلّورتان المتألّقتان، إنّهما تملكان من الحرارة والطهارة ما يكفي كي تشاهدا اللّه في حليق إشراقي، مثلما تملكان الشجاعة أيضاً على سبر أغوار العدم السحيقة، رأس ميدوزا[1] المخوف هذا، الذي تراقبان محيّاه المذهول بانتباه وإمعان عظيمين. ليس شيء مستحيلٌ بالنسبة إلى هذه العين، اللهمّ إلّا شيء واحد ربما، ألا وهو البقاء في جمود وبلادة؛ النوم والإغفاء في أحضان الفرح الهادئ النقي، بين ذراعي سعادة الحلم وغبطته... كلّا، إنّ الجفنين لا يكادان يتباعدان حتّى تنطلق هذه العين، بصورة قاهرة، تفتّش عن فريسة لها، وقد أفاقت في عنفوان جبار، وطردت الوهم دونما رحمة أو إشفاق... إنّها تخترق كلّ خرافة، وتكشف اللثام عن كلّ كذب، وتسحق كلّ عقيدة... فالكلّ يتجرّد أمام عين الحقيقة هذه ويتعرّى... وإنّه ليكون أمراً رهيباً حقّاً إذا ما رفع تولستوي الخنجر الفولاذي الرمادي اللون ضد نفسه... إنّ شفرته لتغور إذن، قاتلة، حتّى أعمق أعماق القلب...

إنّ مَن يملك مثل هذه العين يرى الحقيقة، والعالم، وكل المعرفة ملك يديه. ولكن المرء لا يكون سعيداً بمثل هاتين العينين، الصادقتين أبداً، اليقظتين في كلّ الأحايين.

---

(1) إحدى آلهات اليونان... كانت مشهورة بجمالها، وجمال شعرها بصورة خاصة. غضبت منيرفا عليها، فحوّلت شعرها إلى أفاعٍ سامّة، وجعلت لعينيها قوّة تستطيع أن تحيل حجراً كلّ من يقع بصرها عليه. ولقد قطع بيرسي رأسها وحمله في سفراته كي يخيف به أعداءه.

# حيوية تولستوي ونقيضها

**«أودُّ أن أعيش طويلاً، طويلاً جداً؛ وإنّ فكرة الموت لتملأني رهبة طفولية وشعرية».**

**تولستوي**
**من رسائل الصبا**

**صحّة** مكتملة، وجسد قد يعيش حتى قرناً كاملاً، وعظام متينة مشبعة بالنخاع، وعضلات عقدة، وقوّة قمينة بدبٍّ حقيقي! إنّ تولستوي الفتى يستطيع، وهو متمدّد على الأرض، أن يرفع في الهواء بيده الواحدة جندياً ثقيلاً... وأوتار مرنة، فهو في المدرسة يقفز ـ دون انطلاق وبسهولة تامّة ـ فوق أعلى حبل يتمرّن الطلّاب عليه، ويسبح مثل السمكة، ويمتطي الجواد كأحد القوزاق، ويحصد مثل فلّاح قضى العمر كلّه في الحقل... إنّ هذا الجسد الحديدي لا يعرف تعباً إلّا ذلك الذي ينشأ من الفكر... كلّ عصب موتور يهتزّ حتّى الحدّ الأقصى مرناً ومقاوماً في وقت واحد، فكأنه شفرة «طليطلية»، وسائر الحواس حادّة يقظة متنبّهة لا يسطو النوم عليها أبداً... ليس ثمّة ثلمة، أو فجوة، أو نقص، أو عيب، في هذا الحاجز المستدير من القوّة الحيوية؛ وبالتالي فإنّ الداء لم ينجح أبداً في اقتحام هذا الجسد المبني من الحجارة المنحوتة... إنّ صحّة تولستوي العجيبة لا تبرح حصينة ضد كلّ ضعف، مسوّرة ضد كلّ شيخوخة.

وحيوية لا نظير لها؛ فإنّ سائر فنّاني العصور الحديثة ليبدون ـ إلى جانب هذا العنفوان الثوروي المجلّل بلحية هادرة، فلّاحية، بربرية ـ نساءً ضعيفات ويُفعاناً

ناحلين، بَلْهَ إنّ أولئك الذين كانوا يساوونه في القوّة الخلّاقة حتّى لسنٍّ متقدّمة جداً، هؤلاء ـ أيضاً ـ قد شاهدوا جسدهم يشيخ ويتعب تحت ثقل الفكر المتحرّك أبداً، الساعي دوماً وراء صيد جديد. وإنّ جوته الذي يتّفق وإيّاه ـ إن بتماثل يوم الولادة، الثامن والعشرين من آب، أو بالنظرة المبدعة إلى الكون، والذي تماسك أيضاً حتّى الثالثة والثمانين ـ إنّ جوته، في الستين، قد تصلّب وأمسى يخاف الشتاء ويرهبه؛ فهو منذ زمن بعيد لا يرى إلى العالم إلّا من وراء نافذته المغلقة بعناية فائقة وإحكام تام... أمّا فولتير، وقد تعظّم وأشبه طيراً ينذر فأله بالويل والثبور أكثر منه مخلوقاً إنسانيّاً، فيحك الورق على مكتبه ويحكه دون جدوى أو فائدة، بينما كان، وقد تعب وقسا عوده، يذهب ويجيء مثل مومياء ميكانيكية على طول ممرّه في كننسبرغ؛ في حين ظلّ تولستوي، هذا العجوز الذي يطفح قوّة وعزماً، يغمس جسده الأحمر من البرد في الماء المتجلّد وهو ينتفض كالعصفور بلّله الندى، ويشذّب الأشجاب في الحديقة دون كلل، كما يركض بخفّة ورشاقة خلف الكرات في ملعب التنس؛ ويراوده الفضول، وهو في السابعة والستين، فيريد أن يتعلّم امتطاء الدراجة، وفي السبعين يروح يتزحلق في الساحة المتألقة برشاقة تامّة، وفي الثمانين يدرّب يوميّاً عضلاته في تمارين رياضيّة عنيفة، وفي الثانية والثمانين، وهو على قاب قوسين من الموت، يلوّح بعد بالسوط، فوق رأس فرسه إذا توقّفت عن الركض، أو ثارت احتجاجاً بعد عشرين فرسخاً قطعتها في عدوٍ سريع. كلا، ليس هناك مقارنة ممكنة؛ فالقرن التاسع عشر لا يعرف أبداً مثيلاً لمثل هذه الحيوية القمينة بالعصور الأولى من العالم.

وهذه الغصون قد بلغت سماوات السنوات البطريركيّة، دون أن يجف جذر واحد في شجرة الحور هذه، العملاقة في الأرض، المنتفخة بالنسغ حتى آخر ليف فيها. إنّ العين تظل ثاقبة حتى ساعة الموت؛ فتولستوي عندما يكون ممتطياً جواده ترى نظرته المطلعة أكثر الحشرات دقّةً تزحف على لحاء الأشجار، كما

أنّه في غِنىً عن المنظار كي يلاحق طيران العقاب في السماء العريضة، والأذن منه تظل حادّة السمع، كما أنّ منخريه الواسعين، الحيوانيين تقريباً، يمتصّان كلّ رائحة لذيذة ويبتلعانها في نهم شديد وجشع لا مثيل له. إنّ نوعاً من النشوة تطبق دوماً على هذا الشيخ الأبيض اللحية عندما يستنشق بغتةً، أثناء نزهاته الربيعية، الرائحة القوية المتصاعدة من الدَّمَن والمختلطة بذفرة الأرض التي تتعرّى عن الجليد؛ فيشهد عندئذٍ في ذاكرته، بكل وضوح، ثمانين ربيعاً من الزمان الغابر يضع كلّ منها انطلاقه الخاص، أولى دفعات أبخرته، في هذه الدفقات من العطر الوحيد... إنّ الإحساس الذي ينتابه إذن لشديد الحيوية، شديد التأثير، حتى تبتلّ عيناه على حين غرّة وتدمعان...

إنّ ساقيه العصبيتين، ساقَيْ الصياد في حذاء الفلاح المرهق الثقل، يذرعان في كلّ حدب وصوب التربة النديّة، ويده الثابتة لا تعرف ارتعاش الشيوخ وتردّدهم، وخطّه في رسالة الوداع، يحمل بعد تلك الخطوط الكبيرة، والشطحات الطفوليّة التي يتميّز بها في سِنيّه الأولى. وفكره، هو أيضاً، ما برح يدوّن دون هوادة، سليماً بصورة رائعة مدهشة مثل أوتاره وأعصابه؛ فهو في الحديث يتألّق ويشعّ ويتجاوز الجميع، بينا تحفظ ذاكرته ـ بدقّتها المرعبة ـ حتّى أتفه التفاصيل، فلا يفلت شيء من قبضتها المتينة، ولا يستطيع محك السنوات القاسية أن يمحو أيّ بروز أو يلين من حدّته. وإنّ حاجِبَيْ الرجل العجوز ليرتجفان بعدُ غضباً كلّما لقي معارضة، بينما يدوّر الضحك الرنّان شفته الغليظة، ولسانه ما برح خصباً بالصور المبتكرة، بينما الدم الحار أبداً يطلب أن يكتفي ويشبع. وعندما اعترض أحدهم، أثناء مناقشة عن «السوناتا إلى كروتزر» على الرجل البالغ السبعين من العمر بأنّه يسهل في مثل سنّه أن يُقلع المرء عن الشهوانية؛ إذا عين العجوز الشديد تلقى شرر الكبرياء والغضب، وإذا هو يهتف: «هراء! إنّ الجسد ما برح قويّاً بعد، وما زلت حتّى الآن أقاوم!».

إنّ مثل هذه الحيوية الراسخة، العصيّة على الزوال، تستطيع وحدها أن تفسّر تلك القوّة الخلّاقة التي لا تتعب أو تكلّ أبداً، ولا ينضب لها معين أو يجف قط... ليست هناك سنة واحدة بين السنوات الستين من جهاده الدنيوي قد ظلّت مجدبة غير مثمرة، كما أنّ هذا الفكر لم يعرف سبيلاً إلى الراحة أبداً، وهذه الحساسية المستيقظة بصورة رائعة، الناهضة بصورة عجيبة، لم تذق يوماً طعماً للنوم أو للنعاس...إنّ تولستوي، حتّى في إبّان شيخوخته، لا يعرف معنى المرض الحقيقي، والإعياء لا ينال أبداً ـ بصورة جدّية ـ من هذا العامل الذي يشتغل عشر ساعات في النهار، وحواسّه الناشطة دوماً لا تحتاج إلى لسعة سوط المنبّهات من خمر أو قهوة، مثلما هي في غنىً عن الاستدفاء بالكحول أو اللحوم، حواسّه المروّضة هذه سليمة جداً، مستعدّة أبداً للهجوم، والفرح يغمرها، متوتّرة على الدوام بصورة شديدة المرونة، عامرة جداً بالطاقة الداخلية في كلّ الأحايين حتى لتروح تهتزّ لدى أدنى احتكاك، وحتى لتكفي قطرة واحدة كي تطفح بها... إنّ صحّته الجبّارة لا تمنع بشرته من أن تكون حسّاسة (كيف كان يمكن أن يكون فنّاناً لو لم تكن له هذه الإثارة القصوى؟) فلا تمسّ مفاتيح أعصابه، السليمة في جوهرها، إلّا بحذر شديد؛ لأنّ عنف ارتكاسها هو بالضبط ما يجعل سائر انفعالاته شديدة الخطورة، عظيمة الانفجار...

ولهذا فهو (مثل جوته وأفلاطون) يخشى الموسيقى؛ لأنّها تثير بعنف شديد أمواج شعوره العميقة الخفيّة... إنّها تهاجم دون هوادة أعصاب أهوائه المنتفخة بدماء حيويّته، أو كما يقول عنها: «إنّها تؤثّر فيّ بصورة رهيبة». وفي الحقيقة، فبينا عائلته تجلس حول البيانو تصغي في لطف وعدم اكتراث إلى الألحان العذبة؛يأخذ منخرا تولستوي بالارتجاف بصورة مخوفة، وينقبض حاجباه ويتخذان موقف الدفاع... إنّه يحسّ «ضغطاً غريباً حول عنقه» فلا يلبث أن يستدير بعنف، على حين غرّة، ويسرع إلى الباب هارباً؛ لأنّ العبرات قد انبثقت في عينيه...

قال مرّة وهو مذعور من نفس انتصاره: «ماذا تريد منّي هذه الموسيقى؟». إنّه يحسّ أنّها تريد شيئاً ما منه، إنّها تهدّد بسلبه ما قرّر ألّا يسلمه قط للآخرين، شيئاً يحتفظ به في أعماق دولاب عواطفه الخفي، فإذا اختمارٌ عنيف يحدث في باطنه بالرغم من ذلك، انبثاق يهدّد بأن يتجاوز السدود ويحطّمها...

ليس مَن يدري أيّ شيء فائق الجبروت، قوّته وإفراطه يخيفانه ويلقيان الذعر في قلبه، يأخذ بالحركة فيه والفوران... إنّه يحسّ بالرغم منه، في أعمق أعماق كينونته، أنّ موجة الشهوانية تُطبق عليه وتحيد به عنوةً عن الصراط المستقيم... ولكنه يبغض (أو يخشى) ـ بسبب ذلك الإفراط الذي لا يعرفه، بكل تأكيد، أحد سواه ـ شهواته الخاصة، الأمر الذي يدفعه إلى مطاردة «المرأة» أيضاً بحقد الناسكين، حقد لا يمكن أن يكون طبيعياً عند رجل سليم. إنّ المرأة لا تبدو له «عديمة الأذى إلّا عندما تنهمك في أمور الأمومة، إذا كانت متواضعة، أو إذا أضفى عليها السنّ جلالاً ووقاراً»؛ يعني فيما وراء تلك العاطفة الجنسية التي «أحسّ بها طوال حياته كعيبٍ ثقيل مرهقفي جسده»... إنّ المرأة، مثلها مثل الموسيقى، تمثّل بالنسبة إلى هذا العدو للإغريقية، هذا المسيحي المصطنع، هذا الراهب بالرغم منه؛ تمثّل الشر ولا تمثّل شيئاً سواه... إنّ هذه وتلك، المرأة والموسيقى، يحيدان بنا بواسطة الشهوانية «عن ميزاتنا الأصيلة من شجاعة وعزم وعقل وعدالة»... إنّهما تقوداننا، كما «سيبشّر الأب» تولستوي فيما بعد «إلى الخطيئة الجسدية»... إنّهما «تتطلّبان منه شيئاً ما» يرفض أن يعطيه، إنّهما تلمسان فيه شيئاً خطراً يخشى إيقاظه...

وليس من حاجة إلى كثير من الذكاء ليخمّن المرء أنّ المعني ههنا شهوانية شيطانية، قد كبح تولستوي جماحها بصبر وعزم في نضال دام سنوات طويلة، لكن دون أن ينجح في خنقها بصورة نهائية وسحقها بصورة تامّة، حيث بقيت ـ بعد أن روّضها واستعبدها وهزمها وأرهقها بالسوط دون شفقة ـ رابضة في

زاوية خفيّة من كينونته، ترتعش أظافرها وهي على أُهبة الاستعداد للقفز في أوّل لحظة تنعدم فيها المراقبة عليها... الموسيقى: هذا رباط الإرادة يرتخي، فإذا «الحيوان» ينتصر. النساء: هذه الكلاب تعوي وتزمجر متعطّشة إلى الدم، وهي تهز قضبان السجن الحديدية... بهذا القلق الرهباني المجنون، بهذه القشعريرة المخبولة اللذين يجتاحان تولستوي تجاه الشهوانية السليمة والصافية، العارية والطبيعيّة، بهذين الشيئين وحدهما يستطيع المرء إن خمّن ذلك العنفوان الجدير بالإله بان، ذلك الثوران الجامح، ثوران الحيوان الإنساني المختبئ فيه، والذي انطلق على هواه، في أيّام شبابه، في إفراط همجي (إنّه ينعت نفسه في خطاب إلى تشيخوف بـ«الزاني الذي لا يتعب» كي يظلّ فيما بعد حبيساً بالرغم منه طوال خمسين عاماً تحت قبب الأقبية، مسوّراً ولكن غير موؤود... إنّ أمراً واحداً في العمل الأخلاقي المطلق الذي حقّقه تولستوي، يكشف اللثام عن كون شهوانية هذا الرجل ذي الصحّة الهائلة قد بقيت مفرطة طوال حياته؛ وذلك هو خوفه من «المرأة» بالضبط، المجرّبة، هذا الخوف الذي يذكّرنا بآبار الصحراء، هذا الخوف الهادر والأكثر من المسيحي الذي يضطرّه ـ بالرغم منه ـ إلى غضّ ناظريه، والذي ليس هو في الحقيقة إلّا الخوف من نفس شهواته التي تسخر ـ فيما يبدو ـ من سائر الحدود وتتجاوزها.

دوماً وفي كلّ مكان نحسّ الشيء نفسه، إنّ تولستوي لا يخاف من أيّ شيءٍ مثلما يخاف من نفسه، من قوّته القمينة بدبٍّ جبّار... إنّ نشوة السعادة التي كثيراً ما ترسلها في أوصاله صحّته فوق العادية ليعكّر صفوها، بصورة محتومة لا مفرّ منها، الرعب الذي يبعثه فيه جبروت حواسّه الحيواني العاتي... لقد كبح جماح هذه الحواس، بكل تأكيد، كما لم يفعل أحد من قبله قط، ولكنّه يعرف حقّ المعرفة أنّ المرء لا يكون، عبثاً، إنساناً روسياً، الرجل الشعب وابن شعب متطرّف، إنّ المرء لا يكون ـ عبثاً ـ مجنوناً متطرّفاً، عبداً لكل ما يتجاوز الحدود

الطبيعية. وهذا هو السبب في أنّ إرادته العاقلة تُتعب جسده، وها هو السبب في أنّه يُشغل حواسّه دون انقطاع، فيفسح الميدان لها، ويقدّم إليها ألعاباً غير مؤذية، ويفيض عليها بالهواء والسرور، وما ذلك كلّه إلّا كي يغذّيها ويشبعها... إنّه يرهق عضلاته بجهد بربري في استعمال المنجل وقيادة المحراث، ويُتعبها بالرياضة البدنية، والسباحة والفروسية؛ كي ينتزع منها زعافها، ويحيلها عديمة الأذى، عاجزة عن الضرر... إنّه يدفع قوّته الخطرة إلى الخروج من الحياة الخاصة؛ كي تنتشر في الطبيعة حيث ينطلق في هياج لا حدود له بكلّ ما تلجمه طاقة إرادته في حياته الباطنة...

ولذا كان الصيد هوى أهوائه... ههنا تجد سائر الحواس ميداناً لها، إن كانت بناتاً للنور أم بناتاً للظلمة... إنّ غرائز قديمة جداً، موروثة عن أجداد موسكوفيين وربّما تتريين أيضاً، موروثة عن أجيال من الفرسان الرحّل والمحاربين الهمجيّين، لتستيقظ إذن بصورة شيطانية في دمائه الحبيسة عادة... إنّ الشهوانية المخوفة ترفع رأسها وتتأجّج، وتولستوي الذي لم يصبح رسولاً بعد، يسكر عندئذٍ برائحة الجياد الناضحة عرقاً غزيراً، وبهياج العدو الجنوني، وبالسباق والجولات المجنونة التي تبسط الأعصاب وتحمل إليها الراحة... لا بل إنّه يسكر (وهذا أمر يمتنع على الفهم عند ذلك الذي سيصير مجنون الإشفاق في أيامه المقبلة) بذعر الفريسة الصريعة وعذاباتها، الفريسة الدامية التي يبدو أنّ نظرتها الجامدة المحطّمة تتأمّل السماء الواسعة الأبعاد حيث كانت تحلّق قبل لحظة قصيرة... وإنّه ليعترف، عندما يحطّم جمجمة ذئب كاسر بضربة من هراوته، بأنّه يحسّ «لذّة حقيقية رائعة لدى مشهد آلام الحيوان الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة»... وإنّ المرء ليخمّن، من هذه الدفقة الظافرة من التعطّش إلى الدم، سائر الغرائز الحيوانية التي كبح جماحها في نفسه طوال حياته، اللهمّ إلّا في سنوات صباه المجنونة...

إنّ يديه ما برحتا ترتجفان بالرغم منه وكأنّهما تريدان أن تطلقا النار، حتى

بعد زمن طويل من زهده في الصيد عن قناعة أخلاقية، إذا ما رأى أرنباً بريّاً ينطلق على حين غرّة أمام عينيه عبر الميدان الفسيح... إنّه الحيوان الأمومي، الكائن الغريزي الذي يشدّ على سلاسله... ولكنه يكبح بعنف، وبصورة دائمة، هذا الهوى مثلما يفعل بكل هوًى آخر أيضاً. وأخيراً، فإنّ الفرح الذي تمنحه الأمور الجسدية إلى حواسّه يكتفي بتأمّل الحياة البسيطة وتصويرها فقط... ولكن أيّ فرحٍ جامحٍ جليٍّ هو هذا أيضاً! ويا لحواسّه السكرى بانطلاقها، كيف تعدو، تنشر أمواجها وتطبق على فريستها، منذ اللحظة التي يقودها فيها إلى الطبيعة الحرّة! وما أقل ما يلزمها كي تهتاج وتتأرّث! إنّ ابتسامة راضية تباعد كثيراً ما بين شفتيه كلّما مرّ قرب جواد جميل، فيروح ـ في لذّة شهوانيّة تقريباً ـ يربت على أعطافه الدافئة الحريرية، ويمسح عليها حتّى تسيل من بين أصابعه حرارة الحيوان الخافقة... إنّ كلّ ما هو حيواني خالص يملؤه تهلّلاً وإشراقاً، حتى إنّه ليتأمّل ـ مسحور العينين ـ رقص الفتيات طوال ساعات عديدة، مأخوذاً فقط بما في هذه الأجساد اللدنة من الرشاقة واللطف والليونة... وإذا ما التقى برجل جميل، أو بامرأة صبوحة الوجه، فإنّه يتوقّف عن المسير أو عن الحديث؛ لا لشيء إلّا كي يرضي دهشته الفرحة، ويهتف في حماسة واندفاع: «ما أروع الجمال الإنساني!». ذلك أنّه يحب الجسد؛ هذا الحوض للحياة الحيّة، هذا السطح الذي يحس النور ويعكسه، هذا العضو التنفّسي للهواء الحلو المذاق، المتدفّق من ألف ينبوع وينبوع، هذا الغلاف للدم ذي الدوران المحرق... إنّه يهواه في مجموع خفقانه الجسدي؛ لأنّه يجد فيه معنى الحياة وجوهرها...

بلى، إنّه ليحبّ الجسد، هذا الذي لم يعرف الأدب العالمي مغرماً بالحيوانات أكثر تأجّجاً منه، مثلما يحبّ الفنّان آلته الموسيقيّة... إنّه يحبّ الكائن الحكمي؛ لأنّه يجد فيه أكثر أشكال الإنسان طبيعية، ويحب ذاته في جسده البدائي أكثر ممّا يحب ذاته في نفسه الهشّة التي تتحدث بلغة مضاعفة؛ إنّه يحبّه في سائر

الأشكال وسائر الأزمان، منذ البداية حتى النهاية؛ وملاحظته الأولى الواعية عن هذا الهوى الذاتي (وهو ليس بالخطيئة) لَتعود إلى السنة الثانية من حياته...

ويجب أن نصرّ على هذه الناحية؛ كي نفهم جيداً بأيّ وضوحٍ وأيّ جلاء تظلّ سائر الذكريات مرئيّة عند تولستوي، مثلها مثل حصاة تحت تيّار الزمن. وبينا يكاد جوته وستندال لا يتذكّران انطباعات سنتهما السابعة أو الثامنة؛ يحسّ تولستوي، وهو بعد في الثانية، مشاعر تبلغ من التعقيد ما يبلغه الفنّان الذي كان مدعوّاً لأن يصير إليه... مشاعر تتوطّد بها، بقوّة عظيمة، وفرة حواسّه وتعدّدها... فلنقرأ هذا الوصف لأوّل انطباع تركه فيه جسده: «إنّي أجلس في مِحَمٍّ من الخشب، تحيط به من كلّ حدبٍ وصوبٍ رائحة جديدة بالنسبة إليّ، ولكنها ليست كريهة، رائحة سائل يفركون به جسدي... لا ريب أنّها مياه النخالة التي كانوا يستعملونها في اغتسالي... وإنّ جِدّة هذا الانطباع تؤثّر فيّ، فألاحظ للمرّة الأولى، في حنان، جسدي الصغير، وقد بانت أضلاعه في القسم الأمامي من الصدر، كما ألاحظ وجنَتَيْ ممرّضتي القاتمتين الملساوين وأكمامها المرفوعة، وكذلك مياه النخالة الحارّة الداخنة ورشرشاتها. ولكني لا أنسى، بصورة خاصة، ذلك الإحساس من المادة المصقولة الذي يرسله المِحَمّ فيّ كلّما مررت بيدي الصغيرة على جوانبه».

وإذا أردنا الآن أن نحلّل ذكريات الطفولة هذه ونصنّفها حسب مناطقها الحواسّية؛ لدهشنا إذن من ذلك الكمال التام الذي يشاهد به تولستوي العالم الخارجي، وهو في هيكل اليرقة الصغيرة لطفل في الثانية من عمره. إنّه يرى تلك التي تُعنى به، إنّه يشمّ رائحة النخالة، إنّه يميّز منذ الآن ذلك الانطباع الجديد، إنّه يحسّ حرارة الماء، إنّه يسمع الضوضاء، إنّه يتلمّس جُدُر الخشب المصقول، وإذا سائر هذه الانطباعات المتواقتة لمختلف الحبال العصبية تؤدّي إلى تأمّل الطفل «بحنان» جماعي، لجسده الصغير، باعتباره سطحاً جماعياً تعبر كلّ إحساسات الحياة عن نفسها من خلاله... وإنّنا لنرى كيف تلتحم محاجم

الحواس بالوجود في وقت مبكّر جداً، وبأيّة قوّة وأيّة دقّة في الوجدان ينفصل إدراك العالم عند الطفل، منذ الآن، إلى انطباعات متميّزة مفترقة... ولفي وسعنا أن نقدّر، منذ هذه اللحظة، مبلغ ما يمكن لهذه العضوية، إذا ما أصبحت بالغة يوماً، أن تضفيه من الحذق والشدّة معاً على كلّ انطباع يوم يكمل الطفل نضوجه، وتنتفخ حواسّه بالنخاع والقدرة العضلية، ويشحذ الوعي إحساساته، ويوتّر فضول الحياة المصاحبة ويشدّها... وعندئذٍ سوف يزدهر هذا الارتياح البدائي الذي يهب الطفل اللعوب الإحساس العميق بجسده الصغير في المِحَمّ الضيّق؛ عندئذٍ سوف تزدهر لذّة بالغة بالوجود، لذّة همجية تكاد تكون كلبة... وإنّ الرجل البالغ، مثله مثل رضيع الأمس، سوف يخلط، في شعور متّحدٍ بالنشوة، الخارج والباطن، الكون والأنا، الطبيعة والحياة جميعاً...

وفي الحقيقة، إنّ هذه النشوة بالأنا المتّحدة بشمول الأشياء، كثيراً ما تطبق على تولستوي الذي بلغ الرجولة، فكأنّها هذيان مستعر... يكفي أن نقرأ أنّ هذا الإنسان الجبّار ينهض أحياناً في الليل، ويغادر فراشه كي يغدو إلى الغابة يتأمّل العالم الذي اختاره من بين ملايين الأحياء؛ كي يحسّه بقوّة ووضوح يفوقان إحساس الآخرين به، وإنّه ينفخ صدره على حين غرّة بإشراقٍ عظيمٍ، ويمدّ ذراعيه ويفتحهما واسعتين عريضتين وكأنّه يستطيع أن يمسك اللانهاية التي تعذّب نفسه في الهواء الحيّ الطنّان من حوله، أو أنّه ينحني أيضاً، وهو لا يقل انفعالاً بأحقر الأشياء منه بامتداد الكون العظيم؛ كي يرفع عن الأرض نبتة صغيرة سحقتها بعض الأقدام، ويسوّي أوراقها في عطف وحنان فائقين، أو كي يتأمّل مأخوذاً بلعب حشرة صغيرة مضطربة الطيران... ومن ثمّ، إذ يرى أنّ بعض الأصدقاء يراقبونه؛ يستدير جانباً بسرعة كيلا يفضح الدموعَ المترقرقة في عينيه. إنّ أحداً من الشعراء المعاصرين، حتى والت ويتمان نفسه، لم يحس بمثل هذه القوّة، ما تبعثه الأعضاء الأرضيّة والجسدية من لذّة حكمية عاتية فينا. وليس

بينهم من اجتذب إليه، من أحضان الأبدية، بكل هذا الوضوح والحدّة، سائر التفاصيل على الإطلاق (وهو ينظر، ويحس، ويشم الأشياء في وقت واحد) مثل هذا الروسي، بحميّا شهوانيته القمينة بالإله بان؛ بإلهٍ قديمٍ حاضرٍ في كلّ مكان. وعندئذٍ نستطيع أن نفهم هذه الكلمة التي هتف بها بكل فخر واعتزاز: «إنّي أنا نفسي الطبيعة!».

هذا الروسي المتفرّع الأغصان، الذي يؤلّف كوناً مستقلاً قائماً بذاته في هذا الكون الذي يحيط بنا، كوناً تمتد جذوره قوية متينة في تربته الموسكوفية؛ ليخيّل إليك أنّ شيئاً في هذا العالم لا يمكن أن يزعزع ثباته الراسخ، الجسدي والفكري جميعاً... ولكن الأرض نفسها قد ترتجف في بعض الأحيان بفعل زلزال يهزّها في أعماق باطنها، وهكذا تولستوي ـ أيضاً ـ يترنّح أحياناً في ملء يقينه الثابت الوطيد الأركان... هذه عينه تجمد على حين غرة، وهذه حواسّه تتأرجح ولا تجد أمامها إلّا الفراغ وحده، الفراغ المخيف؛ لأنّ شيئاً ما غريباً غير مألوف قد دخل ساحة بصره، شيئاً تعجز الحواس عن إدراك معناه، شيئاً يظلّ خارجاً عن حدود الكمال الدافئ الذي يتمتّع به كلا الجسد والحياة جميعاً، شيئاً لا يفقه له معنى بالرغم من توتّر أعصابه التام، شيئاً يخرج عن متناول يده، وهو رجل الحواس؛ لأنّه ليس بالشيء الأرضي، بل هو عنصر لا يستطيع أن يمتصّه أو يمزجه بنفس مادته وعناصره الخاصة، شيئاً يلقي ظلاً غريباً وراء كلّ ما يجعل الإنسان سعيداً، وكل ما يمكن للإحساس أن يبلغ إليه، شيئاً لا يقبل أن يُمسّ أو يوزن، ويرفض أن يدخل في شعور الكون الشامل، هذا الشعور، المتعطّش دوماً... وفي الحقيقة، كيف السبيل إلى الإمساك بهذه الفكرة المخوفة التي تشقّ، على حين غرّة، الفراغ المستدير الذي يؤلّف مسرحاً تجري الحوادث على خشبته؟ كيف السبيل إلى تصوّر هذه الحواس المتدفقة الخفّاقة بالحياة وقد انقلبت يوماً ما خرساء صمّاء، وهذه اليد وقد أضحت معرّاة من اللحم مجرّدة عن الإحساس،

وهذا الجسد العاري الجميل الذي يلتهب في هذه اللحظة بتيّار الدماء الجارية في عروقه، وقد أمسى مرعى للديدان تنهش فيه، وهيكلاً بارداً كالحجر الأصم لا يحسّ ولا يعي؟ ماذا يحدث يا تُرى لو انبثق عنده أيضاً، هذا اليوم أو غداً، ذلك العدم، ذلك الشيء الأسود الرابض خلف الحياة، ذلك الشيء الذي لا يمكننا أن نقاومه وندافع عن أنفسنا ضدّه، كما لا يمكننا في أيّ مكانٍ أن ندركه بوضوح وجلاء؟ ماذا يحدث يا تُرى لو أنّ ذلك الحضور، الممتنع عن الحواس، تسرّب إلى داخله، وهو الذي ما يزال يطفح بعد بعصارات الحياة وعنفوانها؟

إنّ الدّم يجمد في عروقه ويكفّ عن الدوران كلّما تملّكته فكرة الفناء... كان طفلاً بعد عندما التقى بهذا الفناء للمرّة الأولى؛ وذلك يوم قادوه إلى قرب جثمان أُمّه... كان يضطجع هناك شيء بارد صلب، والحياة بالأمس فقط كانت تدبُّ في أوصاله طريّة دافئة. ولم يستطع، طوال ثمانين عاماً، أن ينسى تلك الظاهرة التي عجز يومذاك عن تعليلها، إنْ بالشعور أو بالفكر أيضاً. ولكن ذلك الطفل البالغ من العمر سنته الخامسة ليطلق صيحة، صيحة ذعر رهيبة، ومن ثمّ يولّي الأدبار هارباً في فزع مجنون تلاحقه سائر آلهة الخوف وجنيّاته. وإنّ فكرة الموت لتسقط عليه، في كلّ مرة، بالعنف نفسه أشبه ما تكون بصدمة شديدة، أو بقوة تُضيّق الخناق عليه حتى لتكاد أن تُزهِق روحه، إنْ لدى وفاة أخيه، أم منيّة أبيه، أم موت عمّته، كما أنّ تلك اليد الجليدية تُطبق على عنقه، في كلّ مرة، وتجلده جلداً لا رحمة فيه، فيحس أعصابه جميعاً وكأنّها تتمزّق تحت قبضتها القاسية الرهيبة.

وفي عام 1869، قبل حدوث الأزمة بفترة قصيرة، وصف تولستوي «ذلك الرعب الأصفر الشاحب» (وهذا هو نفس تعبيره) الذي ينتابه لدى كلّ انبثاق مماثل: «كنت أحاول أن أنام ولكنّي ما إن اضطجعت حتى تملّكني ذعر عظيم، وأخذني ارتعاش شديد أجبراني على النهوض من فراشي؛ ذلك إحساس من العذاب

كالذي ينتاب المرء قبل أن يقيء... إنّ شيئاً يحطّم وجودي إرباً إرباً، ولكن دون أن يأتي عليه تماماً ويفنيه... حاولت مرة أخرى أن أنام، ولكن الرعب كان حاضراً هناك، أحمر وأبيض... إنّ شيئاً ما يمزّق كينونتي ويجتاح كلّ أوصالي بالرغم من ذلك». إنّ الحادث الرهيب قد تحقق، فقبل أن يرفع الموت إصبعاً واحدة على جسد تولستوي، قبل موته الحقيقي بأربعين سنة، كان الإحساس السابق به يتسرّب إلى الحي نفسه دون أن يستطيع أي شيء أن يطرده منها بصورة نهائية. إنّ عذاباً عظيماً يقتعد في الليل حافّة سريره، إنّه يقضم كبد فرحة الحياة عنده، إنه يتسلّل بين صفحات كتبه ويلتهم أفكاره السوداء التي شرع التفسّخ ينال منها.

وهكذا نرى أنّ رهبة الموت عند تولستوي رهبة فوق إنسانية، مثلها مثل حيويّته التي كانت تفوق حيوية البشر. ولو أنّنا نعتناها بالرهبة العصبية الشبيهة ـ مثلاً ـ بالخوف الناشئ عن الوهن العصبي الذي نجده عند إدجار آلان بو، أو القشعريرة الصوفية اللذيذة الأثر التي نلقاها عند نوفاليس[1]، أو الاكتئاب المبتئس الحزين الذي نراه عند لورو[2]؛ لكان في وصفنا هذا شيء كثير من الحياء والوجل. ههنا يتظاهر رعب بربري، حيواني، عارٍ، ذعر خالص لا خليط فيه، عاصفة جبّارة من القلق، خوف من غريزة الحياة التي تلاشت في التوّ واللحظة. إنّ تولستوي لا يرهب الموت كإنسان مفكّر، أو كروح بطولية رجوليّة العنفوان، بل إنّك لتقول عنه إنّه وسم بالحديد الأحمر فأصبح بعد الآن عبداً لذلك الرعب يرتجف أمامه بكلّ ذرّة من ذرّات كينونته، ويطلق صيحات عنيفة حادّة دون أن يستطيع أن يتمالك زمام نفسه ويستعيد هدوءه... إنّ رهبته تتفرّغ على شكل انفجارات من الهلع الحيواني والجبن المترنّح، على شكل صدمات شديدة لا تبقي ولا تذر... وذلك هو العذاب البدائي للخليقة وقد تجسّد في إنسان واحد؛ ذلك

(1) شاعر ألماني صوفي النزعة من شعراء القرن التاسع عشر.

(2) شاعر ألماني معذّب حزين ولد في هنغاريا (1802 ـ 1850).

هو الرعب الذي تعبّر عنه ـ في جنون وخبل ـ أجيال عديدة تتكلّم بلسان نفس واحدة. إنّه لا يريد أن يستسلم لتلك الفكرة، لا يريد ذلك بل يرفضه، فيحطّم الرعب مفاصله بوحشيّة فائقة، إذ يجب ألّا ننسى أنّه قد هاجمه على غير انتظار، بينما هو يرتع في هدوءٍ لا متناه معدوم الحدود، بحيث إنّ الانتقال بين الحياة والموت يعوز هذا الدب الموسكوفي الرابض في جبّه بأمان وطمأنينة. إنّ الموت، بالنسبة إلى هذا الكائن الصحيح تماماً، لشيء غريب عنه بصورة مطلقة، بينا الإنسان المتوسّط يجد ـ عادةً ـ جسراً ينتصب بين الحياة والموت كثيراً ما يعبر؛ وذلك الجسر هو المرض.

إنّ معظم الأشخاص، عندما يقاربون الخمسين، يجدون في أنفسهم عنصراً من عناصر الموت في حال الكمون... فوجود الموت بالنسبة إليهم لم يعد شيئاً خارجياً تماماً، مفاجأة إن صحّ التعبير... ولذا فهم لا يرتعشون لدى هجمته الأولى العنيفة على تلك الصورة الرهيبة... خذ مثلاً دستويفسكي الذي رُبط إلى عمود الإعدام، وقد عُصبت عيناه، ينتظر طلقات الرصاص التي ستضع حدّاً لحياته، والذي كان يسقط في كلّ أسبوع فريسة لاختلاجات صرعية، حتّى لقد اعتاد هكذا على العذاب، وأصبح يجابه فكرة الموت بثبات أعظم من ذلك الذي لم يشك بها لحظة واحدة؛ لأنه يطفح دوماً صحّة وحيوية، فلا يجمد ظلّ هذا الرعب الذليل تقريباً، والذي ليس من ثقل يعدله، دماءه بمثل الشدة التي يجتاح بها دماء تولستوي، هذا الذي ينتابه الارتعاش لمجرّد سماعه صدى الكلمة، أو لمجرّد اقتراب فكرة الموت منه... إنّه لا يجد اكتمال قيمة الحياة إلّا في ازدهار أناه، في «نشوة الحياة» على حدّ تعبيره؛ ولذا فإنّ أقلّ إنقاص لهذه الحيوية يصبح في نظره نوعاً من الداء (كان في السادسة والثلاثين ينعت نفسه «بالرجل العجوز»). وذلك هو السبب في أنّ هذا الشعور الجديد يخترقه كالقذيفة من الجانب الواحد حتى الجانب الآخر.

إنّ من يحسّ الوجود بكل هذا الجبروت الحيوي يستطيع وحده، من دون سواه ـ وبفضل حادثة مكمّلة لذلك الإحساس ليس غير ـ أن يخشى اللاكينونة بمثل تلك الشدّة، كما لا يمكن إلّا لهذه الصحّة التي تتجاوز كلّ حدود أن تذعر بمثل هذه النقمة المهتاجة أمام واقع الموت الذي يفوقها قوّةً وبطشاً. ولكن قيام حيوية شيطانية ههنا في وجه ذعر من الموت، شيطاني بدوره، هو بالضبط السبب في حدوث مثل ذلك النضال العملاقي بين الكينونة واللاكينونة عند تولستوي، هذا النضال الذي لا نجد له مثيلاً في الآداب العالمية جميعاً؛ لأنّ الطبيعة العملاقية تستطيع وحدها أن تُبدي مقاومة جبّارة عملاقة أيضاً. إنّ إنساناً متسلّطاً، صنديد الإرادة مثل تولستوي، لا يستسلم ويلقي السلاح ببساطة وخضوع أمام العدم، كما لا يبحث في جبن عن مأوى له خلف أبواب الكنائس، بل إنّه يتمالك نفسه سريعاً بعد الصدمة الأولى، ويقلّص عضلاته ويشحذها كي يغلب هذا العدو الذي انقضّ عليه بصورة مفاجئة من حيث لا يدري. كلّا، إنّ مثل حيويته الطافحة المرنة لا تقبل بالهزيمة دون قتال، فهو لا يكاد يستيقظ من ذعره الأوّل، حتّى يتحصّن خلف متاريس الفلسفة، ويرفع الجسور، ويروح يصبّ على العدو الخفيّ ـ بغية طرده ـ قذائف المنجنيق التي يتناولها من مصنع منطقه؛ وأنّ الازدراء هو أوّل وسائل دفاعه: «إنّي لا أستطيع الاهتمام بالموت، لسببٍ رئيسي؛ هو عدم وجوده ما دمت على قيد الحياة» ويروح ينعته بأنّه «لا يستأهل التصديق»، ويدّعي في كبرياء أنّه «لا يخاف الموت، بل الخوف من الموت فقط»، ويؤكّد دون انقطاع (طوال ثلاثين عاماً!) أنّه لا يخشاه، وأنّه لا يفكر فيه في عذاب وقلق أبداً. ولكن هذه الأقوال جميعاً ينقضها بكل وضوح حقيقة انحصار عنايته، منذ سنته الخمسين، في قضية الموت وحدها، بصورة مستمرّة دائمة تفلت من نطاق إرادته، ليس بصورة سطحية عابرة، بل «بكل قوى نفسه» دون أن ينجح بالرغم من ذلك في خداع أيّ إنسانٍ كان، حتّى ولا نفسه

أيضاً... ليس في ذلك أدنى ريب... إنّ فجوة قد حدثت في حاجز هدوئه الأخلاقي والحكمي منذ أوّل هجوم شنّه عليه ذلك الخوف النفساني؛ فإذا سائر أعصابه وسائر أفكاره تقع تحت رحمة هذه الهجمات؛ فهو لا يقاتل بعد سنته الخمسين إلّا على أنقاض الثقة التي كان يملكها فيما مضى بحياته الخاصة. لا بل إنّ وعيه في استحالة الإفلات من قبضة تلك الفكرة يزداد ويتفاقم بمقدار ما يبذل من الجهود المستميتة؛ كي ينتزع نفسه من هذا الوسواس الذي يرهقه ويئيد عليه. ولم يكن أمامه بدٌّ من الاعتراف، وهو يتقهقر خطوةً فخطوة، بأنّ الموت ليس مجرّد «شبح» و«فزّاعة» فحسب، بل هو خصم يستحق عظيم الاحترام؛ خصم لا يمكن إخافته بالكلمات البسيطة... وعندئذٍ يجرّب تولستوي إن كان يستطيع أن يحيا في أحضان ضرورة الفناء التي لا غِنى عنها، وإن كان يستطيع أن يعيش مع الموت ما دام لا يستطيع أن يعيش وهو يناضل ضده.

وتبدأ، بفضل هذا النور الجديد، مرحلة ثانية، خصبة هذه المرة، في علاقات تولستوي مع الموت. إنّه «لا يتخبّط أبداً» ضد وجود هذا الأخير، ولا يغذّي قط الوهم بإمكان تنحيته بالمغالطات والسفسطات أو قوّة الإرادة أيضاً، وبإمكان إبعاده عن عالم أفكاره والخلاص منه بصورة نهائية، بل يسعى إلى إدخاله في وجوده إلى صهره بشعور حياته، إلى التحجّر ضد ما لا بدّ منه، إلى «الاعتياد» عليه... إنّ الموت لا يُقهر، وعملاق الحياة الذي هو تولستوي مجبر على الاعتراف بهذه الحقيقة المُرّة، ولكن الخشية من الموت ليست كذلك أيضاً؛ فهو يجنّد إذن كلّ قواه بعد الآن ضد هذا الخوف فقط. ومثل المتدينين الإسبانيين الذين ينامون في القبور كي يقتلوا في باطنهم كلّ فرقٍ من الموت؛ يروح تولستوي يمارس، بتدريب للإرادة عنيد ويومي على غرار الاتجاه الذاتي، تقويماً للموت مستمّراً لا انقطاع فيه... فيجبر نفسه على التفكير في المنيّة على الدوام، دون أن يرهب جانبها أبداً. إنّ كلّ مقطوعة من مذكراته تبدأ بأحرف ثلاثة غامضة:

إ. ب. ح. («إذا بقيت حيّاً»)... وطوال سنوات عديدة يبدأ كلّ شهر من حياته بهذه الملاحظة، هذا التذكير الموجّه إلى ذاته: «إنّي أقترب من الموت»، فيعتاد هكذا على التطلّع إليه وجهاً لوجه دون وجل... ولكن العادة تُلين ما في الشيء من غرابة وتخفّف من حدّته... إنّها تنتصر على الموت! وهكذا فإنّ الفكرة الغريبة في البدء لا تلبث، في ثلاثين عاماً من النضال ضد الموت، أن تصير باطنة متّحدة بجوهر الحياة، والعدو يصبح صديقاً حتى درجة ما؛ لأنّ تولستوي يجتذبه إليه، يجتذبه إلى باطنه... إنه يجعل من الموت عنصراً أخلاقياً من عناصر حياته؛ وبذلك يصبح العذاب البدائي «مساوياً إلى الصفر»، والإنسان يصير أشيب الشعر في هدوء وبكل طيبة خاطر أيضاً، والحكيم ينظر في وجه الفزّاعة القديمة دون هيبة أو هلع... «ليس من حاجة إلى التفكير في أمره، لكن يجب أن نراه دوماً أمامنا... إنّ الحياة بأسرها تصبح عندئذٍ أكثر خطورة وأهميّة، وفي الحقيقة أكثر خصباً وبهجة».

إنّ الضرورة قد أصبحت فضيلة، وتولستوي (هذا الينبوع الأبدي للفنّان!) قد تغلّب على ذعره عندما جعله موضوعياً. لقد أبعد عنه الموت والخوف من الموت بتجسيدهما في مخلوقات أخرى، في أشخاص مؤلّفاته... وهكذا فإنّ ما كان في البدء يسعى إلى سحقه، فيما يبدو، قد أمسى الآن يفيده في مضاعفة الحياة عمقاً، ويضفي على فنّه ـ بحادث لم يكن أبداً في الحسبان ـ اتساعاً رائعاً عظيماً... ذلك أنّه يعرف ماهيّة الموت، منذ أدرك أنّه مقدّر له بالضرورة فلا مفرّ منه. وهكذا يصبح، بفضل محاولاته الاستكشافيّة المعذّبة، بفضل آلاف المرّات التي تصوّر فيها نفسه يحتضر ويموت، هو أكثر الأحياء تعطّشاً وتأجّجاً، أفضل من وصف الموت، سيّد سائر الذين صوّروا يوماً ما قضايا المنيّة. إنّ القلق، هذا الذي يسبق الواقع ويتقدّم عليه، الذي يسأل سائر الإمكانيات محموماً متأرّثاً. هذا الذي يملك أجنحة الخيال، لهو دوماً ـ بكل تأكيد ـ أكثر إبداعاً من الصحّة

الخرساء الفظّة... ما القول إذن بقلق مرتعش على هذا الفرار، مذعورٍ حتّى هذه الدرجة، محتدٌّ منذ عشرات السنين؟ ما القول إذن بالرعب والذهول المقدّسين، رعب أحد عمالقة الفكر وذهوله؟ إنّه يعرف بفضل الموت كلّ أعراض الانعدام الجسدي، يعرف كلّ سمة وكل إشارة يرسمهما منقاش تاناتوس[1] في الجسم الذي سيفنى ويتلاشى، يعرف كلّ قشعريرة وكل إعصار من الرعب يجتاحان النفس التي تبتلعها الظلمات؛ إنّ الفنان يشعر ويتهلّل بقوّة عظمى بفضل معرفته الخاصة... إنّ موت إيفان إيليتش[2] الذي يزمجر بصورة رهيبة: «لا أريد، لا أريد!»، ونهاية أخي ليفين[3] المفجعة، والمنايا المتعدّدة التي يصفها في رواياته، و«الأموات الثلاثة» أخيراً، كلّ هذه الحركات التي يقوم بها فكر في المرصاد أبداً، يميل على حافة الوجدان القصوى، كلّ هذا ـ وهو أفضل مزيّة نفسانية لتولستوي ـ كان يظلّ عصيّاً على الإدراك دون ذلك التزعزع الهائل، دون تشرّب الكائن بمجموعه بالرعب الذي أحسّه هو نفسه، دون هذه القشعريرة الجديدة، المجبولة من اليقظة والريبة، هذه القشعريرة التي تسمو فوق هذا العالم وتعلو عليه. هل يمكن لأقلّ اختلاف في الفكرة، ولأقلّ تغيّر حكمي أن يرتسما بكل ذلك الوضوح إلّا في هذا التناقض مع ينبوع الضياء الذي لا ينضب بالنسبة إلى الفنّان، ينبوع صحّته القاتم؟ إنّ قوّة قد حطّمها الرعب بكل هذا العنف الفائق الوصف حتّى أعمق جوهرها، هذه القوّة وحدها تستطيع بعد أن ترتجف على هذا الغرار، بكل من أليافها؛ لأنّها أرادت أن تظلّ يقظة لا تنام. إنّ العطف يتطلّب دوماً أن يسبقه الشعور، وتولستوي ـ كيف يصف هؤلاء الأموات المائة ـ كان مضطراً قبلاً لأن يعيش الموت في نفسه المضطربة، وأن يحسّه، ويرزح تحت وطأته مائة من

---

(1) إله الموت عند الإغريق.

(2) قصة لتولستوي.

(3) أحد شخصيات آنا كارنينا.

المرّات... وبالتالي فإنّ العبث الظاهري القائم في ذلك الإظلام المفاجئ للوجود هو بالضبط ما يُشعل عند الفنان الذي هو تولستوي معنىً جديداً؛ لأنّ قلقه وحده، المصنوع من الحدس والإحساس السابق، قد رفع فنّه من السطحي، من مجرّد ملاحظة الواقع ونسخه، إلى أعماق المعرفة... إنّ هذا القلق وحده، بعد كمال الموضوعيّة الحسيّة، على غرار روبنز[1]، هو الذي علّم تولستوي ذلك الضياء الميتافيزيقي ـ إن صحّ التعبير ـ القادم من الباطن، في وسط الظلال المفجعة؛ ذلك الضياء الذي يميّز رامبرانت بصورة خاصة... ولأنّ تولستوي قد عاش الموت بحميّا تفوق حميّا سواه من الناس، عاشه في ملء المادة الحيّة؛ لهذا السبب وحده قد أحال الموت حيّاً لنا جميعاً، كما لم يفعل سواه قط.

إنّ كلّ أزمة هدية من القدر إلى الإنسان الخالق... وهكذا يتحقّق أخيراً في موقف تولستوي الروحي من الكون وفلسفته، تماماً مثلما حدث في فنّه، توازن جديد أكثر ارتفاعاً وسموّاً... إنّ المتناقضات تتداخل، والنزاع الرهيب بين الرغبة في الحياة ونقيضها المفجع، يفسح المكان لتفاهم حكيم متوافق... إنّ الحياة التي تنطفئ ببطء، والموت الذي تقترب ظلاله، يمتزجان، الموجة في إثْر الموجة، بصورة جميلة خصبة، في القيلولة البطولية لسنوات شيخوخته... والشعور ـ وقد هدأ في النهاية واستكان ـ يرتاح بمجموعه، حسب مفهوم سبينوزا، في توازن خالص بين الرهبة وبين رجاء الساعة العظمى: «ليس حسناً أن نخاف الموت، وليس حسناً أن نرغب فيه، بل يجب أن نضع إبرة الميزان عمودية، فلا تتغلّب أيّ من الكفّتين على الأخرى... تلك هي أفضل الشروط لحياةٍ جيدة».

إنّ النشاز قد انسجم أخيراً، والعجوز تولستوي لم يعد يغذّي الحقد على الموت، ولم يعد فارغ الصبر تجاهه... إنّه لا يهرب منه ولا يبغضه، بل هو يحلم

---

(1) صاحب «النزول عن الصليب» و«صلب القديس بطرس». فلندي المولد «1577 ـ 1640».

به فقط في تأمّلات عذبة، مثلما يشتغل الفنان سلفاً، بفكره، في عملٍ غير مرئي، لكنه حاضر بالرغم من ذلك منذ الآن... وذلك هو السبب، على وجه الدقّة، في أنّ هذه الساعة العظمى، المرهوبة جداً، تهبه النعمة الكاملة، نعمة موت عظيم مثل حياته، موت سوف يكون أعظم أثراً من آثاره...

ليون تولستوي

# الفنان

**«ليس من لذّة حقيقية إلّا تلك التي تنشأ عن الخلق؛ إن صنع المرء أقلاماً، أو أحذية، أو خبزاً، أو أطفالاً، يعني كائنات حيّة؛ فليس من لذّة حقيقية بريئة من الألم، من العذاب، من تأنيب الضمير ومن المذلّة دون الخلق أبداً».**

**من رسائل تولستوي**

لا يبلغ الأثر الفنّي أرفع درجات الكمال إلّا عندما ننسى منشأه المصطنع؛ فنعود نخال وجود الحقيقة المجرّدة العارية... وما أكثر ما يتحقّق هذا الوهم السامي عند تولستوي؛ حتى لا نجرؤ أبداً أن نفترض ـ لشدّة ما تبدو لنا أقاصيصه مزدهرة بألوان الحقيقة الحسّية ـ أنّ رواياته من نسيج الخيال وحده، وأنّ شخصياته من صنع الابتكار ليس غير. إنّ المرء ليتصوّر، وهو يقرؤه، أنّه إنّما يتطلّع إلى العالم الواقعي من نافذة مفتوحة المصراعين تطلّ عليه من علٍّ.

وبالتالي، لو لم يكن هناك إلّا فنّانون على غرار تولستوي؛ لسهل جداً وقوعنا في خطأ الاعتقاد أنّ الفنّ شيء يسير للغاية، وأنّ الحقيقة الفنية أمر طبيعي تماماً، وأنّ وضع مؤلّف أدبي يرجع بكل بساطةٍ إلى نقل نسخة أمينة عن الواقع، إلى نوع من الرسم البسيط الذي لا يتطلّب عناءً فكرياً عظيماً، وأنّه لا يلزم في سبيل ذلك ـ حسب تعبير تولستوي نفسه ـ أكثر من «موهبة سلبية، ألا وهي عدم الكذب». ذلك أنّ آثار تولستوي تنتصب أمام أعيننا، بوضوح عظيم، وبكل ما في

المشاهد الطبيعية من طبيعي ساذج، تنتصب أمام أعيننا إذن، ثرية هدّارة، أشبه بطبيعة جديدة، لا تقل عن الطبيعة الأخرى صحّةً وصدقاً ونصيباً من الحقيقة. إنّ سائر قوى حميّا الإلهام، حميّا الإرسال والولادة، حميّا الرؤى المتألّقة والخيال الجريء، المقدام، اللامنطقي في أغلب الأحايين، هذه العناصر الأساسية لكل مبدع، إنّ سائر هذه القوى الخفيّة تبدو تافهة، عديمة الجدوى وغائبة في آثار تولستوي الملحمية، حتى ليحمل المرء على التفكير أنّه ليس في حضور شيطان سكران، بل في حضور إنسان جليّ الخاطر، رابط الجأش، يصنع دون جهد ـ بالمشاهدة البسيطة الدقيقة والتصوير المثابر الذي ينسخ الطبيعة به ـ نسخة ثانية عن الواقع الملموس، ولا يفعل شيئاً أكثر من ذلك.

ولكن كمال الفنّان يخدع ههنا الفكر الذي يتمتّع به في امتنان وعرفان بالجميل؛ إذ هل أصعب من الحقيقة، وهل أكثر عناء من الوضوح؟ إنّ المخطوطات الأصلية تثبت أنّ السهولة لم تفسد تولستوي أبداً، بل هو في الحقيقة أجدر العاملين بالإعجاب والتقدير، ومن أكثرهم صبراً واجتهاداً وعكوفاً، وأنّ التصاوير الرائعة التي وضعها عن الكون، لأشبه ما تكون بفسيفساء عظيمة الفنّ، قد استهلكت عناءً لا يقل عظمة عن الفنّ المتجلّي فيها؛ فسيفساء صنعت بتراكب أحجار صغيرة لا عدّ لها ولا حصر، يحمل كلّ منها في ذاته عنصراً لامتناهياً من اللون؛ بتعبير آخر: إنّها صُنعت باتحاد ملايين المشاهدات الدقيقة حتّى الدرجة القصوى، والتي لا تفلت منها كبيرة أو صغيرة من وقائع الحياة.

ههنا، وراء وضوح الخطوط، هذا الوضوح الذي يتحقّق في الظاهر دون عناء كبير؛ يختفي أصعب عمل ينجزه عامل عنيد صعب المراس، ليس هو بالملهم أبداً، بل بالأحرى سيّد للصبر يشتغل في بطء وموضوعية، مثل الرسامين الألمانيين القدماء، فيعطي دوماً في البدء طلاءً أولياً لكل صورة، ومن ثمّ يقيس الأبعاد في هدوء وتمهّل، ويبني في حذر شديد مختلف الامتدادات والخطوط، وأخيراً يضع

السيماء، الواحدة تلو الأخرى، قبل أن يعطي في النهاية ـ بتلاعب دقيق للظلال والانعكاسات ـ آثار نور الحياة لخرافته الملحمية.

إنّ «الحرب والسلم»، هذه الملحمة الضخمة التي تُعدّ ألفي صفحة، قد نُسخت سبع مرّات، متتاليات، أمّا المسوّدات والملاحظات التي تتعلّق بها فتملأ وحدها صناديق كبيرة عديدة. إنّ التدقيق والتمحيص قد شملا، بعناية فائقة، كلّ حدثٍ تاريخي مهما تضاءل شأنه، كلّ صغيرة مادية مهما تفهت قيمتها... فتولستوي يعدو على متن جواده طوال يومين كاملين حول ميدان المعركة؛ كي يعطي وصف معركة بورودينو[1] دقّة موضوعية، وخريطة أركان الحرب في يده، ويجتاز بالقطار آلاف الفراسخ؛ كي يستقي من فم أحد المحاربين الأحياء بعد بعضَ التفاصيل الزهيدة التي لن تفيده إلّا في سبيل الزينة وحدها... وهو لا ينقّب في سائر الكتب ويستكشف مختلف المكاتب فحسب، بل إنّه يتوجّه بالأسئلة إلى عائلات نبيلة، ويتناول من القراطيس المحفوظة وثائق مجهولة، ويطّلع على رسائل خاصة؛ وكل ذلك كي يحصل ـ بكل بساطة ـ على حبّة صغيرة من الواقع، بالإضافة إلى ما كدّسه منها حتّى الآن... وهكذا تتجمّع، سنة بعد سنة، الحبيبات الزئبقية لعشرة آلاف، لمائة ألف من الملاحظات الصغيرة جداً، حتّى اللحظة التي تتّحد فيها وتختلط، شيئاً فشيئاً، ودون حاجة إلى بذل أيّ جهدٍ في سبيل جمعها إلى بعضها؛ فتخلق بذلك شكلاً مدوّراً، نقيّاً، كاملاً. ومن ثمّ، عندما ينهي معركةً في سبيل الحقيقة؛ يبدأ نضالاً في سبيل الوضوح. ومثلما يفعل بودلير ـ هذا الشاعر الغنائي ـ بكل بيت من أبيات شعره، يفعل تولستوي بنثره ـ بتهوّس العامل المنزّه ـ فيبرده ويصقله ويصنعه ويطرقه ويشذّبه... إنّ جملة واحدة لا تنسجم مع المجموع، نعتاً واحداً لا يقع في مكانه بصورة تامّة، بين ألفي صفحة المؤلَّف الضخم؛ يمكن أن يقلقاه ويشغلا باله حتى الدرجة القصوى؛

(1) المعركة التي انتصرت فيها جيوش نابليون على الجيوش الروسية على أبواب موسكو.

فيُبرق بسرعة، مذعوراً، إلى الناشر ـ بعد أن أرسل المخطوط إليه ـ يطلب إليه توقيف الطبع حتى يستطيع أن يعدّل ـ أيضاً ـ إيقاع الموضع الذي عرض له... وهكذا يرمي ذلك النص الأوّل بعد طبعه في بوتقته الفكرية ويصهره مرّة أخرى، ثمّ يصبّه من جديد... كلّا! إن يكن هناك ـ أبداً ـ فنٌّ لم يكلّف عناءً وإجهاداً؛ فهو لا يمكن ـ بالضبط ـ أن يكون فنَّ هذا الكتاب، الأكثر طبيعية في الظاهر بين سائر الكتّاب. إنّ تولستوي يشتغل، طوال سبع سنوات، ثماني ساعات، عشر ساعات في اليوم، دون راحة على الإطلاق، فهل من عجب إذا انهار نفسيّاً ـ وهو الذي لا يوجد إنسان أسلم منه أعصاباً ـ بعد كلّ رواية من رواياته الكبرى؟ إنّ المعدة ترفض العمل بغتةً، والحواس تضطرب وتترنّح، وشعوراً من الضيق، من عدم الاكتفاء، شبيهاً إلى حدٍّ بعيدٍ بكآبةٍ فظّةٍ غليظة، يجتاحه في كلّ مرة ينهي فيها مؤلّفاً كبيراً... ولا بدّ له عندئذٍ من اللجوء إلى العزلة المطلقة، بعيداً عن كلّ حضارة، مقيماً في أكواخ ريفيّة صغيرة؛ كي يستعيد التوازن الأخلاقي بمداواة صارمة بشراب الكوميس[1].

إنّ هذه العبقرية الملحمية ـ شقيقة هوميروس ـ هذا الحاكي الطبيعي الأمثل، الصافي كالمياه المتفجّرة من الصخر الأصم، والبدائي تقريباً على صورة الشعب ومثاله؛ ليخفي بالضغط تحت دثاره فنّاناً معذّباً، ناقماً حتى الدرجة القصوى، لا يعرف الرضا سبيلاً إلى فؤاده مطلقاً (وهل من فنّان إلّا وهو على هذا الغرار؟)... ولكن صعوبة الخلق ـ وههنا يكمن جماله الأسمى ـ تظل خفيّة غير مرئيّة في حياة الأثر الكاملة. إنّ هذ النثر الذي لم نعد نحسّ وجود الفن فيه، لَيلوح في زماننا الراهن ـ وفيما وراء كلّ زمان أيضاً ـ خالداً أبديّاً نوعاً ما، لا يعرف أصولاً ولا سنّاً مثله مثل الطبيعة نفسها... إنّه لا يحمل في أيّ موضوعٍ منه طابع عصرٍ معيّن، حتّى لو وقعت بعض روايات تولستوي بين يدي القارئ للمرّة

(1) شراب خاص يصنعه الفلاحون الروسيون من حليب الفرس بالإضافة إلى بعض الخمائر.

الأولى دون أن تحمل اسم المؤلّف، فلن يجرؤ أحد إذن فيشير إلى الحقبة، أو إلى القرنين اللذين خُلقت فيهما تلك الروايات، لشدّة ما تُشكّل أسلوباً في الحكاية يخرج تماماً عن حدود الزمان. إنّ الخرافات الشعبية عن «الرهبان الثلاثة» و«كم يحتاج الإنسان من الأرض»، يمكن أن تكون معاصرة لراعوث وأيوب، قد أبدعها الخيال قبل اختراع الطباعة بألف سنة، في العصور الأولى من معرفة الكتابة... و«موت إيفان إيليتش» و«بوليكي» و«بائع الأقمشة» تخصّ القرن العشرين أو الثلاثين مثلما تخص القرن التاسع عشر على حدٍّ سواء... ذلك أنّ روح العصر وأهله لا تتجلّى في تلك المؤلّفات، كما هي الحال عند ستندال أو روسو أو دستويفسكي مثلاً، بل ما يتجلّى فيها هو بالأحرى الروح البدائية، روح سائر الأزمنة والعصور، الروح التي لا تخضع لأيّ تطوّر، النفخة الأرضية، الحساسية البدائية، عذاب الإنسان العميق أمام اللانهاية ووحدته الأصلية... وتماماً مثلما يحدث في أحضان المكان المطلق، يحدث بالنسبة إلى الإنسانية في أحضان المكان النسبي لفعاليتها الأدبية؛ فإذا سطوة تولستوي الإجماعية والمنتظمة تمحو الزمان وتُبطل مفعوله...

لم تمس الحاجة تولستوي يوماً إلى تعلّم فنّه في الحكاية، كما أنّه لم ينكر فنّه ذلك أبداً... فعبقريّته الطبيعية لا تعرف نموّاً أو تدهوراً، تقدّماً أو تقهقراً... إنّ وصف الطبيعة في «القوزاق» عند الشاب البالغ الرابعة والعشرين من عمره، وذلك الصباح المتألّق في «البعث» الذي لا يمكن للنسيان أنّ يتطرق إليه أبداً ـ وقد صوّره عندما كان في الستين، بعد مرور أجيال صاخبة عديدة من البشر ـ كلاهما يتنفسان نضارة الطبيعة نفسها، القريبة والمحسوسة من سائر الأعصاب، يتنفسان ذات حساسية العالم العضوي واللاعضوي المتّصف بالمرونة، والواقع تحت الحسّ مباشرة. ليس في فنّ تولستوي تلمذة، كما أنّه خالٍ من نسيان ما سبق علمه، ليس فيه ذروة، ولا فيه زوال، بل إنّ ذات الكمال الموضوعي يثابر فيه

ويستمرّ طوال نصف قرن ونيّف... ومثلما ترزح الصخور هناك أمام اللّه، مهيبة دائمة جامدة لا يطرأ عليها أي تبديل؛ كذلك تنتصب مؤلفات تولستوي وطيدة الأركان في قلب الزمان المتقلقل المتبدل.

ولكن ذلك الإحساس المنتظم، المجرّد عن كلّ ما هو شخصي، ليكون إنسانياً؛ هو السبب بالضبط في أنّنا لا نكاد نشعر بالوجود الحيّ للكاتب في مؤلفاته... إنّ تولستوي لا يبدو لنا مخترعاً لحوادث خيالية، بل بكل بساطة مقرّراً عظيماً لواقع مباشر ليس غير... وفي الحقيقة، إنّنا كثيراً ما نتردّد في وصف تولستوي بالشاعر؛ لأنّ هذه الكلمة المجنّحة، تعني مهما اختلفت أقوال البشر، نوعاً من الكينونة مختلفاً، شكلاً من الإنساني سامياً، شيئاً مرتبطاً بصورة عجيبة وخفيّة بالخرافة والسحر؛ تعني الكائن في حالة الإشراق، تصدر عنه في نشوة الرؤيا كلمات جديرة بالكاهنة بيثيا[1]، وحقائق لا يصعد إليها ولا يستطيع البشر العاديون بلوغها... هذه الكلمة تشير إلى العبقريّة الطافحة بالحدس، العبقرية التي تعرّي كلّ ما يفوق الوصف ويتجاوزه؛ وذلك بفضل موسيقاها الشجيّة التي تفلت من قبضة الفكر وتتمرّد عليه، بفضل الرمز الذي يشكّل روحها وجوهرها. ولكن تولستوي، على العكس من ذلك، ليس إنساناً «من منطقة عليا» أبداً... إنّه متأصّل في هذا العالم عميق الجذور في تربته، لا يحلّق فوق هذه الأرض البتّة... إنّه مادة كلّ ما هو أرضي وعنصره، لا يتجاوز في أيّ مكان المنطقة الضيّقة لما يقع تحت الحس، ما هو محسوس وقابل للحسّ. ولكن أيّ كمال عظيم يبلغه في نطاق هذا الميدان؟! إنّه لا يتجلّى بميزات تختلف عن ميزات بقيّة البشر، ميزات يستمدّها من آلهات الشعر أو من آلهات السحر، بل إنّ ميزاته عادية تماماً، ومألوفة لكنّها صارت عنده إلى قوّة عظيمة لامتناهية... إنّه يكتفي بامتلاك فكر قد تضاعفت شدّته كثيراً؛ فهو يرى ويسمع ويشم ويحسّ بصورة أوسع

(1) كاهنة أبولو في دلفي، كانت تعلن إلى البشر إرادة الآلهة في آيات رائعة الجمال...

وأوضح وأجلى وأكثر وعياً من الإنسان الطبيعي، ويتذكّر أكثر منه وأبعد، بصورة أعمق منطقاً وعقلاً، ويفكّر بصورة أسرع وأحذق وأدق... وباختصار فإنّ كلّ صفة إنسانية تتجسّد في ذلك الجهاز المنقطع النظير في كماله ودقّته ـ والذي هو عضويته ـ بشدّة تفوق مائة مرّة مثيلتها عند الطبيعة العادية. ولكن تولستوي لا يتخطى أبداً (ولذا فقلّة هم الذين يجرؤون على تسميته «عبقرياً» بينما الكلمة طبيعية جداً بالنسبة إلى دستويفسكي) حدود الطبيعي، ولا يدخل قط العالم الصوفي النبوئي، تلك الممالك فوق الأرضية، حيث نجد أحياناً، من خلال صدع مشقوق أو ثغرة مفتوحة، رسالة من النار تتأجّج في «رجل النشوة»، في الملهم الذي تخترق أبصاره الحجب المختلفة وتنفذ منها... أبداً لا تبدو فعّالية تولستوي الأدبية ومن ورائها شيطان يحييها، من ورائها الممتنع على المعرفة ينفخ فيها من أنفاسه... ومن هنا كان وضوحها وإدراك الجميع لها؛ لأنّ هذا الخيال المرتبط بالأرض لن يستطيع أبداً أن يبتكر شيئاً يتجاوز «الذاكرة الحسّية»، شيئاً يخرج عن نطاق الإنسانية المشتركة... وهذا هو السبب في أنّ فنّه سيظلّ دوماً موضوعياً إيجابياً، دقيقاً وإنسانياً... إنّه فنٌّ ينيره الضياء اليومي، إنّه واقع في حالة الكمون...

فتولستوي لا يصنع عمل الشاعر إذن، لا يتخيّل عوالم سحرية، بل يكتفي «بتقرير» الأشياء الواقعية بكل بساطة. وهكذا يراودنا الشعور عندما نستمع إليه يحكي، بأنّنا لا نصغي إلى فنّان يتحدّث إلينا، بل إلى الأشياء نفسها تتكلّم... إنّ البشر والحيوانات تخرج من عالمه كما تخرج من مساكنها الخاصة المألوفة، حسب النظم الطبيعي لحركاتها، فنحس أنّه لا يوجد هناك أيّ شاعرٍ ملتهبٍ من ورائها كي يحثّها، ويدفعها إلى الفعل في تسرّع وهرولة، على غرار دستويفسكي ـ مثلاً ـ الذي يضرب، محموماً، أشخاصه بسوطٍ مرفوعٍ دوماً، فينطلقون وهم يصيحون ويزعقون، تشتعل فيهم النيران، في حلبة أهوائهم... عندما يحكي تولستوي فإنّنا لا نسمع نَفَسَه... إنّه يحكي مثلما يتسلّق الجبليون مرتفعاً ما،

بتؤدة وانتظام، رويداً رويداً، خطوة فخطوة، دون قفزات ودون عجلة، ودون تعب ودون ضعف، فلا تمر ضربات قلبه في صوته أبداً... وذلك هو السبب في غبطتنا التي لا تُقارن عندما نتأثّر به، فنحن لا نُحمل بسرعة البرق عنده ـ كما يحدث لنا مع دستويفسكي ـ على طول حواف السحر الحادة المتألقة، ولا نتردّى بصورة مباغتة في دوار الهاوية الطنّان، ولا نرتفع، وكأنّما تحملنا أجنحة خفيّة في أجواء الأحلام الخيالية... إنّنا نبقى في حضور الفن التولستوي، نافذي البصيرة دوماً، وكأنّنا في حضور العلم نفسه.

إنّنا لا نترنّح ولا نشكّ ولا نتعب، بل نصعد خطوة فخطوة، تقودنا يده البرونزية، على طول الصخور الجبلية الكبيرة التي تشكّلها ملحماته، فيمتدّ النظر درجة درجة رحباً واسعاً، بينما يتّسع الأُفق في الوقت ذاته وينتشر. إنّ الحوادث لا تجري إلّا في بطءٍ شديد، والأبعاد لا تستضيء إلّا شيئاً فشيئاً... ولكن ذلك كلّه يتمّ بيقين أساسي، بدقّة الآلات التي تسيّر الساعة. ومثلما تُشرق الشمس في الصباح فترتفع أشعّتها رويداً رويداً من أعماق المشهد المترامي أمام أعيننا؛ كذلك يحكي تولستوي ببساطة طبيعية لا تصنّع فيها، كما كان أولئك الشعراء الملحميون الذين عاشوا في العصور الأولى من العالم، رواة الشعر ومغنّو المزامير والمؤرّخون، يحكون فيما غبر من الزمان، أيام كان البشر يتمتّعون بميزة الصبر بعد، والطبيعة لمّا تنفصل عن المخلوقات، والإنسان لا يتميّز عن الحيوانات والنباتات والحجارة بأيّة مرتبة أقامها البشر بكل كبرياء وغرور، بل على العكس من ذلك تماماً كانت الأُلوهية نفسها والإجلال نفسه ينطبقان على أصغر الكائنات مثلما ينطبقان على أكبرها... والحقيقة أنّ تولستوي ينظر إلى الأشياء تحت مظهر الشمول، يعني بصورة تضفي عليها الأُلوهية، وبالرغم من أنّه أقلّ الناس إغريقيةً فيما يتعلّق بالأخلاق، فإنّ انطباعاته كفنّان هي ـ بصورة مطلقة ـ انطباعات بان، انطباعات حلولي لا دنس فيه.

ليس من فرق بالنسبة إليه بين اختلاجات كلب يحتضر وهو يعوي ويزمجر، وبين وفاة لواء امتلأ صدره بالأوسمة، أو سقوط شجرة اقتلعتها الريح فهي على وشك الفناء... إنّ الجمال والقباحة، الحيوانية والإنسانية، الطهارة والنجاسة، ما هو سحر وما هو إنبات، كلّ هذا يشاهده بنفس النظرة المشبعة بالفن والطافحة بالروح في وقت واحد... ولكي نعبّر عن فكرة واحدة بأسلوبين مختلفين، فلن نفعل إذن سوى التلاعب بالألفاظ إذا أردنا أن نعيّن إن كان يطبع الإنسان أو يؤنس الطبيعة؛ ولذا لم تظل أيّة طبقة من العالم الأرضي مغلقة عليه، بل إنّ حساسيّته لتنزلق من جسد وليد مضرّج بالحمرة إلى الجلد المتهدّل الذي يكسو جسد حصان منهوك القوى قد أرهقه العمل الشديد وأعياه، أو من ثوب قطني تلبسه إحدى الفلاحات إلى بزّة الاستعراض التي يرتديها رئيس في الجيش عظيم الكبرياء والمهابة، تلك الحساسية متآلفة كلّ الألفة مع كلّ جسد وكل نفس، تجد ذاتها مباشرة في ميدان معرفتها أيّان حلّت، تقتطف الانطباعات بيقين يفوق التصوّر، يقين يخترق كلّ الخفايا ويبلغ حتى أعمق أعماق دم الكائن الإنساني ولحمه... وكثيراً ما سألت بعض النساء في رعب وذهول: كيف يستطيع هذا الرجل أن يصف إحاسيسهن الأكثر خفاءً وشخصية؟ فكأنّه ينتزع الجلد عنهن، كيف يستطيع أن يعبّر عن ذينك الضغط والجذب اللذين يحدثهما في صدر الأم اللبن المنبثق منه؟ أو أيضاً ذلك الإحساس اللذيذ بالرطوبة والنضارة الذي ينتشر كالضباب على الذراعين العاريتين لصبيّة تشترك في حفلة راقصة للمرة الأولى؟

ولو أنّ الحيوانات تستطيع الكلام لتعبّر عن أفكارها؛ لسألت بأيّ حدسٍ عظيم استطاع تولستوي أن يخمّن تلك اللذّة المعذّبة التي يحسّها كلب الصيد عندما يشم رائحة دجاجة الحقل المتوحّشة؟ أو أيضاً تلك «الأفكار الغرائز» التي تترجم عنها الحركات فقط، والتي يحسّها جواد أصيل في اللحظة التي تعطى فيها إشارة الانطلاق في السباق...؟ يكفي أن نقرأ حديث الصيد في «آنا كارنينا» حيث نقع

على ما لا يُحصى من الملاحظات الحدسية الدقّة، التي تفوق في قيمتها الوصفية سائر تجارب علماء الحيوان والحشرات من بوفون حتّى فابر، دون تفريق. إنّ دقّة تولستوي في موهبة الملاحظة التي يتمتّع بها لا تميّز أبداً بين أشياء الأرض، كما أنّ محبّته لا تعرف معنى التفضيل. إنّ نابليون، بالنسبة إلى هذه النظرة الممتنعة على الفساد، ليس أكثر إنسانية من أدنى البشر، وهذا الأخير ليس بدوره أكثر أهمية وعنصرية من الكلب الذي يركض خلفه، أو من الحجر الذي يمسّه هذا الكلب بقوائمه. إنّ كلّ ما في دائرة هذا العالم الأرضي: الإنسان والمادة، النباتات والحيوانات، الرجال والنساء، الشيوخ والأطفال، الرؤساء والفلاحين، جميعهم يسجّلون في أعضائه اهتزازاتهم الحواسّية بنفس الضياء المتبلور المنتظم؛ كي يخرجوا منها بصورة لا تقل انتظاماً ولا ترتيباً، وإنّ هذا ليضفي على منه شيئاً من المساواة بالطبيعة التي لا تعرف الفساد، كما يضفي على ملاحمه إيقاع البحر، هذا الإيقاع الرتيب لكن العظيم مع ذلك، الذي يبعث في أذهاننا على الدوام اسم هوميروس.

وإنّ مَن يملك مثل هذه الرؤيا الواسعة والكاملة لفي غنى عن الاختراع، مَن ينظر إلى الأشياء بمثل هذه الشاعرية لفي غنى عن تخيّل أيّ شيءٍ كان؛ هذا التخيّل الذي يحتاج الشاعر إليه ولا يستطيع عنه استغناءً. إنّ تولستوي لم يفعل، طوال كلّ حياته، إلّا المشاهدة بحواسّه وإنضاج ما رأته عيناه... إنّه لا يعرف الحلم الذي يتجاوز الحقيقة، وفنّه لا يأتي من العلاء، بل هو موجّه نحو الباطن؛ كما قال هو نفسه يوماً بصورة رائعة: هذا الفنّ هو بناء في العمق وليس هندسة مرفوعة فوق المرتفعات... إنّه لا يحتاج في أيّ مكان، وهو الفنّان الموضوعي بصورة مطلقة، على العكس من دستويفسكي الملهم، إلى اجتياز عتبة الواقع كي يبلغ فوق الطبيعي ويرتمي في أحضانه، فهو لا يستخرج حوادثه من فراغٍ خياليٍّ واقعٍ فوق العالم، بل يكتفي أن يحفر في أرض مشتركة، في البشر العاديين

الذين يشكّلون ـ بالنسبة إليه ـ مناجم غنيّة طافحة بالثراء... لا بل أكثر من ذلك أيضاً. فتولستوي يستطيع ـ في الإنسانية ـ بأن يستغني عن تحويل اهتمامه نحو كائنات غير طبيعية ومرضية، بَلْهَ إذا أردنا أن نذهب أبعد من ذلك، فليس به حاجة، مثل شكسبير ودستويفسكي، لكي يخلق ـ بقوّة سحرية عجيبة ـ نماذج جديدة متوسطة بين اللّه والحيوان، كي يخلق أشباهاً لآرييل[1] أو ألجوسكا أو كاليبان[2] أو كارامازوف[3]... إنّ أكثر الفلاحين تفاهةً ليرتدي أهمية خفيّة في هذا العمق الذي لا يبلغه إلّا تولستوي وحده، إذ يكفيه، كي ينفذ إلى أروقة ممالكه تحت الأرضية التي يكتشفها في نفس ريفي بسيط، أو جندي تافه، أو سكّير، أو كلب، أو حصان، أو أيّ شيءٍ كان، أيّ شيءٍ معدوم الشخصية، ضائع في أحضان العادي واليومي، يكفيه في سبيل ذلك أيّة مواد بشريّة يعثر عليها في طريقه، وإن كانت بعيدة كلّ البُعد عن النفوس الثمينة والغالية، الحاذقة واللبيبة... ولكنه يفرض على هذه الوجوه المتوسطة ـ تماماً ـ ميزةً أخلاقية فريدة من نوعها، غير مستهدف من ذلك تجميلها وتزويقها، بل مضاعفتها عمقاً فقط...

وإنّه لا يعرف تكنيكاً آخر سوى هذه الدقّة في الرؤية، لا يلجأ إلّا إلى الآلة العارية، آلة الحقيقة الحادّة القاطعة، ولكنه يغرس هذا المثقب القاسي بقوّة عنيفة جداً في كلّ حادثة، في كلّ شيء، حتى أنّنا نكتشف، مدهوشين، في قلب هذا العالم عالماً أكثر عمقاً، طبقة نفسانية لم يرتدها بعد أيُّ عامل منجمٍ من قبل... إنها الحقائق ـ لا الأحلام ـ التي تهزّ قوّته المرنة، فيعوزه، مثل المثّال، التراب والحجر والطين؛ كي يخلق شكلاً ما مجسّماً... ولا يكفيه أبداً ـ كالموسيقي ـ

---

(1) ملك ساقط.

(2) شخصية خيالية أدخلها شكسبير في مسرحيته «العاصفة» وهو تجسيد للإنسان الوحشي المجبر على طاعة قوة تعلو عليه، والمتمرّد عليها أبداً.

(3) أبطال قصة دستويفسكي الشهيرة: «الأخوة كارامازوف».

الاهتزاز الهوائي وحده؛ فلا عجب إذن إذا لم يكتب تولستوي شعراً قط، فكل ما هو شعري واقع في القطب الآخر من هذا الواقعي المغرق في واقعيّته. إنّ فنّه لا يتكلم إلّا لغة واحدة، لغة الواقع؛ وتلك هي حدوده، ولكنّه يتكلّمها بدقّة تفوق كلّ ما توصّل إليه الشعراء حتّى الآن؛ وتلك هي عظمته... إنّ الجمال والحقيقة ليسا، بالنسبة إلى تولستوي، إلّا وحدة لا تنفصل أو تتجزّأ.

وهكذا فإنّ تولستوي ـ ولنكرّر القول مرة أخرى بصيغة تحتفر في الأذهان احتفاراً فلا تُمحى بعد ذلك أبداً ـ هو أكثر الفنّانين بصيرة، ولكنّه ليس نبيّاً قط، هو أكمل سائر «مقرّري الواقع» على الإطلاق، ولكنه ليس شاعراً مبدعاً البتّة. إنّه لا يملك، كي يبني عالمه ذا الأبعاد والوفرة الفريدة في أنواعها، إلّا آلات حكمية وأرضية؛ الحواس الخمس والحساسية الموضوعية، هذه الآلات الحيّة، الدقيقة، السريعة والحاذقة بشكل مدهش، لكن الخاصة بالرغم من كلّ شيء بميكانيك الجسد وحده. إنّ تولستوي لا يبلغ إحساساته الأكثر سرعة بواسطة الأعصاب مثل دستويفسكي، أو الرؤى مثل هلدرلن وشيلي، بل بفضل فعل حواسّه المتوافق، هذا الفعل الذي يشبه إشعاعه إشعاع النور. إنّ هذه الحواس، مثلها مثل النحل، تهجر خلاياها باستمرار كي تحمل إليه غبار طلع الملاحظة ذا الألوان الجديدة أبداً، غبار طلع يعطي ـ فيما بعد ـ في اختمار موضوعية لاهبة العسل السائل والمذهب للأثر الفنّي الخالد.

إنّ حواسّه الرائعة؛ حواس الامتثال، والبصيرة، والدقة السمعية، حواسّه القوية الأعصاب، لكن الدقيقة مع ذلك، حواسّه الناشطة والحاسبة التي تنزلق في أكثر ثنايا الكائن الإنساني ظلمة على طريقة القطط، حواسّه المفرطة الإثارة والمتمتّعة بقوّة حيوانية تقريباً، حواسّه هذه تستطيع وحدها أن تستخرج من كلّ حادثة من حوادث هذا العالم تلك الكتلة من المادة الحسّاسة المنقطعة النظير، التي تحيلها ـ فيما بعد ـ الكيمياء الخفيّة لهذا الفنّان غير المجنّح إلى

مادة نفسانية، بمثل البطء الذي يقطّر الكيميائي به ـ في صبر عظيم ـ خلاصات النباتات والأزهار... إنّ البساطة فوق الطبيعية لأقاصيص تولستوي تنتج دوماً عن وفرة فريدة لا تُحصر ولا تُحسب؛ وفرة مؤلّفة من عشرات ألوف الملاحظات الخاصة، ذلك أنّ تولستوي، كي يعرف أفكار أحد الناس وعواطفه؛ لا بدّ له، قبلاً، من دراسة مظهره الحكمي في كلّ من خفاياه، وكل من تفاصيله، وكل من ثناياه، وكل من تحوّلاته، فهو كالطبيب يبدأ بفحص عام أوّلاً، بإحصاء لسائر خصائص الأفراد الجسدية، قبل أن يُطبّق عملية التقطير الملحمية على عالم رواياته.

كتب في ذات يوم إلى صديق له يقول: «إنّك لا تستطيع أن تتخيّل كم يصعب عليّ هذا العمل التحضيري؛ هذه الضرورة التي تجبرني، قبلاً، على حرث الحقل الذي أنوي زرعه. إنّه لمن العسير بصورة فظيعة أن يفكّر المرء ويتمثّل كلّ ما يمكن حدوثه لسائر هذه الشخصيات التي هي بعد في طور الصيرورة، شخصيات المؤلّف الواسع جداً الذي يداعب الفكر بعد. إنّه لمن العسير بصورة فظيعة أن يتصوّر المرء إمكانيات ما لا يُحصى من الأحداث؛ كي يختار منها فيما بعد جزءاً واحداً من مليون جزء»... ولمّا كانت هذه العملية، الميكانيكية أكثر منها إلهاماً ووحياً، القائمة في إرجاع العديد من التفاصيل وتكثيفها في وحدة واحدة، المتكرّرة بالنسبة إلى كلّ من الشخصيات الكثيرة الفائقة العدد؛ فإنّ المرء يستطيع أن يرى بكل وضوح كم من حبيبات الغبار يجب سحقها ومزجها من جديد، في هذا الطاحون من الصبر الذي لا ينفد، قبل الحصول على الشكل المطلوب. إنّ تولستوي لمضطرّ، كي يؤلّف رواية، إلى الاختيار بين ألف حادثة وألف صورة، ثمّ عليه بعد ذلك أن يركّب، حكمياً في البدء، كلّ صورة خاصة بما لا يُحصى من الملاحظات الصغيرة، قبل أن يصهرها في بوتقة نفسانية دقيقة؛ لأنّ ملامح كلّ محيّا خاص لا تتشكّل عنده إلّا بتراكم علامات جسدية لا عدّ لها ولا حصر... إنّ كلّ كائن بشري هو نتيجة آلاف من التفاصيل، وكل من هذه التفاصيل

نتيجة ملاحظة حقائق عديدة دقيقة أخرى؛ لأنّ تولستوي يسبر غور كلّ عرض يكشف عن شخصيّة أشخاصه بدقّة العدسة المكبّرة، الباردة والقاسية معاً... إنه يرسم، مثلاً، على غرار هولبن[1]، فم أحد الأبطال سمة فسمة: إنّ الشفّة العليا تتميز عن الشفّة السفلى بكل خصائصها الفردية، وكل ارتعاش للصور يتظاهر في بعض الانفعالات الأخلاقية يُسجّل بأمانة ودقّة، وطبيعة الابتسامة والثنية التي يرسمها الغضب تقاس بكل إخلاص ومرونة، وعندئذٍ فقط يصوّر لون هذه الشفة بكل بطء، ويجسّ قوامها القاسي أو الغليظ بإصبع غير مرئية، ويحدّد ظلّ الشارب المرتمي من فوقها بكل معرفة وإتقان، ولكن هذا كلّه لا يعطي إلّا الشكل الخام فقط، المظهر الحيواني للشفة وحده، وعندئذٍ يُضاف إليه وظيفتها الخاصة ونغمة الكلام والتعبير النموذجي المميّز للصوت الذي يتلقى الآن لحناً فردياً متلائماً مع فردية ذلك الفم الموصوف.

وما صُنع هكذا لشفة واحدة يتكرّر في الأطلس التشريحي لتحليله، بالنسبة إلى الأنف والوجنة والذقن والشعر برهافة وتدقيق يكادان أن يكونا مقلقين حقاً. إنّ كلّ صغيرة تندمج برفيقتها بدقّة مطلقة، ومن ثمّ تتقابل سائر هذه الملاحظات السمعية والبصرية والحركية في مخبر الفنان الخفي مرة أخرى وتتكيّف مع بعضها البعض؛ لأنّ تعبير الأصابع يجب أن يتوافق بدقّة رياضية مع تعبير النظرة، والنظرة يجب أن تكون بدورها في توافق مع الضحك، وهذا الضحك يجب أن يكون بدوره في انسجام مع طريقة خاصة في الحديث؛ حتّى تتّضح بكل ذلك وحدة الفرد بصورة إجماعية في كلّ أشكاله المعبّرة عنه. ومن ثمّ يستخرج الفنان المنظّم الجذر الخيالي، إن صحّ التعبير، لهذا المجموع من الملاحظات التي يمرّر كثرتها المدهشة في غربال الانتقاء بحيث يتبدد كلّ ما هو ثانوي الأهميّة، فلا

(1) فنّان ألماني قضى معظم حياته في إنكلترا. اشتهر بتصوير الأشخاص وبلوحة «رقص الموتى» خاصة، «1497 ـ 1543».

يبقى إلّا ما يميّز الجوهر ويسمه. وهكذا يقابل تبذير الملاحظة اقتصاد عظيم في استعمال الصفات، ولكن القليل الذي تمّ الاحتفاظ به يتكرّر وكأنّه انطباع عميق الغور خلال الكتاب بكامله، حتى نجمع إلى فكرة كلّ شخصٍ من الأشخاص رؤيا مباشرة عن كلّ ما يميّزه ويعطيه شخصيّته وفرديّته.

يا له من بناء جبّار! أيّة معرفة عميقة تختفي خلف ما يبدو في وصفه نتيجة الصدفة المحضة، لا نتيجة الإرادة الواعية. والحقيقة أنّنا نحتاج إلى كتاب كامل كي نحلّل آلية هذه العملية في دقائقها، وكي نبرهن أنّ الوحدة البيّنة لأشخاص تولستوي ـ التي تبدو لنا للوهلة الأولى مجرّدة عن الفن بعيدة عنه ـ تنتج بالضبط عن تكثيف عدد من الملاحظات يثير الدهشة والذهول حقّاً.

ذلك أنّ الإنسان الذي ركبته الرؤيا، لا يبدأ بالحديث والتنفس والحياة إلّا بعد أن يتمّ تعيين كلّ ما يعود عنده إلى الحواس وتحديده بدقّة تكاد أن تكون هندسية، بعد استكمال المظهر الحكمي لشخص الرواية. إنّ النفس، البسيشة، هذه الفراشة الإلهيّة المأخوذة في شبكة الملاحظات الدقيقة ذات الألف عروة، لحبيسة في شبكة الجلد والعضلات والأعصاب، ولكن الأمر على العكس من ذلك تماماً عند دستويفسكي ـ هذا النبي الذي يؤلّف النقيض العبقري لتولستوي ـ حيث يبدأ تحديد فردية البطل بالنفس؛ لأنّ النفس عنده هي العنصر البدئي... إنّها تصنع قدرها بقوّتها الخاصة، والجسد إن هو إلّا نوع من الثياب اليرقية، الرخوة والخفيفة، حول نواتها اللامعة المتأجّجة، لا بل إنّها تستطيع، في ساعات تجلّي الروح العظمى، أن تُلهب ذلك الجسد وتسمو به في الأجواء العالية وتجبره على الانطلاق نحو أراضي العاطفة، نحو الإشراق الخالص. ولكن النفس عند تولستوي ـ هذا المراقب النافذ البصر والفنّان العظيم الدقّة ـ لا تستطيع، على العكس من ذلك، أن تطير قط، بَلْهَ لا تستطيع أبداً أن تتنفس بكل حريّة... إنّ الجسد ليظل على الدوام معلّقاً، مرهقاً قاسياً، حول النفس يجرّها باستمرار نحو الأسفل بقانون

الجاذبية الوحشي؛ وذلك هو السبب في أنّ مخلوقاته المجنّحة نفسها لا تستطيع البتّة أن ترتفع نحو اللّه، أن تنتزع نفسها مرة من الأرض وتتحرّر بصورة تامّة من هذا العالم... إنّها تصعد بصعوبة، خطوة فخطوة، كمَن يحمل ثقلاً، وظهورها محنيّة فيما يبدو تحت ثقل أجسادها الخاصة، تصعد بصعوبة درجة فدرجة نحو التقديس والتطهير، وهي تهوي أبداً إعياءً تحت نِير طبيعتها الأرضية. أبداً لن تستطيع بسيشة ـ فراشة اللّه هذه ـ أن تعود باستقامة نحو المملكة الأفلاطونيّة... إنّها لا تستطيع إلّا التحوّل إلى شرنقة، فتبدل هكذا طبيعتها، وهي تناضل كي تطهّر نفسها وتخفّف العبء الذي يرهق كاهلها... أبداً لن نقدر أن نتخلص من جاذبية الجسد الأرضي الذي تخضع له سائر تجسّداتها البشرية، فكأنّها تخضع لخطيئة موروثة ارتكبتها قبل خليقة العالم. وممّا لا ريب فيه أنّ جزءاً من ظلمة تولستوي المفجعة ينشأ بالضبط عن هذه الأوّليّة، عن هذه السيطرة التي يفرضها الجسدي على الروحاني؛ لأنّ هذا الفنان المجرّد عن كلّ انطلاق نحو الجسد، وعن كلّ فرح مشوب بالسخرية، يذكرنا دوماً ـ بصورة مؤلمة ـ أنّنا نعيش على الأرض، وأنّ الموت يطوّقنا من كلّ حدب وصوب، وأنّنا لا نستطيع الفرار أو الإفلات من ثقل طبيعتنا الجسدية التي سمّرنا إليها تسميراً... يذكّرنا أخيراً أنّنا محاطون في صميم الحياة بالعدم المرهق، وأنّنا عبيد للواقع محرومون من كلّ منفذ إلى الخلاص. ولقد كتب تورجنيف إلى تولستوي مرة يقول، على غرار نبيٍّ ينفذ إلى أعماق الضمائر: «إنّي أرجو لك شيئاً أكثر من حرية الروح». والحقيقة أنّ هذا هو بالضبط ما يرجو كلّ منّا أن يجده في أشخاص تولستوي، شيئاً أكثر من التحليق الروحي، شيئاً أكثر من القوّة الصعوديّة الأخلاقية، موهبة الإفلات من العالم الوضعي والجسدي؛ هذا الإفلات الذي يُمكّن من الانطلاق نحو الغبطة، أو نحو الفرح، أو نحو عدم الاكتراث أيضاً، أو على الأقل موهبة الحلم بتلك العوالم الأكثر طهراً وصفاءً.

هذا الفن يمكن باختصار أنّ يوصف بالخريفي... إنّ كلاً من استداراته ترتسم واضحة حادة، مثل شفرة الموسى، على أفق السهب الروسي المجرّد عن كل هضبة أو مرتفع، بينا الرائحة المريرة المتصاعدة من الأشياء الذابلة والعابرة تسقط علينا من الغابات الشاحبة الصبغة. ليست هناك سحابة واحدة تلقي ابتسامتها الحالمة فوق هذا المشهد، ونحن لا نرى الشمس أبداً، بل نكاد ألّا نشك في وجودها أيضاً؛ ولذا فإنّ هذا الوضوح البارد الضياء الذي يتميّز به تولستوي، لا ينشر في القلب أيّة حرارة أو دفء، بل إنّ ذلك الضياء المتجمّد يحدث نتيجة تختلف كلّ الاختلاف عن تلك التي يحدثها الربيع، والتي يرافقها في النفوس رجاء لاهب بازدهار قريب مقبل للطبيعة والقلوب معاً. إنّ المرء ليحس دوماً في مشاهد تولستوي شعوراً بالخريف... وعن قريب سوف يأتي الشتاء، عن قريب ـ سوف يستولي الموت على الطبيعة، عن قريب سوف تكف ـ سائر الكائنات البشرية، مثل ذلك الإنساني الأبدي الكامن فينا، عن الحياة... إنّه عالم لا أوهام فيه ولا أحلام ولا ضلالات، عالم فارغ بصورة رهيبة، بَلْهَ عالم مجرّد عن اللّه (إنّ تولستوي لن يدخله في كونه إلّا فيما بعد بداعي الحياة مثلما أدخله كانت بداعي الدولة)، عالم لا يعرف إلّا نور حقيقته القاسية التي لا ترحم، ولا يعرف إلّا ضياءه الخاص، وهو بدوره عديم الرحمة أيضاً.

لعلّ الجوّ الأخلاقي عند دستويفسكي يئيد للوهلة الأولى بصورة من الأسى والألم؛ فيبدو لنا أشدّ سواداً من هذا الضياء الذي يشمل كلّ شيء عند تولستوي... ولكنّ بروقاً من الإشراق والنشوة تمزّق أحياناً، عند دستويفسكي الليل الحالك، فترتفع القلوب، إلى لحظات قصيرة على الأقل، في سماء رائعة من الرؤى البديعة. ولكن فن تولستوي، على العكس من ذلك، لا يعرف نشوةً أو عزاءً، فهو أبداً ذو خطورة مقدّسة، شفّاف كالمياه، قليل الإثارة مثلها تماماً، وإنّنا لنستطيع بفضل صفائه أن نشاهد قعره، ولكن ما نراه لا يروي النفس أبداً بأيّ إشراقٍ

أو تهلّلٍ كاملين. إنّ مَن كان على غرار تولستوي عاجزاً عن التحليق في أجواء الأحلام والارتفاع فوق الحاضر على أجنحة الوهم والخيال، إنّ مَن يجهل الإشراق الذي يبعثه في النفس جمال التحرّر من قيود الأرض (إنّ هذا الجمال يبدو له تافهاً عديم القيمة إلى جانب الحقيقة)؛ لا يستطيع إلّا أن يُشعرنا، بصورة عظيمة رائعة، بتطويق الطبيعة لنا وخضوعنا لجسدنا الخاص، الحي والدافئ... أن يشعرنا ـ باختصار ـ بالمصير الأرضي تماماً الذي هو مصيرنا... ولكنّه لن يستطيع قط أن يُشعرنا بتلك الحرية التي تفلت النفس بواسطتها من ذات دياجيرها الدامسة الحالكة... إنّ فن تولستوي يبعث فينا الرزانة، ويميل بنا نحو التفكير والتأمّل ـ مثله مثل العلم تماماً ـ بنوره الحجري وموضوعيّته الثاقبة، ولكنّه لا يعطي السعادة أبداً.

كيف كان حكمه إذن ـ هو أنفذ الأفكار بصيرة على الإطلاق ـ على هذه الميزة البريئة من السحر والجمال التي تسم عمل عينيه، هذا الفن الخالي من بريق الحلم المذهّب الأنيس، المجرّد عن سائر انطلاقات الفرح المحرّرة، البعيد عن سحر الموسيقى وفتنتها؟ إنّه لم يحبه أبداً في صميم قلبه؛ لأنّ هذا الفن لم يعرف أن يحمل إليه أو إلى الآخرين معنى السعادة وتأكيد الحياة... والحقيقة أنّ الوجود بأسره يتصرف بصورة يائسة رهيبة أمام هذه الحدقة التي لا تعرف معنى الإشفاق! ما النفس إلّا آلية جسدية صغيرة ترتجف أوصالها وسط سكون الموت المسيطر في الفراغ الذي يحيط بها، أمّا التاريخ فتيه مضطرب لا غاية له من الحوادث التي تجري اتفاقاً وعرضاً، بينا الإنسان بجسده هيكل متجول لا يرتدي غلاف الحياة الدافئ، إلّا لبرهة وجيزة من الزمن فقط، وسائر مظاهر الحياة التي لا تفسير لها ولا ترتيب عبث وهباء مثل الماء الذي يسيل، أو أوراق الشجر التي تذبل، أبداً (حتّى ولا زمن تلك البرهة الوجيزة الكافية كي يتمالك المرء أنفاسه!) لا يمر قليل من الموسيقى فوق هذا الجريان الكثيب للحوادث اليومية، أو ينبثق

انطلاق ضئيل يسعى إلى الخروج من هذه العدمية المرهقة، أو تبرق ابتسامة يبعثها شيء جميل يتألّق بسرعة خاطفة في هذه الآلية الغريبة، بل أنت لا تجد دوماً إلّا الوصف الذي لا يرحم، الموضوعي بصورة شديدة القسوة، الذي يصوّر الدياجير الخانقة فقط، ولا تقع قط لا على تحليل هذا اللب الذي لا معنى له، ولا تلقى على الدوام إلّا ذلك الفم المرير، الجامد، المغلق، وتينك العينين البصيرتين في قسوة وتأمّل، تينك العينين اللتين ترفضان أن تخدعا بأيّ وهمٍ مغرٍ يمكن أن يحمل المؤاساة إليهما. هل يصعب علينا كثيراً بعد ذلك فهم إحساس تولستوي المفاجئ ـ بعد ثلاثين عاماً من تصوير مثل تلك اللوحات القاتمة ـ بالرغبة الجامحة العنيفة التي تحثّه على عدم الاكتفاء باطّلاع الإنسانية وإفهامها بصورة وحشية، وباعثة على اليأس والقنوط أنّ مصيرها الأرضي معدوم الغاية؟ هل يصعب علينا كثيراً فهم طموحه إلى توجيه جديد لكينونته، توجيه ينقذ البشرية من هذا الكابوس القاتل، ويجعل حياتهم أكثر سهولة ويسراً، طموحه إلى فن «يوقظ في الناس عواطف أرفع وأفضل»؟ هل يصعب علينا كثيراً فهم إرادته الجديدة في أن يمسي، هو أيضاً، ولو مرة واحدة، قيثارة الرجاء والأمل الفضية، هذه القيثارة التي تكفي أبسط الاهتزازات كي تجعلها تدوّي في تقوى وخشوع في صدر الإنسانية؟ هل يصعب علينا كثيراً فهم حنينه إلى فنٍّ محرّر، فنٍّ يخلّصنا من الاضطهاد الكئيب الذي يجعلنا رازحين تحت نيره الثقيل؟

إنّما عبث ذلك كلّه! أنّ عينيّ تولستوي؛ هاتين العينين المصنوعتين من الضياء القاسي، البصيرتين أبداً واليقظتين دوماً حتّى الدرجة القصوى، لا تستطيعان أن تشاهدا الحياة إلّا كما هي؛ يعني رازحة تحت ظلّ الموت، قاتمة مظلمة عديمة الغاية... أبداً، لن يصدر عن هذا الفن نفسه، الذي لا يريد أن يخدع، أيّ عزاء حقيقي للنفوس. ولعلّ هذا هو السبب في ولادة تلك الرغبة الجديدة عند تولستوي الذي يشيخ، ما دام عاجزاً عن رؤية الحياة وتمثيلها بصورة لا تكون

مفجعة ومؤلمة؛ الرغبة في تبديل الحياة نفسها، في جعل البشر أفضل ممّا هم عليه، في منحهم العزاء بواسطة مثل أعلى أخلاقي، في رفع سماء للنفس فوق مادتهم الجسدية المظلمة، والخاضعة لقوانين الميكانيك. والحقيقة أنّ تولستوي الفنان لا يكتفي بعد الآن، في المرحلة الثانية من حياته، بتمثيل الحياة بصورة بسيطة، بل يفتّش ـ واعياً ـ عن معنى، عن رسالة أخلاقية لفنّه؛ وذلك بوضع هذا الفن في خدمة تبشير النفس أخلاقياً والسموّ بها عالياً. وهكذا فإنّ رواياته وقصصه تريد من الآن فصاعداً، لا أن تُعطي صورة العالم كما هو فحسب، بل أن تخلق عالماً جديداً؛ وذلك بفصلها، في وضوح وبصورة رمزية، أشخاص الخير ـ هؤلاء السابقين الذين يمهّدون لإنسانية جديدة وضرورية ـ عن الأشخاص غير الجديرين أو المستحقين، الذين لم يعوا بعد ما هي الحقيقة؛ والغاية من ذلك إحداث فعل «تثقيفي» يؤثّر في الناس. وفي ذلك الزمن بدأ تولستوي مقولة جديدة من الآثار الفنيّة التي لا ترضى أبداً بأن تكون مسلّية ورفيعة الجمال، بل تريد أن تصبح «معدية»؛ يعني أن تعطي بالأمثلة إنذاراً إلى القارئ الذي يسير في طريق الشر، وتوطّده في طريق الخير بالأمثلة التي تقدمها إليه. إنّ تولستوي هذا لم يعد شاعر الحياة فحسب، بل إنّه ليرتفع إلى مرتبة دَيّان هذه الحياة أيضاً.

ويطلّ علينا هذا الاتجاه العقائدي والنفعي، أوّل ما يطل، في «آنا كارنينا» بلى، فمنذ الآن، في هذا المؤلَّف ـ ولكن بصورة غير واعية بعد وقليلة الوضوح نوعاً ما ـ ينفصل الأشخاص المناقبيون والأشخاص غير المناقبيين إلى مقولتين متميّزتين بفعل القضاء نفسه. إنّ فرونسكي وآنا؛ هذين الكائنين الشهوانيين وغير المؤمنين، الأنانيّين في هواهما، «ينالان عقابهما» كاملاً، فيُلقى بهما في مطهّر شكوك النفس وقلقها؛ أمّا كيتي وليفين، فعلى العكس من ذلك يُرفعان نحو سماء الغبطة والحبور. إنّ هذا المحلّل الدقيق الذي ظلّ عصيّاً على الفساد طوال زمن مديد، يسعى للمرة الأولى إلى أن يتحيّز مع مخلوقاته الخاصة أو ضدّها؛

لأنّه قد وجد إلحاحاً جديداً، إلحاحاً أخلاقياً يدفعه إلى ذلك ويجبره عليه، وإنّ ذلك الميل إلى الإصرار ـ على غرار المربّين ـ على مبادئ إيمانه الأساسية، وإلى زرع كتاباته ـ إن صحّ التعبير ـ بنقاط التعجّب والأقواس. إنّ هذه النيّة العقائدية، والتي لا تعدو كونها انحرافاً للفن؛ لتتجلّى عنده بصورة تزداد تشدّداً وتزمّتاً يوماً بعد يوم. وأخيراً فإنّ كساءً أدبياً رقيقاً، في «السوناتا إلى كروتزر» أو «البعث» يغطّي عرى لاهوت أخلاقي خالص، بينا الخرافات تخدم على خير وجه أغراض المبشّر. وهكذا يصبح الفن شيئاً فشيئاً بالنسبة إلى تولستوي، ليس غاية خاصة، هدفاً قائماً بذاته، بل هو عاجز بعد الآن أن يحب «الكذب الجميل» إلّا إذا كان يخدم قضية «الحقيقة» لا كي يساعد ـ مثله قبلاً ـ على التعبير عن الواقع، واقع الفكر والحواس؛ وإنما كي يظهر حقيقة هي، بالنسبة إليه، أعلى وأرفع، الحقيقة الروحية، الحقيقة الدينية التي كشفت له عنها أزمته العنيفة. ومن الآن فصاعداً سيعطي تولستوي اسم الكتب «الجيدة»، ليس لتلك الكتب الكاملة في اعتبارها آثاراً فنيّة؛ تلك التي تعبّر عن الأفكار العظيمة وعن عبقرية الإنسانية، بل لتلك التي تعضد «الخير» فقط (مهما تكن قيمتها الفنيّة)؛ تلك التي تساعد الإنسان على الصيرورة وجعله أكثر صبراً، ووداعة، ومسيحيّة، واجتماعية، ومحبّة، وكرماً، بحيث إنّ أويرباخ[1] الطيب التافه يبدو له أهم من شكسبير، هذه «الشجرة الضارة»؛ لأن مقياس القيم ـ عند تولستوي ـ قد أخذ ينزلق أكثر فأكثر من بين يدي الفنان كي ينتقل إلى يدي العقائدي المبشّر بالأخلاق... إنّ مصوّر الإنسانية، ذلك الذي لا يقارن ولا يطال إليه، يمحي بوعي واحترام ويتلاشى أمام مصلح الإنسانية، أمام الأخلاقي الذي ليس الفن بالنسبة إليه إلّا آلة تخدم في بناء شعور ديني جديد، لا مثل أعلى قائم بذاته هدفه أن يحقق على الأرض رسالة مقدّسة.

ولكن الفن، المتشدّد والغيور مثل كلّ ما هو إلهي، ينتقم من ذلك الذي

(1) روائي ألماني مغمور (؟؟؟ ـ 1882).

ينكره، فما أسرع ما ينسحب حيث يراد إخضاعه واستعباده لقوّة يريدها، إلّا دعا أن تكون عليا، ويولّي الأدبار من وجه المعلّم الأعظم... وهكذا، فحيث يتنازل تولستوي عن حياده وعدم تحيّزه كي يصبح عقائدياً؛ فهناك بالضبط تضعف حساسية صوره البدائية وتشحب مباشرة. إنّ ضوءاً رمادياً بارداً، ضوء العقل، يلقي في كلّ مكان ستاراً من الضباب الذي يحجب الرؤية، فإذا العابر يتعثّر ويسقط في وسط الثرثرات المنطقيّة الفارغة، وإذا هو يتحسّس طريقه في صعوبة كي يجد له منفذاً يتسلّل منه طلباً للخلاص.

وبالرغم من أنّ تولستوي سينعت ـ فيما بعد ـ بكل احتقار، وبفعل هوس أخلاقي ليس غير، «ذكريات الطفولة» و«الحرب والسلم»، وهما أروع ما كتب على الإطلاق، بـ«الكتب السخيفة التافهة الرديئة» لأنّهما لا يرضيان إلّا معطيات علم الجمال فقط، يعني أنّهما يبعثان في النفس «متعة دنيئة الطبيعة» (ماذا يقول أبولو عن مثل هذا التقدير؟)، فإنّ هذين المؤلّفين يظلّان في الحقيقة يتبوّآن قمّة إنتاجه، بينما تظهر كتبه ذات المنحى الأخلاقي أقل مؤلّفاته كمالاً على الإطلاق... وفي الواقع إنّ تولستوي، بمقدار ما يستسلم إلى «تعسّفه الأخلاقي»، فإنّ الشقة تتسع ما بينه وبين عنصر عبقريته الأساسي، الحقيقة الحسيّة، فيروح يضرب على وجهه في تيه الجدلية، بينما تتناقض قدرته الفنية في الوقت ذاته... إنّه مثل أنتيوس[1]، يتناول كلّ قواه من الأرض التي يتصل بها، وهو يظل عبقرياً، حتّى في شيخوخته الأخيرة، حين ينظر إلى العالم الحسّي بعينيه الرائعتين الماسيتيّ الحدّة، بينما تتضاءل عظمته بصورة مخوفة عندما يروح يتحسّس طريقه في السحب، في ما وراء الطبيعة، فلا يمكن للقلب إلّا أن يتأثّر عندما ينظر إلى العناد المستميت الذي يسعى به مثل هذا الفنّان

(1) عملاق، ابن نبتون والأرض، خنقه هرقل بين ذراعيه ولكنه لاحظ أنّه يجدد قواه كلما لامس الأرض. فرفعه عن سطحها بيديه طويلاً حتّى فارقته الحياة.

إلى الارتفاع والتحليق في أجواء الروحي، في حين صنعه القدر كي يمشي في ثقل على أرضنا القاسية؛ فقط، كي يحرثها ويزرعها، كي يعرفها ويصفها كما لم يفعل أي فكر آخر في عصرنا.

نزاع مفجع، يتكرر أبداً في كلّ الآثار وسائر الأزمان... إنّ ما يجب أن يعطي الأثر الفني سلطة أعظم، القناعة والرغبة في الإقناع؛ يؤذي الفنان في أغلب الأحايين ويسيء إليه. إنّ الفنّ الحقيقي أناني، لا يعرف شيئاً خارجاً عنه وعن كماله وإتقانه، والفنان الخالص يجب ألّا يفكر إلّا في عمله وحده، وليس في الإنسانيّة التي يوجّهه إليها. وهذا هو السبب في أنّ تولستوي، هو أيضاً، يبدو أعظم ما يكون ـ باعتباره فناناً ـ حيث يصف في عدم اكتراث ودون أدنى إشفاق، بعين موضوعية لا يتطرّق الفساد إليها، عالم الحواس دون أن يزعجه، أو أن يضيعه أي إشفاق أو عاطفة. ومنذ اللحظة التي يصبح مشفقاً فيها، فيريد أن يمدّ يد المعونة، وأن يحسن الأمور، وأن يوجّه بمؤلّفاته ويثقّف؛ فإنّ فنّه يفقد من قوّته الساحرة، بينا يصبح هو نفسه، بمصيره، وجهاً يفوق في تأثيره سائر الوجوه التي أبدعها.

# تولستوي كما يصف نفسه

**«أن نعرف حياتنا؛ ذلك يعني معرفتنا بأنفسنا».**

**إلى روسانوف**
**1903**

هذه النظرة القاسية، المسلّطة على العالم دون رحمة، لا تقل قسوة منعدمة الإشفاق بالنسبة إلى صاحبها أيضاً. إنّ طبيعة تولستوي لا تقبل شيئاً يعوزه الوضوح، لا تقبل نقاطاً غائمة قاتمة، لا في داخل العالم الأرضي ولا في خارجه. وهكذا فإنّ ذلك الذي اعتاد، كفنّان، على ملاحظة استدارات الأشياء الأكثر نعومة ولطفاً بدقّة تامّة، إنْ في الخط الناحل الذي ترسمه الشجرة عن بُعد، أو في الحركة المختلجة التي تنتاب كلباً اعتراه الخوف الشديد، لن يستطيع أبداً أن يطيق في نفسه اضطراباً فظّاً أو نقص الوضوح وانعدامه؛ فهو لذلك يطبق على نفسه، بصورة مستمرّة لا تقاوم، ومنذ طلائع سِنيّه، تلك الحاجة الأساسيّة إلى المعرفة التي تعتمل في نفسه. وعندما كان في التاسعة عشرة من عمره كتب في «مذكراته» يقول: «أريد أن أتعلّم معرفة نفسي في الصميم». ومنذ تلك اللحظة، حتّى بلوغه الثالثة والثمانين، لن يكف عن سؤالٍ شكّل أناه الخاص، مسلّطاً عليه مراقبة حادّة، يقظة، متشكّكة. إنّ تولستوي، القاسي على نفسه مثلما هو قاسٍ على سائر الناس؛ ليمرّر من تحت المشاهدة السريرية لأناه سائر أعصاب حساسيّته وسائر أفكاره؛ وهي جميعاً ما برحت بعد حارّة ملتهبة بالدماء الساخنة... إنّ هذا الحيوي العملاق يريد أن يعرف ذاته بوضوح لا يقل شدّة عن

القوّة التي يحسّ الحياة بها... وفي الحقيقة إنّ مجنوناً مثل تولستوي لا يمكن أن يكون شيئاً آخر سوى مترجم لحياته، شديد الحماسة حتى الحدّ الأقصى.

ولكن تمثيل الأنا، على العكس ممّا يحدث عندما نمثّل العالم، لا يمكن أن يتحقق بصورة تامة في أثر فني واحد... إنّ المبدع يقدر أن يعزل كلّياً صورة غريبة، إنْ كانت بنتاً للمشاهدة أم بنتاً للخيال؛ وذلك بتمثّلها في عمله... فالحبل السريّ قد قُطع منذ ولادتها، وهي لن تعيش من الآن فصاعداً إلّا بحياة مستقلة في عالم الفكر، إنّها أشبه بطفل لم يعد هناك ما يربطه بدوران أمه الدموي، قد أصبحت مستقلة قائمة بذاتها؛ والفنان يتحرّر منها بفعل إنضاجها وإخراجها هو نفسه... ولكن الأنا، على نقيض ذلك، لا تسمح بعزلها تماماً بمجرّد تمثيلها؛ لأنّ صورة واحدة لا تكفي لتقرير سائر حركاتها الدائبة المستمرّة؛ وذلك هو السبب في أنّ المصوّرين العظام للأنا يكرّرون، طوال حياتهم، صورتهم الخاصة؛ فيبدؤون ـ وتلك هي الحال مع دورِرْ ورامبرانت وتيتيان على حدٍّ سواء ـ آثار صباهم الأولى أمام المرآة، ويستمرون على ذلك حتّى اللحظة التي ترفض أيديهم فيها أن تنصاع لهم؛ وما ذلك إلّا لأنّ محيّاهم الخاص يجتذبهم إنْ بما فيه من الثابت غير المتبدّل، أو بما فيه من المتبدّل والمتحرّك، بحيث إنّ كلّ صورة قد رُسمت خطوطها هكذا في الماضي لن يلبث أن يغمرها من جديد تدفّق الزمان الذي يتابع أبداً جريانه الدائم.

وهكذا، فإنّ هذا الرسّام العظيم للواقع، الذي هو تولستوي، لا يكمل تصوير نفسه أبداً، بل لا يكاد يمثّل نفسه تحت مظهر أحد الوجوه الذي يظنّه نهائياً (أكان هو نيشلودوف، أو بيزوشوف، أو بيير، أو ليفين)، حتى لا يعود يعرف أبداً في العمل المنتهي محيّاه الخاص، فيضطر إلى البدء من جديد؛ كي يُطبق على الشكل الجديد ويُمسك به. وكما أنّ تولستوي الفنّان يلاحق خيال نفسه دون تعب أو كلل، هكذا أناه تتابع الفرار من أمام وجهه، في شيء من الهرب

الأخلاقي، فكأنّه تجاه تضاعف متجدّد أبداً، ناقص وغير مكتمل على الدوام، يحس عملاق الإرادة هذا ـ دون انقطاع ـ الحاجة إلى التغلّب عليه وقهره. وهكذا فإنّ تولستوي لا ينتج، طوال ستين عاماً من العمل الجبّار، مؤلفاً واحداً لا يحوي وجهاً يُعطي مسودة عن شخصه بالذات، دون أن تستطيع أيّة مسودة رسمها أن تضم ـ لوحدها ـ كلّ اتّساع هذا الإنسان وامتداده، بل إنّ سائر رواياته وأقاصيصه و«مذكّراته» ورسائله في مجموعها ـ هذا النتاج الذي يضم عالماً عنيف التدفّق والجريان ـ تستطيع وحدها أن تُعطي صورة صحيحة عنه، ولكنها ههنا الصورة الأكمل والأدق والأوضح والأكثر استمراراً، التي رسمها يوماً إنسان عن نفسه في زماننا بأسره.

وفي الحقيقة إنّ تولستوي، وهو الذي تفصل شقة واسعة بينه وبين الاختراع، والذي يعجز إلّا عن خلق أشياء عاشها البشر وشاهدوها، لا يستطيع أبداً ـ على اعتباره كائناً حيّاً ومراقباً للكون يضع ذاته، في شيء من اليأس، في مركز رؤاه دوماً ـ أن يطرح من ساحة بصره أناه الخاصة، بحيث لا يفقد قط الشعور بشخصيته حتّى ولا في لحظات إشراقه. إنّ بصيرته النافذة، المجلّلة، لا تغلق الأجفان قط، حتّى ولا في أحضان الهوى. إنّ تولستوي (وأي شيء لا يعطيه كي يبعد عنه ذلك الظلّ المرهق لأناه الخاصة؟)، هذا الإنسان الذي يملك في كلّ من حواسّه وعياً فائقاً عن ذاته، لن يستطيع أبداً أن يتحرّر ثانية واحدة من شخصه، أن ينسى نفسه أو يتناساها... إنّه عاجز عن الاستسلام حتى إلى عنصره الحواسّي؛ أعني الطبيعة: «أنا أحبّ الطبيعة عندما تحفّ بي من كلّ حدبٍ وصوب (فلنلاحظ «أنا» و«بي»)، ومع ذلك فيجب أن أكون في وسطها. إنّي أحبها عندما تغمرني أنسامها الدافئة بأمواجها، ومن ثمّ تبتعد نحو آفاق لا متناهية، عندما تعير عروق العشب الطرية التي أضغط عليها أثناء اقتعادي الأرض اخضرارها إلى الحقول الواسعة المترامية الأطراف». وهكذا نرى أنّ المشهد الأكثر سحراً وفتنة لا يعدو

كونه، بالنسبة إلى حساسيّته، الشعاع والدائرة اللذين تثبت أناه في وسطهما وتستقر ـ وأناه مركز ثقل كلّ حركة على الإطلاق، مركز لا يتزحزح من مكانه قيد أنملة أبداً ـ والكون الروحي بأسره يدوم بالطريقة نفسها ويستدير حول شخصه وفكره وحدهما. وهذا لا يعني أنّه مغرور، متكبّر، متعصّب لأناه، يعتبر نفسه في مبالغة تتجاوز كلّ حدود سرّة هذا العالم ومركزه، بل إنّ أحداً ـ على النقيض من ذلك تماماً ـ لم يشك أكثر منه بقيمته الأخلاقية، بالرغم من عمق وعيه لأناه وشدّته، ولكن الرجل متأصّل بصورة متينة جداً في جسده العملاقي، عميق الجذور في سجن انطباعاته الشخصية، حتى لا يستطيع قط أن يحذف أناه وينسى نفسه. إنّ القدر قد أمسك بصورة مطلقة عن هذا الفكر غير المجنّح موهبة الفرار من نفسه كي يطير نحو عالم الحلم، نحو الوهم والخرافة، نحو شيءٍ ما غريبٍ عن عالم الأرض. إنّه مضطر بصورة إجبارية لا تعرف تعباً أو كللاً ـ وفي غالب الأحيان بالرغم من إرادته، ودوماً فيما وراء إرادته البصيرة ـ إلى دراسة نفسه والتجسّس عليها، وتوضيحها حتى الإعياء، إلى «إقامة الحراسة» نهاراً وليلاً على حياته الخاصة. وهكذا فإنّ حميّاه في ترجمة حياته لا تتوقف لحظة واحدة، مثلما لا تتوقف الدماء في أوردته، أو ضربات قلبه في صدره، أو الأفكار تحت جبينه... إنّ صنع مؤلّفٍ أدبي يعني بالنسبة إليه دوماً إدانة نفسه ورواية قصّته.

وهكذا، فليس هناك شكل من تمثيل الأنا لم يمارسه تولستوي، من الحكاية البسيطة الساذجة، إلى المراقبة الموضوعية والميكانيكيّة الخالصة للذكرى، ومن الشكل التربوي إلى المراقبة الأخلاقية، ومن الاتهام الأخلاقي إلى الاعتراف الروحي، إنّه تمثيل الأنا كوسيلة إلى كبح جماح النفس وتحريضها، وترجمة الحياة الذاتية كفعل جمالي وديني خالص... كلّا، إننا لن ننتهي من تعداد سائر الصيغ في تفاصيلها، وسائر المبرّرات في دقائقها، ومن وصف ذلك التنوّع المدهش الذي يميّز هذه الإظهارات للأنا، أن العارية أو المقنّعة على حدٍّ سواء.

ولكن هناك شيئاً واحداً أكيداً لا يتطرّق الشكّ إليه؛ وذلك أنّ تولستوي هو الإنسان المعاصر الذي تتوفر لنا المعلومات عنه أكثر من أيّ إنسانٍ سواه، مثلما هو أكثر مَن تتوفر لنا صوره من الناس. إنّنا نعرف من مذكراته مراهق السابعة عشرة مثلما نعرف عجوز الثمانين، ونعرف أهواء صباه، ومأساة زواجه، وأفكاره الأكثر أُلفة بنفس الدقّة والصدق اللذين نعرف بهما أفعاله الأكثر جنوناً وتفاهة؛ لأنّ تولستوي ـ وههنا تناقض مطلق آخر مع دستويفسكي الذي كان يعيش «مغلق الشفتين» ـ كان يحب أن يعيش مصيره «تاركاً الأبواب والنوافذ مفتوحة على مصاريعها». وإنّنا لنعرف بفضل هذه التعرية المهووسة لكينونته التي يقوم بها هو نفسه، كلّ حركاته وخطواته، وحتى أكثر فصول سنوات وجوده الثمانين سطحيةً وتفاهة، بذات الدقّة التي نعرف بها صورته الحكمية كما تظهرها لنا نسخ لا حصر لها ولا عد، عند الحذّاء، أو في حديث مع الفلاحين تارة، وممتطياً جواده أو وراء المحراث تارة أخرى، إلى طاولة العمل، أو في ملعب التنس حيناً، ومع زوجته أو مع أصدقائه وحفيدته حيناً آخر، حتى وهو نائم أو على سرير الموت أيضاً. والأكثر من ذلك أنّ هذه الوثائق العديدة، وذلك الإظهار الأخلاقي والحكمي التي يقدمها لنا جميعاً تولستوي بنفسه، تؤيّدها ذكريات لا تُحصى وملاحظات لا تُعد صادرة عن المحيط الذي عاش فيه، كتبتها زوجته، أو ابنته، أو أُمناء سرّه والصحفيّون والزائرون العديدون... وعندي أنّه يمكن تجديد غابات ياسنايا بوليانا بالخشب الذي صُنع به الورق الذي خطّت عليه مختلف الذكريات المتعلّقة بتولستوي! أبداً لم يعش شاعر واعياً بمثل هذه الطريقة المفتوحة، وقلّة هم ـ أيضاً ـ أولئك الذين عرفوا الناس على أناهم مثله. إنّنا لا نعرف منذ جوته وجهاً تتوفّر الوثائق عنه بمثل هذا الكمال، وثائق تقدمها المشاهدة الداخلية والمشاهدة الخارجية جميعاً.

وتعود هذه الحاجة عند تولستوي لمراقبة نفسه إلى يقظة وجدانه الأولى،

فتبدأ بتوطيد نفسها أوّل ما تبدأ، في عدم انتظام ودقّة، في الجسد المزدهر والمضطرب، جسد الطفل الصغير قبل أن يعرف الكلام بزمن طويل، ولا تنتهي إلّا في الثالثة والثمانين والرجل مسجّى على سرير موته، والكلمة الإرادية قد فقدت كلّ سلطة لها على اللسان، والشفة التي تنطفئ لا تصعد في الفراغ بعد الآن إلّا نفخة غير مفهومة. ولكنك لا تجد في هذه الفترة من الزمن، التي تفصل بين البداية وسكون النهاية، لحظة واحدة لم يقل فيها أو يكتب شيئاً. إنّ الطالب تولستوي، وهو بعد في التاسعة عشرة لمّا يكد يتخرج من المدرسة، يشتري كرّاسة ليكتب عليها مذكرات يومية، فيخطّ منذ الصفحات الأولى هذه الكلمات: «إنّي لم أثابر من قبل على كتابة المذكرات أبداً؛ لأنّي لم أجد لها نفعاً أو فائدة. أمّا الآن وأنا معني بتطور مواهبي، فلسوف أستطيع بفضل هذه المذكرات أن أتابع جريان هذا التطور. يجب أن تضم هذه المذكرات قواعد للحياة، كما يجب أن أكتب فيها أفعالي اللاحقة». ففي هذا الفتى الصغير الذي ما برح أمرد المحيّا، يوجد منذ الآن إذن بذرة لما تنتشِ بعد، بذرة مربّي الكون اللاحق الذي سيصير إليه تولستوي، هذا الذي يعتبر الحياة منذ البداية «مهمة جديّة» يجب أن ينفّذها المرء بدقّة وخطورة. ويبدأ بفتح حساب خاص بواجباته، مثله مثل تاجر يباشر أعماله، «من وإلى» من المبادئ والأفعال... إنّ هذا الفتى الصغير البالغ التاسعة عشرة لعلى معرفة تامّة منذ الآن بدخل الرأسمال الذي يمثّله شخصه، فهو منذ أوّل إحصاء يقوم به عن كائنه يتحقق من أنّه «فرد غير عادي» أُلقيت على عاتقه «مهمة غير عادية»... ولكنه يحسب في الوقت نفسه، منذ الآن وبدون أيّة شفقة ـ هو الذي ما برح نصف طفل بعد ـ أي مجموع ضخم من الإرادة سوف يتوجّب عليه أن يبذله؛ كي يفرض على طبيعته الميّالة إلى الكسل والطيش والتهوّر والشهوانية سلوكاً أخلاقياً حقّاً وفعلاً... وإنّ هذا العالم النفساني المبكّر ليعرف منذ الآن، بغريزة سحرية البصيرة، أسوأ عيوبه... تلك العيوب الروسية

النموذجية حتّى الدرجة القصوى؛ عيوب بعثرة النفس وتبذير الزمن وهيجان لا يكبح جماحه...

ولذا فهو يخلق لنفسه جهازاً، الغاية منه الإشراف على مردود كلّ من نهاراته، حتى لا ينقضي أحدها أبداً دون أن يحصد منها بعض الفائدة والنفع، فالمذكرات تخدمه في البدء إذن من كونها محرّضاً كي يتقدم تربوياً، كي يحلّل ذاته حتّى الصميم، وكي (يجب أن نفكر دوماً في كلمة تولستوي هذه): «يقوم بالحراسة على حياته الخاصة». وهذا المراهق يختصر ـ مثلاً ـ بدقّة لا مداراة فيها، نتائج أحد نهاراته على هذا الغرار: «من الظهيرة حتّى الساعة الثانية مع بيجيتشيف، تحدّثتُ بحرّية كثيرة، وبغرور عظيم، وأنا أكذب على نفسي أيضاً... من الثانية حتّى الرابعة رياضة بدنية، قليل من العكوف ومن الصبر... من الرابعة حتى السادسة طعمت وابتعت بعض الأشياء عديمة النفع. في البيت لم أكتب شيئاً؛ إنّه الكسل... ولم أستطع أن أقرّر إنْ كان يجب أن أغدو لزيارة آل فولكونسكي أم لا... تحدّثتُ قليلاً هناك، إنّه الجبن... ولقد تصرّفتُ بصورة سيئة؛ جبن، وغرور، وطيش، وضعف، وكسل». إنّ القسوة التي يُطبق تولستوي بها على عنقه بيده الطفولية المبكّرة والعديمة الشفقة حتى هذه الدرجة البعيدة! ولسوف تدوم هذه القسوة طوال ستين عاماً، مثلها في التاسعة عشرة. إنّ تولستوي، في الثانية والثمانين، ما برح يمسك بالسوط مرفوعاً فوق رأسه، وبالقسوة نفسها يخطّ في مذكّرات الشيخوخة هذه النعوت المهينة الموجّهة إلى نفسه: «جبان، نذل، كسول»، عندما لا يخضع جسده المتعب خضوعاً تامّاً مطلقاً للنظام الإسبارطي الشديد الذي تفرضه إرادته عليه... إنّ تولستوي يقف بالمرصاد، منذ الساعة الأولى حتّى الساعة الأخيرة، حارساً على حياته الخاصة، مثله مثل صف ضابط بروسيا قاسٍ وعبدٍ للواجب؛ عبداً للنظام الذي فرضه بمحض إرادته على نفسه، ساعياً بالإنذار تارة، والتهديد تارة أخرى، وربما بضربٍ خبيثٍ متلاحق من عقب

البندقية في بعض الأحايين، إلى طرد البطالة والكسل بعيداً عنه، كما يسير في طريق الكمال العسيرة...

ولكن الفنان الكامن في تولستوي ليطالب هو الآخر، بصورة متواقتة تقريباً مع الأخلاقي المبكر فيه، بصورته أيضاً، فيبدأ في الثالثة والعشرين (وهو أمر فريد في الأدب العالمي!) ترجمة حياة ذاتية في ثلاثة مجلّدات... إنّ نظرة تولستوي الأولى تقوم في التطلّع إلى نفسه في المرآة. إنّ هذا الفتى لا يعرف شيئاً من العالم بعد، حتى إنّه يختار موضوعاً لفنّه، وهو لما يتجاوز الثالثة والعشرين، قصة حياته وحدها، قصة طفولته... وهذا فإنّ الملازم الثاني تولستوي، الذي ما برحت لحيته عبارة عن وبر خفيف فقط، والذي يعسكر كمدفعي في إحدى قلاع القوقاز، يجرّب بسذاجة لا تقل عن سذاجة دورڤ الذي يتناول الريشة المفضضة وهو في الثانية عشرة كي يرسم على أوّل ورقة سقطت بين يديه محيّاه الضيّق، الشبيه بمحيّا فتاة صغيرة، حيث لم تضع التجربة بعد أيّاً من غضونها، يجرب إذن، فضولاً وحبّاً في الاستطلاع، أن يروي لنفسه «طفولته» و«سنوات صباه» و«سنوات مراهقته». إنّه لا يُعنى إذن بمَن يكتب لهم، ولا يفكر أبداً في الأدب، والصحف، وجمهور القرّاء؛ بل يطيع ـ بصورة غريزية ـ حاجة إلى فهم نفسه بروايته قصة حياته، دون أن يلاحق ذلك الدافع الغامض فيه أيّ هدفٍ معيّنٍ واضح، كما أنّه ـ على النقيض ممّا سيتطلّبه فيما بعد ـ لا «يستنير بضياء أي اهتمام أخلاقي». إنّ هذا الضابط الصغير في القوقاز يتصرّف بدافع من غريزته وحدها، ويخطّ على الورق بدافع من الفضول والضجر، في هواية لطيفة، على غرار التصوير المائي، صور بلاده وصور طفولته. إنّه لا يعرف شيئاً بعد من ذلك الرمز الذي سيتجلى ـ فيما بعد ـ عند تولستوي على طريقة رسل جيش الخلاص، لا يعرف شيئاً من «الاهتداء»، الاهتداء «إلى الخير»، ولا يحاول كذلك أن يعلن على الملأ، كتحذير شديد وإنذار عنيف، «فظائع شبابه»؛ كي يستخرج منها مثالاً يفيد الآخرين. كلّا، إنّ هذا الشاب البالغ

الثالثة والعشرين لا يصف وجوده الصغير، وانطباعاته الأولى، وأباه، وأمه، وأهله، ومعلّميه، والبشر، والحيوانات، والطبيعة، كي يفيد بعض الناس وينفعهم، بل إنما يفعل ذلك بدافع لعب غريزي فقط، ميدانه فكر ما فتئ يحمل شيئاً كثيراً من الطفولة، فكر لم يعش حتى الآن إلّا حادثة واحدة؛ ألا وهي «كيف انزلق الصبي الصغير فيه حتى المراهق». وإنّ تولستوي لينجح في وصفه ذلك نجاحاً عظيماً بفضل تلك العفوية الرائعة التي لا يعرفها إلّا ذلك الذي لا يلاحق هدفاً معيّناً. ما أبعد هذه الطريقة الصافية في الرواية، ما أشدّ بعدها عن ذلك التحليل الخطير العميق، الذي يتميّز به الكاتب المنهجي الذي سيصير إليه ليون تولستوي، هو الذي سيجد نفسه مضطرّاً، بفعل المركز الذي يحتلّه، إلى تقديم نفسه أمام الناس كتائب، وأمام الفنّانين كفنّان، وأمام اللّه كخاطئ، وأمام نفسه كمثال للتواضع الضروري! إنّ الذي يكتب هذه الأقاصيص ليس إلّا نبيلاً لا يريد أن يقضي كلّ أمسياته على مائدة القمار، كما أنّ الحنين إلى محيط بلاده الدافئ، وإلى عذوبة الوجوه التي اختفت منذ زمنٍ بعيد، ينتابه وهو في بلاد أجنبية غريبة. وعندما يحصل ما لم يكن منتظراً؛ فإذا تلك الترجمة الذاتية العديمة الغاية تمنحه اسماً في عالم الأدب. فإنّ ليون تولستوي يسرع فيهمل استكمالها، يهمل قصة «سنوات الرجولة»... إنّ الكاتب الشهير لن يسترجع ـ بعد الآن ـ أبداً إيقاع الكاتب المجهول، والمعلّم لن ينجح قط في سنوات نضوجه في رسم صورة ذاتية بنقاوة الصورة الأولى ومرونتها. وفي الحقيقة إنّ الفنّان يصاب بخسارة لا تُعوّض ـ مهما تكن الحسنات التي ينالها من امتلاكه جمهوراً خاصاً به ـ خسارة نوع من الإخلاص والأمانة الساذجين، إخلاص وأمانة يستحيلان على أيّة حال إلّا في عتمة الاسم المجهول. إنّ عفّة نفس متعاظمة تبدأ بالظهور متواقتة مع المجد، عند كلّ إنسان لم يصبح بعد ـ بصورة كلّية ـ عبداً للأدب ورقّاً... إنّ حياة الكاتب الخاصة يجب أن تختبئ خلف قناع وتتخفّى؛ كي لا يأتي شيء كاذب أو مسرحي المظهر فيشوّه بصورة محتومة ذلك الإخلاص الذي لا

يملكه إلّا المجهول وحده، هذا الذي لم يجرحه بعد فضول العالم، ولسوف ينقضي نصف قرن كامل (إنّ الأرقام عند تولستوي لواسعة مثل الأرض الروسية) قبل أن تعود تلك الفكرة التي كانت مجرّد لعب بسيط بالنسبة إلى المراهق، فكرة ترجمة ذاتية كاملة ومنهجية، فتشغل ذهن الفنّان من جديد. ولكن ما أكثر ما تبدّلت هذه المهمة بعد مروره إلى الأفكار الدينية! لقد أصبحت رسالة إنسانية، أخلاقية، تربوية، هدفها لا معرفة الذات فحسب، بل تثقيف العالم وهدايته في الوقت نفسه، بفضل تلك الصورة عن تولستوي التي وضعها تولستوي أيضاً: «إنّ وصفاً أميناً وممكناً معاً يقوم به كلّ فرد عن حياته الخاصة؛ يملك قيمة كبرى بالنسبة إليه، ويجب أن يكون ذا نفع عميم بالنسبة إلى سائر الناس». وهكذا فهو يعلن ـ فيما بعد ـ بكل خطورة، عن هذه الرسالة العظمى، ويروح يتأهّب بدقّة عظمى ـ وهو عجوز في الثمانين ـ لذلك التبرير الحاسم. ولكنه لا يكاد يبدأ المؤلّف حتّى يهمله، بالرغم من أنّه يجد هذه الترجمة الذاتية «الموافقة للحقيقة بصورة مطلقة، أكثر فائدة... من كلّ الثرثرة الفنيّة التي تملأ مجلّدات مؤلّفاتي الاثنتي عشرة التي يمنحها أناس هذه الأيام أهميّة لا تستحقها مطلقاً». وفي الحقيقة فإنّ المقياس الذي يخدمه في الحكم على الحقيقة قد زاد دقّة على مرّ السنين، بمقدار ما تحسّنت معرفته لحياته الخاصة، بحيث أصبح أكثر تعنّتاً في هذا المضمار... لقد عرف أنّ كلّ ما هو حقيقي يرتدي شكلاً متعدّد المظاهر، صعب النفوذ، قابل التبدّل والتغيير، فإذا الرجل الذي وعى مسؤولياته يجد نفسه مذعوراً مرتجف الأوصال حيث كان مراهق الثالثة والعشرين، يتزحلق على سطوح ملساء كالمرايا، فيتراجع يائساً ويعود القهقرى، هو الذي يفتش عن الحقيقة ويعرف ماهيتها... إنّه يخاف من «النواقص، من عدم الأمانة التي تتسرب بصورة محتومة في كلّ ترجمة ذاتية» يخشى أن «تصبح مثل هذه القصة كاذبة، حتّى إن لم تكن كذباً مباشراً، بفعل إضاءة مغلوطة، تُظهر بصورة منهجية إلى النور ما هو خير، وتترك في الظلمة ما هو شر».

ليون تولستوي في ثياب الفلاحين الخشنة

ويعترف دون موارية: «وبالمقابل، عندما قررت أن أكتب الحقيقة العارية، فلا أخفي أيّ عملٍ شريرٍ ارتكبته في حياتي؛ ذعرت للنتيجة التي ستنشأ، حتماً، عن مثل هذه الترجمة الذاتية». إنّ الأخلاقي الذي صار تولستوي إليه يدرك بكل وضوح، بمقدار ما يتفحّص بانتباه أخطار مثل هذا المشروع، هو الذي لم يعد يفكر إلّا في الآخرين، في «النتيجة» التي ستحدث استحالة إنجاز العمل بين «شاريبد الأنانية وسيلا[1] الصراحة القصوى»، في مضيق نفس كليّة السلامة الشديدة الإخلاص. وإن مشروع هذه الترجمة الذاتية الأخلاقية، المصنوعة «من وجهة نظر الخير والشر»، والتي ينوي فيها أن يكتشف دون أي تحفّظ، بإعلان محفوف بالأخطار عن أناه «كلّ سفالة حياته وعارها». إنّ هذا المشروع لم يتحقّق أبداً، وما السبب في ذلك إلّا احترام الحقيقة المطلقة بالضبط... لكن لا نأسف أكثر ممّا يجب لهذه الخسارة؛ لأنّنا نعرف بصورة دقيقة، ممّا كتبه تولستوي في تلك المرحلة ـ «الاعترافات» مثلاً ـ إنّ الحاجة إلى الحقيقة قد أصبحت بالنسبة إليه، منذ أزمته الدينية، الحاجة التي لا تقاوم إلى إهانة نفسه وإذلالها، نوعاً من اللذة المجنونة في جَلد نفسه (على غرار لذّة تلك الفئة من الروسيين الذين كانوا يجلدون أنفسهم بالسياط كي يقهروا خطيئة جسدهم)، بحيث كان كلّ تصريح عن شخصه أدلى به في تلك السنوات يتفسّخ في نوبة عنيفة من الشتائم والإهانات الصادرة عنه على حسابه الخاص.

إنّ تولستوي في هذه السنوات الأخيرة لم يكن يريد أن يروي قصة حياته بكل بساطة فحسب، بل أن يذلّ نفسه أمام أعين البشر، أن «يقول أشياء كان يخجل من أن يعترف بها لنفسه»؛ بحيث إنّ هذه اللوحة النهائية التي رسمها عن شخصه

---

(1) إعصار مائي وكتلة جبّارة من الصخور في مضيق مسينا قرب صقلية مشهوران كثيراً في الملاحة القديمة؛ لما كانا يلقيان من الرعب في قلوب الفلاحين الذين كثيراً ما كانوا يصطدمون بالثاني إذا استطاعوا أن يتجنّبوا الأوّل.

قد أصبحت من دون ريب، بذلك العرض الجائر «لرذائله» وخطاياه الكاذبة، تشويهاً للحقيقة لا مراء فيه. وإنّنا نستطيع، بالإضافة إلى ذلك، أن نستغني عنها تماماً؛ لأنّنا نملك وصفاً آخر لتولستوي، وصفاً من وضعه ـ أيضاً ـ يضمّ كلّ حياته ويشملها، في مختلف مراحلها؛ وصفاً لعلّه أكمل ما تركه شاعر ـ خلا جوته ـ عن نفسه... وصحيح أنّ هذا الوصف، كما هي الحال عند جوته، لا يوجد في مؤلَّف واحد، بل بالأحرى في التنوّع؛ فهو يتطور دون مفاصل أو فراغات خلال مجموع مؤلّفاته، ورسائله، و«مذكراته»... إنّ هذا الفنان، المعني أبداً بأناه الخاصة في سائر مراحلها المختلفة، قد وضع نفسه على المسرح، بنسبة رامبرانت ـ تقريباً ـ في رواياته وأقاصيصه، متنكّراً في وجوه مختلفة، لكن يمكن التعرّف عليها دوماً وبسهولة تامة أيضاً!... وإنك لا تجد في وجوده الطويل جداً مرحلة هامة من حياته الخارجية، أو أزمة في حياته الداخلية، لم يجسّدها ـ مثلما يقول الشعراء الحقيقيون ـ في شخص رمزي... إنّ الملازم الثاني الشاب أو لينين، سليل الطبقة النبيلة الذي يفتش ـ في «القوزاق» ـ في أيّة مهنة يرتمي في أحضانها وفي الطبيعة العظيمة في وقت واحد، عن ملجأ يفرّ إليه من كآبة موسكو وبطالتها، ويجد فيه نفسه وأناه أيضاً؛ إنما هو، حتّى في كلّ خيط من خيوط ثيابه وكل ثنية من ثنايا وجهه، الرئيس الفتى في المدفعيّة تولستوي بلحمه ودمه. وإن بيير بيروشوف الحالم، الثقيل الدم، في «الحرب والسلم»، وأخاه اللاحق النبيل الريفي ليفين، هذا الباحث عن اللّه الذي يحترق برغبة النفوذ إلى معنى الحياة، ليفين «آنا كارنينا»، لهما من دون أدنى ريب ـ حتّى في مظهرهما الحكمي ـ تولستوي نفسه عشيّة الأزمة. وإنّ سائر الناس ليعرفون تحت جبّة «الأب سيرج» نضال الكاتب الشهير في سبيل القداسة، وفي «الشيطان» مقاومة تولستوي الذي يشيخ ضد مغامرة شهوانية، وفي الأمير نيشلودوف ـ أكثر شخصياته اعتباراً (إنها تجتاز مؤلفاته بأسرها) ـ ذلك النموذج من الإنسان الذي احتفظ به سرّاً في أعماق

كينونته، تولستوي المثالي الذي يعيره كلّ نواياه وسائر أفعاله مرآة مبدعة خلّاقة لوجدانه الأسمى...

لا بل إنّ ساريزين نفسه، في «النور في الدياجير» يحمل قناعاً شديد الشفوف، ويفضح بصورة تامة كلّ مشهد من مشاهد مأساة تولستوي العائلية؛ حتّى إنّ كلّ ممثل يلعب، اليوم أيضاً، ذلك الدور على الخشبة، يضع بالضرورة قناع الكاتب الكبير ويتلثّم به... إنّ طبيعة شديدة الامتداد والاتّساع، كطبيعة تولستوي، قد اضطرّت إلى الانقسام والتوزّع على العديد من الشخصيات التي إذا ما فتشنا عنها وجمعناها ـ صورة فصورة ـ في تيار مؤلفاته العظيم وجريانها؛ سمح لنا اجتماعها أن نركّب من جديد صورة تولستوي الجامعة، الأمر الذي يتحقق لنا بكمال ووضوح مطلقين. ولذا فإن كلّ ترجمة لحياة تولستوي، وكل وصف وثائقي لشخصه؛ أمران فائضان في الحقيقة بالنسبة إلى كلّ مَن يستطيع أن يقرأ ببصيرة ناقدة وفكر ثاقب مؤلّفات الكاتب الشعرية؛ لأنّه لا يوجد أيّ مراقب خارجي يتفوّق في وضوح التعبير على هذا المراقب لأناه، الملاحق لها دون هوادة... إنّه يقودنا في أحضان أكثر نزاعاته خفية. ونثره ـ مثل شعر جوته ـ ليس إلّا اعترافاً وحيداً وعظيماً يتطوّر ويستكمل نفسه، صورة فصورة، عبر حياة كاملة مديدة السنوات.

وإنّ هذا الاستمرار، وحده، هو بالضبط ما يرفع عمل تولستوي إلى المرتبة الأولى من الترجمات الذاتية التي تركها لنا فنّانو النثر... ليس ههنا ما يشبه من بعيد أو قريب ترجمة كازانوفا الذاتية، المكتوبة كتلة واحدة، أو ترجمة ستندال الجزئية غير الكاملة... إنّ تولستوي يعدو دوماً، ملاحقاً نفسه في أشخاصه، مثلما يتأثّر الخيال بالجسد.

وفي الحقيقة أنّ هذا المنهج، هذه الحاجة التي يحسّها المرء إلى إظهار نفسه بمرونة والإعلان عنها دون كلل، شيئان مألوفان عند سائر الفنّانين على الإطلاق.

إنّ الشاعر ـ هذا الإنسان الفائض الخصب والرازح تحت نير قضاء متعدد، هذا الإنسان الذي تسقيه كلّ حادثة وتلقحه ـ يردد في خليقاته أن الإشراقات التي تُسكره، أو الأزمات التي تمزّق كينونته... ولكن بينما يتقدم الكثيرون أمام الناس في قناع وحيد دائم، مثل ستندال في كتابه «فابريس» وجوتفريد كيللر[1] في «هنري الأخضر» وجويس في «ستيفان ديدالوس»، نجد أنّ تولستوي، بسبب تبدّلاته المستمرّة والفريدة في نوعها؛ يعطي لصورته الخاصة شكلاً جديداً كلّ عشر سنوات، فنراه هكذا ونعرفه لا شخصاً وحيداً لا يتبدّل، بل طفلاً ومراهقاً، ومن ثمّ ملازماً ثانياً عديم المبالاة، فزوجاً سعيداً، وبعد ذلك نرى إليه شاوول[2] جديداً وبولس في أزمته التي ترفعه نحو اللّه، مناضلاً ونصف قدّيس معاً، وأخيراً نراه عجوزاً قنوعاً هادئاً حمل السكينة إلى نفسه بنفسه... نراه مختلفاً أبداً، ولكن الإنسان نفسه دوماً بالرغم من ذلك، فكأنّه نوع من الصورة السينمائية التي تجري باستمرار وتتطور دون أدنى علاقة برسم شمسي وحيد جامد...

إلّا أنّه يجب أن نضيف إلى هذه السلسلة من الصور التي لا تمتاز إلّا بالمرونة والتي هي مؤلفات الشاعر، المكمّل العظيم لأفكاره الذي كتبه المفكّر عن نفسه، «المذكرات» والرسائل التي ترافق ـ يوماً فيوماً وساعة بعد ساعة ـ فكره اليقظ حتى ساعة وفاته؛ بحيث لا نكاد نجد في هذا الكون الفكري المتعدد الوجوه كثيراً، موضعاً واحداً فارغاً لم يطرق، أرضاً مجهولة لم يستكشفها الفكر ويعرف خفاياها. إنّ سائر القضايا الاجتماعية والعائلية، الشعرية والأدبيّة، الزمنية والميتافيزيقية، قد نوقشت ههنا وبُحثت... إنّنا لم نرَ أبداً، منذ جوته، الوظيفة الفكرية والأخلاقية لشاعرٍ أرضيٍّ وقد تحقّقت على خير وجهٍ وبصورةٍ مطلقةٍ تماماً. وكما أنّ تولستوي يمثّل، بصور مثلى، في هذه الحياة غير العادية، في

(1) روائي سويسري ساخر الأسلوب (1820 ـ 1881).

(2) شاوول هو اسم بولس الرسول قبل اعتناقه المسيحية.

هذه الإنسانية فوق الإنسانية في الظاهر ـ مثل جوته تماماً ـ الإنسان الطبيعي والصحيح، الإنسان المتوازن تماماً، والمجرّد عن كلّ ما هو خيالي أو مرضي، النموذج الكامل للجنس، رمز التوازن الأخلاقي والجسدي، الأنا الأبدية والنحنُ الشاملة في نفس واحدة وفي كلّ لحظة من لحظات الزمان، فإنّنا نجد مرة أخرى ـ كما عند جوته ـ في وجوده الذي أصبح وثائقياً حتّى هذه الدرجة البعيدة، مختصراً للإنسانية نفسها وصورة مصغّرة عنها...

# الأزمة والتحوّل

**«إنّ أهمّ حدثٍ في حياة الإنسان هو اللحظة التي يعي فيها أناه... وإنّ نتائج هذه المحادثة قد تكون جيدة للغاية، أو قد تكون رهيبة حتى الدرجة القصوى أيضاً».**

**نوفمبر 1898**

في مضمار الخلق الفكري يصبح كلّ خطر نعمة وفضلاً عميمين، وتصبح كلّ عائقة عوناً ومحرّضاً نافعين؛ لأنّ المبدع يجد فيهما وسيلة لإطلاق قوى مجهولة وتجديدها باستمرار... وإذا كان مقدّراً لوجودٍ ما أن يؤثر في الكون، فيجب ألا يأسن هذا الوجود في الجمود ويركد؛ لأنّ قوّة الفكر ـ مثلها مثل كلّ قوّةٍ حكمية ـ إنّما تولد من الحركة والتبدّل الدائمين، وليس أخطر على الشاعر من الاكتفاء، والقناعة، والعمل الميكانيكي، والطريق اليسيرة الخالية من الصعوبات.

وإنّ تولستوي لم يعرف إلّا مرة واحدة فقط هذا الفتور الذي ينسى فيه أناه، هذه السعادة التي يتمتع بها الكائن الإنساني ويهنأ، هذا الخطر الذي يتعرض الفنّان إليه ويسقط في شباكه... إنّ روحه، المتمرّدة دون انقطاع، غير الراضية أبداً، لم تمنح نفسها الراحة في ذلك الحج الطويل الذي سيقوده نحو أناه إلّا مرة واحدة، طوال فترة لا تزيد عن ستّة عشر عاماً من وجود استمرّ ثلاثة وثمانين حولاً مديداً... إنّ تولستوي لم يعش في سلام مع نفسه وفي أحضان عمله إلّا خلال تلك الفترة من الزمن التي تفصل بين زواجه وبين الانتهاء من روايتيه:

«الحرب والسلم» و«آنا كارنينا»... وإن «المذكرات» ـ هذه الحارسة لوجدانه ـ لتصمت بدورها أيضاً طوال ثلاث عشرة سنة (1865 ـ 1878) دون انقطاع... إنّ تولستوي، سابحاً في سعادته، مستسلماً إلى تيار العمل الذي يُنجزه، لم يعد يراقب نفسه البتّة، بل لا يفعل سوى مراقبة العالم وحده... إنّه لا يطرح المشاكل ويطلب لها الحلول؛ لأنّه مشغول بالخلق منهمك في لجّته، خلق سبعة أولاد بالإضافة إلى مؤلّفيه الملحميين الأكثر قوّة وعظمة... في تلك الأثناء، وفي تلك الأثناء وحدها، عاش تولستوي مثل سائر البشر مجرّداً عن سائر الهموم، رابضاً في أنانيته العائلية البورجوازيّة المتكبّرة، سعيداً، راضياً، مبتهجاً؛ لأنّه قد تحرّر من «السؤال الرهيب عن سبب الأشياء»... «إنّي لم أعد أتأمّل في حالي مطلقاً، لقد انقضى كلّ تأمل وخلا زمانه، ولم أعد أفتش أبداً عمّا يكمن في أعماق انطباعاتي المختلفة. إنّي لا أفعل سوى الإحساس، دون التفكير، في علاقاتي مع عائلتي؛ فتوفّر لي هذه الحال حرية فكرية كبيرة للغاية».

إنّ السير المنتظم للإنضاج الفني لا يتعرقل أبداً بدراسة الأنا النقدية... والحارس القاسي، المتيقّظ أبداً، المنتصب في جبروت أمام الشخصية الأخلاقية، يبتعد وهو يغفو، تاركاً للفنان حرية حركاته، موفّراً له انطلاق حواسّه التام... وتأتيه الشهرة في تلك السنوات، فيضاعف ثروته أربع مرات، ويربّي أولاده وينشئهم، ويزيد في اتّساع بيته. ولكن الاكتفاء بالسعادة، والاغتذاء بالمجد، والشبع بالخيرات، جميعها أمور يستحيل استمرارها بالنسبة إلى هذا الجنّي الأخلاقي، فهو يعود في كلّ مرة، بعد كلّ خلق شخصية أدبية، إلى عمله الأساسي، إلى إنضاج كماله الخاص، فيذهب من تلقاء نفسه لمواجهة الضرورة؛ عندما لا يهتف أيّ إلهٍ بصوتها في أذنيه... وإنّه ليخلق مأساته في نفسه ما دامت أنفاس القضاء لا تأتيه من أيّ حادثٍ خارجي؛ ذلك أنّ الحياة (وبالأحرى إذن حياة تصخب بكل هذا العنف!) تريد دوماً أن تظل في حالة دائبة مستمرّة من التأرجح والاهتزاز، فإذا ما توقفت

أمواج القضاء عن التلاحق من جانب العالم؛ فإنّ الفكر يحفر في باطنه ينبوعاً جديداً متدفقاً حتى لا تنضب أبداً حركة الوجود الدائرية غير المنقطعة.

إنّ ما يحسّه تولستوي عند اقتراب سنته الخمسين، وما يُدهش معاصريه ويُذهلهم بصورة لا تجد لها تفسيراً مطلقاً، ألا وهو ابتعاده المفاجئ عن الفن، واتجاهه نحو الأمور الدينية، يجب ألا يُعتبر أبداً حادثاً فوق عادي وغير طبيعي... إنّنا نبحث عبثاً عن الشذوذ في تطوّر هذا الإنسان السليم بصورة مثلى. غير العادي عند تولستوي إن هو ـ بكل بساطة ـ إلّا عنف الانطباعات التي يحسّها والتي تترك فيه أثراً عميقاً غير مألوف... وفي الحقيقة إنّ التحوّل الذي يخضع تولستوي له في السنة الخمسين من حياته ليس أكثر من تظاهر واقع يظل خفيّاً غير منظور عند معظم الناس؛ لأنّ شدّته ليست متساوية دوماً، بل تزيد أو تنقص حسب الأفراد... إنّه التكيّف المحتوم للعضوية الفكرية والحكمية مع الشيخوخة المقتربة، إنّها «سنة الفنان الحرجة» بكل بساطة.

«إنّ الحياة تتوقف وتصبح مُحزنة كئيبة»، هكذا يعبّر هو نفسه عن بدء أزمته النفسانيّة العنيفة. إنّ هذا الخمسينيّ قد بلغ من تطوّره الناقد النقطة الميتة، حيث تبدأ مرونة البلازما بالتناقص، وحيث تهدّد النفس بالجمود والتصلّب... فالحواس لا تنفذ بعد الآن بذات القوّة التي كانت تنفذ بها قبلاً في الكتلة الرخوة للخلية المبدعة، ولون الانطباعات يشحب، مثلما يشحب لون الشعر الذي يشيب شيئاً فشيئاً... إنّه بِدء تلك المرحلة الثانية التي عرّفنا جوته عليها أيضاً، المرحلة التي يتسامى فيها لعب الحواس المليئة بالحرارة إلى نوع من المعصرة الباردة حيث تنضج مقولة المفاهيم الشفّافة وتكتمل... إنّ الجوهر يصبح حادثاً خارجياً، والصورة تصير رمزاً، وموهبة الخلق الملوّن تفسح المجال لتصنيف الأفكار المتبلورة... وإنّ هذا الظهور لإنسان جديد يعبّد الطريق ههنا أيضاً، مثله مثل كلّ تحوّل عميق للفكر، لضيق حكمي خفيف الوطأة... للشعور المُضِب باقتراب

شيء غريب ما برح مجهولاً بعد لم تسبر المعرفة أغواره... إنّ قلقاً فكرياً بارداً، وخشية رهيبة من الإفلاس الذي قد يحدث؛ يرسلان القشعريرة بصورة مفاجئة في النفس المذعورة، فإذا الجسد ذو الأعصاب الرقيقة جداً يسجل في التوّ واللحظة ذلك التزعزع الذي يقترب، (أمراض جوته الصوفية، لدى كلّ من تبدّلاته).

ولكن، ونحن ههنا نتوغّل في ميدان يكاد استكشافه أن يكون معدوماً بعد حتى الآن، بينا النفس عاجزة بعد عن تعليل هذا الهجوم القادم من الظلمة الحالكة؛ فهي ترتجف فرقاً لشعورها المذعور بخطرٍ عتيدٍ عصيٍّ على الإدراك، يكون الدفاع أثناء ذلك قد بدأ سلفاً في العضوية بصورة عفوية، تحت شكل ارتكاس نفساني حكمي، دون تدخّل ذكاء الإنسان أو إرادته، بل بفعل قوّة الطبيعة؛ وهي قوة لا يمكن النفوذ إليها، على التنبّؤ واختراق حجب الغيب؛ ذلك أنّ النفس البشرية، مثلها مثل الحيوانات التي تكتسي أجسادها، على حين غرّة، بفراء شتوي دافئ قبل اقتراب الصقيع بزمن طويل، ترتدي هي الأخرى، عندما تعلن الشيخوخة عن نفسها، والحياة لما تكد تتجاوز السمت بعد ثياباً واقية، ثياباً من المرتبة الفكرية، غلافاً دفاعياً ثخيناً تدرأ به عن نفسها الجمود والتصلّب زمن الانحطاط الفقير بأشعة الشمس ودفئها... إنّ هذا الارتكاس العميق الذي ينتقل من الحكمي إلى الفكري، والذي ربما كان منشؤه في خلايا الغدد الداخلية نفسها، والذي ينتشر حتى في آخر اهتزازات الإنتاج المبدع، هذه المرحلة الحرجة التي أودّ أن أسمّيها هنا ضد البلوغ، إنما تحدّدها ـ على اعتبارها تزعزعاً أخلاقياً ـ الحالة الدموية الراهنة؛ فهي تبدو لنا تحت شكل الأزمة، تماماً مثل البلوغ نفسه، وإن يكن ذلك حادثاً (لكم يا علماء النفس والنفس المرضي!) لم تكد تبدأ بعد دراسته في تظاهراته الجسدية، وأقل من ذلك أيضاً مراقبته في تظاهراته الفكرية.

ولقد أمكن عند النساء بصورة خاصة، حيث سنّ اليأس يتظاهر بصورة أكثر فظاظة وأوضح أعراضاً، تحت أشكال محسوسة تقريباً، أن تجمع بعض الملاحظات

المختلفة... ولكن هذه الحادثة نفسها التي تتظاهر عند الرجل بأعراض فكرية في الدرجة الأولى لم تنل بعد نصيبها من الدراسة، فهي ما برحت تنتظر، بنتائجها الأخلاقية العديدة، أن ينيرها ضياء العلم النفساني ويكشف عن خفاياها... ذلك أنّ السنة الحرجة هي بالنسبة إلى الرجل، في كلّ الأحوال تقريباً، المرحلة الملائمة للإيمان العظيم، للسمو الشعري أو الفكري، لكل الأشياء التي تصبح ثوباً واقياً للكائن الذي يضعف دمه، أو رِدفاً فكرياً لانهيار الحواس وتزعزعها، أو تعاظماً في وعي الكون يعدل فقر الشعور بالأنا ونقص كمون الحياة، ويعوّض عنهما.

إنّ هذه السنة الحرجة، وهي التي تُكمل البلوغ بصورة مطلقة، ولا تقلّ خطراً عن هذا البلوغ بالنسبة إلى الذين يتحلّون بقوّة الإنتاج، تؤهّب هكذا لمرحلة خلّاقة فكرياً، مرحلة تختلف لوناً عمّا سبقها من المراحل، تؤهّب لاستعادة فعّالية الفكر بين سمته ونظيره... إنّنا نجد هذه اللحظة المحتومة من الأزمة عند كلّ فنّان يملك بعض الأهمية، ولكننا لا نجدها عند أيٍّ منهم بمثل هذا العنف وهذه القوّة، تقلب التربة عاليها سافلها، بركانية حتى لتكاد أن تكون مدمّرة، كما هي حالها عند تولستوي. ليس من إنسان قد عبّر بمثل موضوعية هذا الفنّان، الحيوي والطبيعي بصورة مطلقة، عن القلق الذي يستشعره الإنسان تجاه الضعف الذي ينال الحياة، وذعره الشديد عندما يحسّ قوّته الخلّاقة تتناقص... وما السبب في ذلك إلّا أنّ تولستوي قد عاش، حتّى ذلك الحين في جوٍّ من عدم الاكتراث، خالياً من كلّ الهموم، متمتعاً بازدهار حواسّه، مديناً بإبداعاته الى كمال قوّته وفيضها فقط؛ فهو إذن يرى في أقلّ إنقاصٍ لهذه القوّة ما يشبه الكارثة الساحقة القاضية، بل ما يشبه الفناء والانعدام.

والحقيقة أنّ ما حدث لتولستوي في سنته الخمسين ـ من وجهة نظر إيجابية، وجهة نظر موضوعيّة بسيطة ـ هو أمر طبيعي حتى الحدّ الأقصى... إنّه يشعر بنفسه يشيخ فقط، وهذا كلّ شيء... لقد سقطت بعض أضراسه، وأظلمت ذاكرته

نوعاً ما، وأضحى فكره يحسّ الإعياء في بعض الأحايين، وذلك في الحقيقة حدث يومي بالنسبة إلى كلّ من بلغ الخمسين من العمر... ولكن تولستوي، هذا الرجل الذي يطفح قوّة، هذه الطبيعة التي تتدفق أبداً هدّارة ثريّة خصبة، يحسّ نفسه منذ هذه النسمة الخريفية الأولى، وقد ذبل وأشرف على الموت... إنّه يعتقد: «أنّ المرء لا يستطيع الحياة عندما لا يكون نشوان بالحياة»... إنّ إعياءً منشؤه الوهن العصبي، ضيْقاً مجبولاً من القلق والبلبلة الفكرية، يستولي على هذا الرجل ذي الصحّة فوق العادية، منذ ظهور العلامات الأولى للبرودة والضعف الحيوي... وما أسرع ما يلقي السلاح ويستسلم...

إنّه لا يستطيع أن ينام، كما لا يستطيع أن يفكّر: «إنّ فكري مستغرق في النوم، ولا يستطيع أن يفيق أبداً، وأنا لست في حال جيدة، تنقصني الجرأة والشجاعة معاً»... ويجر حتّى النهاية، أشبه بسلسلة ثقيلة: «آنا كارنينا المضجرة التفهة»... وهذا شعره يشيب بغتة، وهذه الغضون تمزّق جبينه، وهذه معدته تتمرّد، وهذه مفاصله تصبح أكثر ضعفاً ووهناً...

إنه غارق في بلادة كئيبة، يقول: «إنّ شيئاً لم يعد يفرحه، وإنّه لم يعد ينتظر من الحياة شيئاً، وإنّه سيموت عمّا قريب!»... «إنّه يحنّ بكل قواه إلى مغادرة الحياة»، و«المذكرات» تسجّل هاتين الملاحظتين الحازمتين، الواحدة تلو الأخرى: «الخوف من الموت» أوّلاً، ومن ثمّ، بعد أيام قليلة: «لسوف أموت وحيداً!» (بالفرنسية في النص التولستوي)... ولكن الموت يعني بالنسبة إلى عملاق الحياة هذا، كما جربت أن أشرح ذلك في عرض حيويته، أكثر الأفكار هولاً... ولذا فإنّه يرتعش بكل كينونته، منذ اللحظة التي يبدو له فيها أنّ بعض عرى شبكة قوّته الجبارة الوطيدة قد أخذت ترتخي وتنحلّ شيئاً فشيئاً...

ولكن هذا المشخِّص العبقري لأناه لا يخطئ كلّ الخطأ عندما يشم أنفه رائحة نهاية تقترب؛ لأنّ شيئاً ما من تولستوي البدائي يموت في واقع الأمر،

يموت إلى الأبد في تلك الأزمة، وهذا الشيء ليس بالرجل الطافح قوّة، بل هو بالأحرى الفنان الحر اللامبالي الذي كان يقبل العالم كأُعطية موضوعية لا تتبدّل، واقعية مثل جسده الخاص تماماً، وملك له مثل جسده أيضاً... إنّ تولستوي لم يسأل العالم حتى الآن عن معناه الميتافيزيقي، بل اكتفى بتأمّله فقط، مثلما يتأمّل الفنان النموذج الذي ينقل عنه، وترك الحوادث تأتي إليه، وفي قلبه الطفل يزدهر، ذلك الفرح الذي يمنحه الطبيعي من الأمور... إنّ هذه الحوادث قد انتصبت دوماً أمامه عندما كان يرسم صورتها، ولم تجابه مداعباته وعناق يديه الخلّاقتين بأيّة صعوبة أو مضايقة أو عناء...

إنّ هذا التأمّل الموضوعي والفنّي الخالص، هذه الطريقة في رؤية الحياة، في سبيل إعادة تمثيلها بكل بساطة، يصبحان بغتةً مستحيلين على الفكر المُحمّل بالريبة والشكوك... إنّ الجماعية الساذجة قد تحطّمت، وبين الكون والأنا قد فتحت على حين غرّة هاوية سحيقة تسيطر فيها البرودة والعفونة جميعاً... إنّ الأشياء لا تتقدم إلى تولستوي بعد الآن بالألفة نفسها، ولا تستسلم له بكلّيتها... بل هو يشعر بأنّها تخفي عنه جانباً منها، عطفاً من أعطافها، ظلّاً من ظلالها، تخفي عنه ما لا يدري أيّ شيء قاتم، محفوف بالأخطار، فائق للوصف لا يخضع له... هذا أكثر الناس بصيرة يكتشف للمرة الأولى وجود لغز في الحياة، ويرتاب في أنّ للحياة معنى لا يستطيع أن يمسك به بالحواس المادية البسيطة... هذا تولستوي يُدرك للمرة الأولى أنّه في حاجة إلى آلة جديدة أكثر معرفة وأعمق علماً، إلى عين أكثر وعياً، إلى عين المفكر الثاقبة، إذا أراد أن يفهم كلّ ما في تلك الأعماق المظلمة ويسبر غورها... وتتخذ سائر الفرديات لوناً آخر، أو بالأحرى إنّه لم يعد هناك فرديات، لم يعد هناك أشياء تقوم في عزلة وانفراد عن بعضها البعض... إنّ كلّ شيء يتضمّن علاقة خفيّة غامضة مع جماعية لا تفتأ مجهولة بالنسبة إليه، فهو مضطر ـ بالرغم منه ـ أن يبحث بعد الآن في كلّ حادثة عن

معناها الأخلاقي، وأن يرى في أغرب الأشياء حضور مصير خاص وارتباطه. وإنّ بعض الأمثلة لتوضح هذا التحوّل والدوران الباطنيين بصورة أكثر جلاءً وبيّنة... إنّ تولستوي قد شاهد الناس يحتضرون ويموتون مائة مرة في الحروب التي اشترك فيها، فصوّر نهايتهم الدامية ـ دون أن يسأل نفسه إن كان يحقّ قتلهم أم لا ـ كفنان وكشاعر، بألاعيب الحدقة وحدها، باعتبارها شبكية حسّاسة على مظاهر الأشكال وظواهرها المختلفة... وهذا هو الآن يرى في فرنسا رأس مجرم يتدحرج على ألواح المقصلة، فإذا قوّة أخلاقية تتمرد فيه على الإنسانية بأسرها. لقد مرّ ـ هو السيّد، الإقطاعي، الكونت ـ ألف مرة إلى جانب فلّاحيه على متن جواده، متقبّلاً في لامبالاة تحية عبيده المتواضعة كشيء طبيعي مفروغ منه، بينا خبب الحيوان يغمر ثيابهم بغبار الطريق، وهذا هو الآن يلاحظ للمرة الأولى أنهم يسيرون حُفاة، وأنهم فقراء معدمون، وأنهم يعيشون وجوداً مذعوراً، مجرّداً عن سائر الحقوق، فيطرح على نفسه للمرة الأولى هذا السؤال المقلق: هل يحق له أن يكون عديم المبالاة تجاه فقرهم وبؤسهم؟ إنّ عربته قد مرّت في موسكو ما لا يُحصى من المرات إلى جانب المُستعطِين المتجمّدين من البرد دون أن يدير رأسه نحوهم أو يلقي انتباهاً إلى وجودهم... فالفقر، والبؤس، والاضطهاد، والدولة العسكرية، والسجون، وسيبيريا، سائر هذه الأشياء كانت بالنسبة إليه أموراً طبيعية، مثل الثلج في الشتاء، ومثل الماء في البرك والبراميل؛ وهذا هو الآن، أثناء أحد الإحصاءات، وقد استيقظ فكره على حين غرّة؛ كي يرى في حال البروليتاريا المخوفة اتهاماً ضد نعيمه الفائض.

حين لم يعد البشر بالنسبة إليه مواد بسيطة لا يفعل إلّا دراستها ومراقبتها، بل أصبح يسمع نداءهم الذي يخلق له إلزامات أخوية ويفرضها عليه، حين تلقّى ذلك الإنذار من الموت الذي أفهمه أنّه مرتبط هو نفسه بمصير باقي الناس جميعاً؛ ذلك المصير الذي يخيّم شبح المنيّة فوقه ويظلّله؛ منذ ذلك الحين انهار

نظام الوجود الهادئ والخيالي على نفسه بعد أن زعزعه زلزال الوجدان ودمّر أُسسه... لم يعد باستطاعته بعد الآن أن يتأمّل الحياة بعيني الفنان الباردتين، بل هو مجبر على التساؤل أبداً دون كلل عن معنى كلّ حادثة، وعن عبثها، وعن شرعيّتها على حدٍّ سواء... إنّه يحسّ كلّ ما هو إنساني ليس بالنسبة إلى أناه، بعد أن يجعل من نفسه مركز كلّ شيء، ليس بقلب كلّ الكون الخارجي إلى باطنه، بل اجتماعياً، أخوياً، بقلب باطنه إلى الكون المحيط به... إنّ وعي اشتراكه مع الجميع ومع كلّ واحد قد «فاجأه»، مثل داء وبيل، فراح يتنهّد: «يجب ألّا نفكر، ذلك مؤلم للغاية!»... ولكن منذ أن فتحت عين الضمير فيه، أصبح عذاب الإنسانية، ألم الإنسانية الأساسي، أكثر شؤونه شخصية بعد الآن، وبصورة دائمة لا مردّ لها البتّة... وإنّ الرعب الصوفي من العدم هو بالضبط ما يبعث فيه مراقباً جديداً للوجود، مبدعاً جديداً لم يكن فيه من قبل... إنّ الفنان لا يأخذ على نفسه عبء بناءٍ كوّنه مرة جديدة إلّا في الإنكار التام لأناه؛ فهو يبنيه، ذلك الكون، حسب القانون الأخلاقي هذه المرة، ومعجزة الولادة الجديدة تتحقق حيث كان يعتقد أنّ الموت يسيطر ويتحكّم دون مردٍّ لقضائه... وهذا هو تولستوي الجديد يولد إلى الوجود، ليس تولستوي الذي تُجلّه الإنسانية كفنان، بل أيضاً ذلك الذي تُجلّه على اعتباره أكثر البشر إنسانية على الإطلاق...

ولكن الكاتب، المذهول من هول المفاجأة، لا يحسب بعد، في تلك الساعة المرهقة من الانهيار، تلك اللحظة المتقلقلة التي تسبق «اليقظة» (كما سيصف تولستوي ـ فيما بعد ـ وقد استعاد هدوءه، ذلك القلق الذي اجتاحه)، لا يحسب بعد إذن أنّ ذلك الانقلاب يشكّل انتقالاً من حالٍ إلى حال... إنّه يحسن نفسه وقد عمي تماماً، قبل أن تفتح في باطنه تلك العين كلّية الجدّة والاختلاف، التي هي عين الوجدان، ولا يجد حوله إلّا الفوضى، وإلّا الليل المجرّد عن كلّ درب يستطيع المرء أن يسلكها... إنّ كونه قد انهار وتحطّم!... وهو ينظر حواليه في بلاهة،

والفرق يكاد أن يكتم أنفاسه، إلى الظلمة الدامسة حيث لا يكتشف أيّ معنى على الإطلاق... ويتساءل، وهو يطرح على نفسه سؤال «الجامعة»[1] الأبدي: «لِمَ العيش إذن، إذا كانت الحياة رهيبة حتى هذه الدرجة؟»... لِمَ العناء، إذا كان المرء لا يفعل إلّا حراثة حقله من أجل الموت؟... ويروح يتلمّس، كاليائس، جدران هذا الكهف القاتم الذي هو الكون؛ كي يجد منفذاً له في مكانٍ ما، وسيلة يخلص نفسه بها، شرارة من الضياء، أو وميضاً نجمياً يبعث الرجاء في قلبه... وعندما يرى أنّ إنساناً لا يحمل له من الخارج الخلاص والنور، يشرع يحفر لنفسه نفقاً، بصورة منهجية عنيدة، درجة فدرجة، دون تعب أو كلل... وفي عام 1879 يسجّل على قطعة من الورق الأسئلة المجهولة الآتية:

أ ـ لِمَ الحياة؟

ب ـ ما هو سبب وجودي ووجود الآخرين؟

جـ ـ ما هو هدف حياتي وحياة الآخرين؟

د ـ ما معنى هذه الثنائية من الخير والشر التي أحسّها في نفسي، ولِمَ هي موجودة هناك؟

هـ ـ كيف يجب أن أعيش؟

و ـ ما هو الموت؟ كيف يمكنني الخلاص؟

«كيف يمكنني الخلاص؟ كيف يجب أن أعيش؟»؛ تلك هي الصيحة المخوفة التي يطلقها تولستوي، تنتزعها أظافر الأزمة من قلبه الخافق... ولسوف تتردد هذه الصيحة من الآن فصاعداً طوال ثلاثين عاماً، حتّى تتراخى شفتاه وتصمتان نهائياً... رسالة السعادة الآتية من الحواس، إنّه لا يؤمن بها بعد الآن!... والفن لا يعزّي، وعدم الاكتراث قد تلاشى، ونشوة الشباب الحارة قد تبعثرت بصورة قاسية...

---

(1) أحد كتب التوراة المنسوبة إلى الملك داود.

ومن كلّ حدب وصوب تنتشر برودة جليدية مبعثها أعماق العدم، مسكن الموت الخفي، هذا الموت يحوم حول الحياة ويتلصّص... كيف يمكنني الخلاص؟ هذه الصيحة تزداد حميّة باستمرار؛ لأنّه لا يمكن أنّ هذا الكون الخالي من المعنى ظاهراً، لا يملك ذلك المعنى حقّاً وفعلاً، معنى يستحيل في الحقيقة الإمساك به باليدين، بَلْهَ بالعينين، وحسابه بالعلم الإنساني كأيّة عملية حسابية أخرى... إنّه معنى يقوم فوق سائر الحقائق على الإطلاق... ذلك أنّ العقل وحده يكفي كي يفهمنا الحياة فقط، أمّا الموت فلا يستطيع أن يكشف لنا شيئاً من غوامضه وأسراره... ولذا فالحاجة تمس ـ كما سيتحقق من هذا الأمر ذلك الذي كان حتى اليوم عدمياً ـ إلى موهبة جديدة روحانية، كلّية الاختلاف؛ كي تمسك بما يمتنع عن الإمساك، وتطبق على ما يفلت من قبضة الإنسان... وما دام تولستوي لا يجد هذه الموهبة في نفسه، فإنّ هذا الملحد الذي هو رجل الحواس في الدرجة الأولى، هذا الكائن الذي لم يُروّض قط، والذي يمزّقه الرعب الآن ويذيبه الخوف في قلب الحياة، وهو في منتصف الطريق بعد، يرتمي بكل تواضع، على حين غرة، أمام اللّه، ويخلع عنه في ازدراء علمه الدنس الذي أسعده دون حساب طوال خمسين عاماً، ويروح يترجّى، جامحاً، انبثاق إيمان في باطنه: «أعطنيه يا رب، واسمح لي أن أساعد الآخرين في العثور عليه»!...

# المسيحي المصطنع

**«يا إلهي، ما أصعب ألّا يعيش المرء إلّا أمام اللّه، أن يعيش كما عاش أُناس كانوا مدفونين في قبوٍ مظلم، عارفين أنّهم لن يخرجوا من هناك قط، وأنّ إنساناً لن يدري قط كيف عاشوا! وبالرغم من ذلك يجب أن يعيش المرء هكذا؛ لأنّ مثل هذه الحياة هي وحدها الحياة... يا رب مدّ لي يد المعونة».**

**«المذكرات»**
**نوفمبر 1900**

«يا رب، أعطني إيماناً»... هكذا يهتف تولستوي في يأس عميق، وهو يتوجّه إلى اللّه الذي أنكره حتى ذلك الحين في عناد شديد. ولكن يبدو أنّ اللّه لا يعطي نفسه لأولئك الذين يطلبونه في كثير من الحميّة، بدلاً من أن ينتظروا في تواضع أن تنكشف إرادته لهم... ذلك أن تولستوي يحمل حتى في الإيمان تلك الحدّة العنيفة التي تشكّل عيبه الأساسي، فلا يكفيه أن يطلب إيماناً يعتنقه، كلّا، بل يجب أن يُمنح هذا الإيمان في التو واللحظة، في ليلة واحدة، وأن يكون هذا الإيمان مستعدّاً دوماً وممتثلاً كالفأس كي ينظف غابة شكوكه العذراء ويطهّرها؛ لأنّ هذا السيد النبيل قد اعتاد أن تُنفّذ أوامره بسرعة من قِبل خدمه، وتحمل إلى حيّز الإنجاز دون إبطاء، كما أنّ الحواس، من جهة أخرى، قد أفسدته بالاشتراك مع عينيه النافذتين وأُذنيه الحسّاستين الحادّتين،

وجميعها تنقل إليه ـ في مثل لمح البصر ـ كل علم هذا العالم ومعرفته. إنّه لا يريد أن ينتظر مثل الراهب الناسك الذي يظل، في عناد، مستغرقاً في التأمّل كي يرى أخيراً النور العلي يتسرّب إليه شيئاً فشيئاً... كلّا، بل هو يريد أن يعود وضح النهار فيشرق حالاً في نفسه التي أظلمت واجتاحتها العتمة... إنّ فكره الجموح الذي يتحدّى سائر العراقيل يريد، بقفزة واحدة، بانطلاق وحيد، أن يبلغ إلى «معنى الحياة» وينفذ إليه، أن «يعرف اللّه»، أن «يفكر باللّه»، كما وجد الجرأة كي يكتب في شيء من الكفر تقريباً. إنّ الإيمان، والسكن في اللّه، والطريقة التي يصبح بها مسيحياً حقاً ويصير إنساناً متواضعاً طيب القلب، كل هذه أمور يرجو أن يتعلمها بنفس السهولة، وبذات السرعة التي يتعلم بهما حالياً، بالرغم من بلوغه السن التي يشيب الشعر فيها، اللغتين اليونانية والعبرانية... لقد أصبح، على حين غرة، مربياً، ولاهوتياً، وعالماً في الاجتماع، في فترة لا تزيد عن ستة أشهر أو سنة سريعة على أكثر تعديل! ولكن أين يجد المرء ـ على هذه الصورة المفاجئة ـ إيماناً حاضراً بينا نفسه خالية من بذور أيّ ميل، مهما يكن ضئيلاً، إلى الإيمان؟... كيف يمكن أن يصبح، في ليلة واحدة، رحوماً، محبّاً، طيّباً متواضعاً، فرنسسكاني العذوبة، بينا هو لم يدِنِ العالم، طوال خمسين عاماً، إلّا بعين المراقب الدقيق التي لا ترحم، ولم يرَ إليه إلّا بروح العدمي الواعي والقاسي حتى الدرجة القصوى، ولم يجد فيه شيئاً هامّاً جوهرياً إلّا نفسه وحدها؟ كيف يحيل بإشارة واحدة من يده، تلك الإرادة القاسية كالحجر، حبّاً بالناس رفيقاً عذباً؟ أين يتعلّم، أين يكتشف الإيمان؛ هذا الاستسلام بكل كينونته إلى قوّة عليا تسيطر على الكون وتتحكّم فيه؟ ويقول تولستوي في نفسه إنّه سيجده بكل تأكيد عند أولئك الذين يؤمنون، أو يدّعون الإيمان على الأقل، عند الأم الأرثوذكسية، الكنيسة التي تحفظ منذ ألفين من الأعوام خاتم المسيح، وما أسرع ما يجثو ليون تولستوي (لأنّه لا يمنح نفسه،

هو الرجل الفارغ الصبر، لحظة واحدة من الراحة) أمام الأيقونات، ويروح يثابر على الصوم، ويحج إلى الأديرة، ويتناقش مع الأساقفة والكهنة، ويلتهم الإنجيل ورقة فورقة دون كللٍ أو هوادة...

ويحاول، طوال ثلاثة أعوام، أن يكون مؤمناً بكل معنى الكلمة... ولكنّ جوّ الكنيسة لا يفعل إلّا نفخ البخور عبثاً في نفسه المتجلّدة سلفاً، نفسه التي تجتاحها الآن ـ أيضاً ـ قشعريرة باردة قارسة... وسرعان ما يغلق الباب إلى الأبد، وقد تبدّدت أوهامه، بينه وبين العقيدة الأرثوذكسية. كلّا، إنّ الكنيسة لا تملك الإيمان الحقيقي ـ إنّه يعترف بذلك ـ أو بالأحرى إنها قد بدّدت مياه الحياة وزوّرتها، وتركت ينبوعها الخفّاق ينضب ويجف...

ولذا فهو يفتش أبعد من ذلك... لعلّ الفلاسفة، أسياد الفكر، يعرفون بصورة أفضل «معنى الحياة» الرهيب؟ وما أسرع ما يأخذ تولستوي، هو الذي جهل دماغه كل ما لا يقع في نطاق الحواس، يقرأ في حمّى، بل في جنون إن صحّ التعبير، فلاسفة سائر العصور في فوضى ودون أدنى نظام أو ترتيب (وبسرعة عظيمة جداً أيضاً لا يمكن أن تسمح له بتمثّلهم وفهمهم)، شوبنهاور في البدء، هذا الرفيق الأبدي لكل نفس كئيبة، ومن ثمّ يتمثّل سقراط وأفلاطون، ومحمداً وكونفوشيوس، ولاوتسي، والصوفيين، والرواقيين، والمشككين، ونيتشه... ولكنه سرعان ما يغلق الكتب ويرميها جانباً... هؤلاء أيضاً لا يعرفون وسيلة لرؤية هذا العالم غير التي يعرفها هو نفسه، هذا الذكاء فوق الحاد الذي يتأمّل الأشياء في ألمٍ شديد. إنهم، هم أيضاً، يسألون أكثر ممّا يعرفون، وهم أيضاً لا يعبّرون إلّا عن فراغ صبرهم في سبيل معرفة اللّه، ولكنهم لا يعرفون الراحة في اللّه أبداً... إنهم يبدعون جملاً فلسفية للفكر، ولكن لا يخلقون سلاماً للنفس التي تظل قلقة دوماً... إنهم يعطون معرفة، ولكنهم لا يعطون عزاءً...

ومثله مثل مريض قد وقع فريسة العذابات ولم يفده العلم شيئاً... فهو

يذهب بأدوائه إلى أدوية امرأة عجوز أو إلى حمامات القرية، هكذا يذهب تولستوي، أعظم مفكر في الأرض الروسية، وهو في الخمسين من عمره، نحو الفلاحين، نحو «الشعب»؛ كي يتعلم أخيراً منهم، هم الأُميّون، الإيمان الحقيقي، كي يتعلم الحكمة من الجاهلين... بلى، إن هؤلاء الأُميّين الذين لم تفسدهم الكتابات، هؤلاء المساكين والمعذبين في الأرض الذين يشقون في العمل دون شكوى، والذين يرقدون في إحدى الزوايا خرسان صامتين أشبه بالحيوانات عندما يتصاعد الموت من كينونتهم، هؤلاء الذين لا يشكون أبداً؛ لأنهم لا يفكرون البتّة، هؤلاء الذين هم القداسة الساذجة، لا بدّ أنهم يملكون سرّاً ما في قلوبهم، وإلا لما استطاعوا أن يحنوا هكذا جبينهم، في استسلام ودون تردد، تحت النير الحديدي الذي يرهقهم البؤس به، لا بدّ أنهم يعرفون في سذاجتهم ما تجهله الحكمة العظيمة ويعمى عنه الفكر النافذ، ما يجعلهم يتقدمون علينا في قضايا النفس، هم الذين يتأخر ذكاؤهم كثيراً عنّا... «إنّ أسلوبنا في الحياة خاطئ، أمّا أسلوبهم فصحيح»... ولذا فإنّ اللّه يكشف عن نفسه بصورة مرئية في وجودهم الصبور، بينا الفكر المتعطش إلى العلم يبعدنا «بشرهه الباطل الشهواني» عن ينبوع الضياء الحقيقي، الضياء الذي يأتي من القلب ويتدفق منه... لو لم يكن في حوزتهم العزاء، لو لم يكوّنوا عشباً سحرياً وخلاصياً في نفوسهم؛ لما استطاعوا أن يتحمّلوا بكل هذا الهدوء، وهذه اللامبالاة، وهذا المرح، حياة بائسة كحياتهم... لا بدّ إذن أنهم يخبئون في أعماقهم إيماناً غير منظور، شيئاً ما يرفعهم فوق جاذبية وجودهم الثقيلة كالرصاص، بحيث إن تولستوي ـ هو المفكر ذو المزاج الجموح ـ يجد نفسه وقد تملّكته رغبة فارغة الصبر في اغتصاب السر منهم... لا يمكن إلّا بواسطتهم، وبواسطتهم وحدهم، هم «شعب اللّه» (كما يسعى تولستوي إلى إقناع نفسه)، لا يمكن إلّا بواسطة البسطاء، بواسطة فقراء الفكر، بواسطة أولئك الذين يعملون بسذاجة، في تواضع خصب، أشبه بالحيوانات، لا يمكن إلّا بواسطة

هؤلاء وحدهم أن يتعلم المرء الحياة «الصالحة»، والصبر العظيم والاستسلام الساذج إلى وجودٍ قاسٍ، وإلى موت أشد قسوة أيضاً...

وبالتالي، فلنذهب باستقامة إليهم، في ملء حياتهم؛ كي نتعلّم منهم السر الإلهي! فلنترك ثياب النبل، ولنرتد قميص الموجيك! لنبتعد عن مائدة الأطعمة اللذيذة والكتب التي لا تفيد! إنّ الأعشاب البريّة ولبن الحيوانات العذب سوف تغذّي الجسد وحدها، من الآن فصاعداً، والتواضع والبساطة الساذجة سوف يغذّيان وحدهما أيضاً هذا الفكر الثاقب كفكر فوست الشهير... وهكذا فإنّ ليون نيقولايفيتش تولستوي، سيد ياسنايا بوليانا، والأكثر من ذلك المليك الفكري لملايين البشر، يأخذ المحراث بيده في السنة الخمسين من حياته، ويحمل على ظهره العريض، ظهر الدب العملاق، جرة المياه من النبع، ويحصد الحبوب بين فلاحيه بحميًا لا تعرف الكلل في العمل مطلقاً. إنّ اليد التي كتبت «آنا كارنينا» و«الحرب والسلم» تغرز الآن المخرز الوسخ في نعل الحذاء الذي اشتغله بنفسه، وتكنس أوساخ غرفته، وتخيط ثيابه الخاصة دون معونة أحد على الإطلاق.

بأقصى السرعة يجب الاقتراب، يجب الاقتراب من «الإخوة»، بأقصى السرعة يجب الاتصال الوثيق بهم... ذلك هو الشيء الرئيسي الذي يتقدم على كل شيء آخر... وهكذا فإن تولستوي يأمل، بحركة واحدة من إرادته، أن يصبح «شعباً»؛ وبالتالي أن يصير «مسيحياً حسب اللّه»... إنّه يذهب إلى القرية سعياً وراء الفلاحين نصف الأرقّاء بعد (عندما يقترب يرفعون أيديهم إلى قبعاتهم في ارتباك عظيم!)، أو يدعوهم إلى داره حيث يسيرون بأحذيتهم الثقيلة مرتبكين حيارى، على الأرض المتلألئة، وكأنهم يسيرون على الزجاج، ويتنفسون الصعداء عندما يدركون أن «السيد الإقطاعي»، «السيد اللطيف»، لا يضمر لهم أيّ سوء، ولا يضاعف مرة أخرى ـ كما كانوا يخشون ـ الضريبة التي يتناولها منهم، والعمل الذي يجبرهم عليه في أراضيه الخاصة، بل يرغب بالضبط (ما أغرب ذلك! إنهم

يهزون رؤوسهم وهم يتراشقون النظر في ضيق) في الحديث وإيّاهم عن اللّه، وعن اللّه دوماً... إنهم يتذكرون جيداً، هم فلاحو ياسنايا بوليانا الطيبون، إنه صنع لهم ذات مرة شيئاً من هذا القبيل أيضاً... كانت المدرسة هي التي تشغل باله ـ الكونت النبيل ـ في ذلك الحين، فظل طوال سنة كاملة (ثمّ أضجره ذلك) يعلّم ـ هو نفسه ـ الأولاد ويدرّسهم! ولكن ما الذي يريده الآن؟ ويصغون إليه يتحدث وفي أنفسهم ريبة؛ لأنّ هذا العدمي المتنكّر يختلط «بالشعب» كجاسوس في الحقيقة؛ كي يتعلّم منه الاستراتيجية الضرورية لحملته في سبيل الصعود إلى اللّه، كي يتعلّم سرّ التواضع واستعمال الإيمان.

ولكن هذه الاكتسابات الشاقة لا تفيد إلّا الفن والفنان وحدهما. وفي الحقيقة أن تولستوي مدينٌ بأجمل خرافاته إلى حاكين ريفيين قرويين، ففنّه يكسب بروزاً جديداً ومذاقاً رائعاً بفضل تلك الكلمات التي يزيّنها الفلاحون بكل سذاجة وبدون أيّ قصدٍ على الإطلاق... ولكن سر بساطة النفس لا يمكن أن يتلقّنه المرء أبداً. لقد قال دستويفسكي من قبل بوضوح نبوئي في الحقيقة، عندما ظهر كتاب «آنا كارنينا»، عن ليفين الذي هو صورة تولستوي نفسه: «إن أناساً على غرار ليفين قد يعيشون مع الشعب ما طاب لهم، ولكنهم لن يصبحوا شعباً قط. إن خيلاء الإرادة وقوّتها، مهما تكونان متقلبتي الأطوار، لن تكفيا كي تضمّا الرغبة في النزول حتى الشعب وتحقّقاها»... وإنّ الملهم العبقري ليس بذلك، في ملئه، المركز النفساني للتبدّل الذي طرأ على إرادة تولستوي ويكشف اللثام عند هذا الأخير، عن الغضب والإجبار، عن المسيحية المصطنعة التي يعتنقها يائس معذّب، وعن تلك الأُخوّة للشعب التي لا تنشأ عن حب أصيل وطبيعي، بل عن ألم النفس وحزنها فقط.

وفي الحقيقة أنّ تولستوي، المفكّر، مهما قاتل نفسه في غضب وجنون، كي يصنع من شخصه الإنسان الأبله والفلاح البليد؛ لن يستطيع قط أن يزرع في باطنه نفس الموجيك الضيقة، في مكان فلسفته الواسعة التي تعانق كل الأشياء وتشملها.

أبداً، لن يستطيع فكر مصنوع من الحقيقة مثله أن ينحط تماماً حتى إيمان الفلاح المضطرب الغامض؛ ليس يكفي أن يرتمي الإنسان حانياً في غرفته، مثل فرلين، ويصلّي: «يا ربي، امنحني البساطة»، كي يزدهر في الحال غصن التواضع النقي في صدره... يجب قبل ذلك أن يكون المرء ويصبح حقّاً وفعلاً ما يبشّر به، فلا الاتصال مع الشعب بسر الإشفاق، ولا اكتفاء الوجدان بتديّن مليء بالإيمان، يتحققان مباشرة في النفس على غرار احتكاك كهربائي بسيط... إن ارتداء قميص الفلّاح، وشرب الكفاس، وحصاد الحقول، وسائر هذه الأشكال الخارجية للمساواة، مهما تحققت بسهولة لعبة من ألعاب الأطفال (وهذا نفسه في اتجاه مضاعف)؛ فإنّ الفكر لا يستسلم للبلادة قط، كما أنّ بصيرة الإنسان لا تتردّى بصورة اعتباطية، مثلما يمكن أن نخفض شعلة القنديل مثلاً على هوانا... إنّ قوّة الفكر المشعّة ووضوحه المضيء يظلان أبداً المقياس الأصيل غير المتبدّل لسائر الأفراد على حدٍّ سواء، ولا يبرحان دوماً جمال كل فرد ومصيره أيضاً. تلك قوّة تتجاوز الإرادة وتتخطّاها؛ فهي بالتالي تقع فيما وراء حدود إرادتنا هذه... بل إنّها لتتأجج بعنف أشد وجموح أعظم كلّما وجدت نفسها مهددة في واجبها الرئيسي، واجب اليقظة البصيرة؛ إذ مثلما نعجز ـ بواسطة تمارين روحانية ـ أن نتجاوز، ولو درجة واحدة، مقياس المعرفة الأصيلة فينا، وأن نرتفع إلى علم أعلى ومعرفة أرفع، كذلك يظل الذكاء عاجزاً، بواسطة فعل مباغت تقوم الإرادة به، أن يعود فينزل ـ ولو درجة وحيدة ـ حتى البساطة.

ويستحيل ألّا يكون تولستوي، هذا الفكر المجبول من المعرفة والبصيرة الواسعة، قد أدرك سريعاً أن الإرادة ـ وإن تكن في قوّة إرادته وعنفها ـ لن تستطيع في ليلة واحدة أن ترجع تعقيدها الفكري إلى بساطة النيتشفو[1]...

(1) كلمة روسية معناها: لا شيء... وقد أصبحت تشير فيما بعد إلى أسلوب حياة جماهير واسعة من الشعب الروسي أيام القيصرية؛ هذه الجماهير التي جعلت من تلك الكلمة كل فلسفتها في الحياة.

وإنّ إنساناً سواه لم يتفوّه بهذه الفكرة الرائعة (وإن لم يقلها إلّا فيما بعد فقط): «إنّ العمل في صنف ضد الفكر، ذلك أشبه بالسعي إلى التقاط أشعة الشمس، إذ مهما تكن الوسيلة التي يراد تغطية هذه الأشعة بها؛ فإنها أبداً تعود إلى ما فوقها»... ولم يعد يراوده الوهم، مع مرور الزمن، في عجز فكره العنيد، المحب للقتال والتسلّط، فكر سيّد يريد دوماً أن يكون على حق، عن الإحساس بعاطفة التواضع الساذج الثابت، وكذلك فإنّ الفلاحين لم يعتبروه قط واحداً منهم، وإن اتخذ ثيابهم وشاركهم عاداتهم خارجياً، كما أنّ العالم لم يرَ قط في هذا العمل إلّا تنكّراً فقط، ولم يرَ فيه تحوّلاً تامّاً مطلقاً أبداً.

وإنّ أقرباءه، وزوجته، وأبناءه، والبابوشكا[1]، وأصدقاءه الحقيقيين (إنّهم ليسوا بالتولستويين الممتهنين) هم بالضبط الذين يراقبون منذ البدء، في ريبة واستياء عظيمين، هذه الحميّا المختلجة التي يريد بها «الشاعر الكبير للشعب الروسي» (هكذا يدعوه تورجنيف، في رسالة كتبها له وهو على فراش موته، يناشده فيها أن يترك التبشير كي يعود إلى أحضان الفن) أن ينزل إلى بيئة من اللاثقافة تنافي طبيعته وتناقضها. وتقول له عندئذٍ زوجته ـ تلك الضحيّة البائسة لأزماته النفسية ـ هذه الكلمة الحاسمة: «فيما مضى كنت تقول إنّك قلق لأنّك لا تملك الإيمان... فما بالك لا تجد السعادة الآن ما دمت تقول إنّك تملكه؟»... يا للحجّة البسيطة كل البساطة، والدامغة حتى الدرجة القصوى! وفي الحقيقة أنّ شيئاً لا يشير عند تولستوي، بعد اهتدائه إلى إله الشعب، إنّه قد وجد في هذا الإيمان سلام النفس، والراحة في اللّه، والاكتفاء والرضى... بل إنّ المرء ليشعر على العكس، منذ أن يأخذ تولستوي بالحديث عن عقيدته، أنّه يسعى إلى تقنيع الشك المختلج في نفسه بهجمات عنيفة، وتلثيم عدم اليقين في إيمانه بتأكيدات صارخة جوفاء... إنّ سائر أفعال تولستوي وكلماته، في هذه المرحلة

(1) تصغير بالروسية لنداء الجدة.

من الاهتداء بالضبط، تتميّز بعنف مستقبح، بشيءٍ ما من التيه والادّعاء والجلبة والخصام والهوس. إنّ مسيحيته تزمّر بالبوق، فكأنّه في عرض عسكري، وتواضعه يتخطّر مزهّواً كالطاووس، وإذا كان المرء يتمتّع بأُذنين حسّاستين فإنه يستطيع أن يكتشف ـ في مبالغته بإذلال نفسه بالضبط ـ شيئاً من صلف تولستوي القديم؛ صلف قد أمسى اليوم كبرياء مقلوبة يوحي بها ذلك التواضع بالذات ويغذّيها.

ويكفي أن نقرأ ذلك المقطع الشهير من اعترافه حيث يريد أن «يثبت» اهتداءه، وهو يبصق الإهانات بصقاً ويسكبها سكباً على حياته الماضية: «لقد قتلت أناساً في الحرب، وتقاتلت في مبارزات عديدة، وبذرت في لعب القمار الأموال المبتزّة من الفلاحين وعاقبتهم بصورة وحشية، وزنيت مع نسوة عاهرات كما خدعت أزواجاً عديدين... الكذب والسرقة والزنا والعربدة والقسوة من شتّى الأنواع، لقد ارتكبت كل هذه الأفعال المخجلة، ولم يبقَ جرم غريب عنّي قط». وكي لا يعذره إنسان، كفنّان، على هذه الجرائم التي يدّعي أنّه ارتكبها، فإنّه يتابع اعترافه الطنّان العلني: «ولقد أخذت في ذلك الحين أشتغل بالأدب، غروراً منّي، ورغبة في الربح والزهو... لقد اضطررت، كي أبلغ إلى المجد والثراء، أن أخنق في نفسي ما يكمن فيها من عواطف صالحة، وأن أتدهور حتى الخطيئة»...

هذه، بكل تأكيد، كلمات موحية ومؤثّرة في إرهاقها الأخلاقي بصورة مخيفة حقاً... ولكن فلنعترف مع ذلك، ويدنا على قلبنا، بأنه لم يوجد قط إنسان قد احتقر تولستوي وازدراه، مستنداً إلى هذه الاتهامات التي يوجّهها تولستوي إلى نفسه، معتبراً إيّاه «إنساناً سافلاً مجرماً»، أو داعياً إيّاه «قملة» كما يسمّي هو نفسه في عطشه المجنون إلى الإذلال؛ وذلك لأنّه قام ـ أثناء الحرب ـ بخدمة بطاريته كما يفرض واجبه عليه، أو لأنه ـ وهو ذو المزاج الملتهب جداً ـ قد ارتكب حماقات بشبابه عندما كان أعزب بعد... أفلسنا نشعر هنا بالأحرى، على العكس، الصخب غير مستحب؟ أفلسنا نشعر هنا بأننا في حضور وجدان مهتاج

للغاية يسعى، بفرط التوبة، وبغرور مصنوع من التواضع ومجبول منه، أن يغطي نفسه بالخطايا بأيّ ثمن كان؟ فلا يوجد ههنا، كما في ذلك الخادم الذي يكمن في «راسكولنيكوف»[1] والذي يريد أن يجعل من نفسه ـ بصورة مغلوطة ـ قاتلًا ومجرماً، نفس سكرى بالاعتراف، تبتدع جرائم لم ترتكبها؛ كي تحمّل نفسها ثقل الصليب[2]، كي «تثبت» مسيحيتها وتواضعها؟ أفلا تثبت هذه الرغبة في الشهادة على نفسه، وهذا التواضع المختلج، المفجع الصارخ؛ هذا التواضع وتلك الرغبة اللذان يفرضهما تولستوي على نفسه؟ إنّ التواضع السلمي الهادئ لا يوجد ـ أو لا يوجد بعد ـ في هذه النفس المتزعزعة، بل ربما كان ههنا أيضاً غرور مقلوب يتضمّن خطراً فادحاً؟ أفلا يمكن أن يكون تولستوي الإذلال «الجديد» هذا هو نفس الرجل، لكن في اتجاه معاكس، الذي كان «المجد أمام البشر» غايته العظمى في ماضي الزمان؟... وعلى أيّة حال، فإنّ هذا التواضع لا يتصرّف بتواضع، بل إننا لا نستطيع، على العكس، أن نتصور شيئاً أكثر حميّة والتهاباً من هذا النضال النسكي ضد الهوى، هذا النضال الذي لا هوادة فيه أبداً.

إنّ هذا المتسرّع العديم الصبر لا يكاد يحس في نفسه شرارة ضئيلة، غير ثابتة بعد، من الإيمان، حتى يندفع في التو واللحظة يريد أن يلهب بها الإنسانية بأسرها، أشبه ما يكون بأولئك الأمراء الجرمانيين البرابرة، الذين لم يكد رأسهم يبتل بمياه التعميد حتى تناولوا الفأس يريدون أن يقتطعوا تلك الأشجار من الحور، التي كانت مقدّسة بالنسبة إليهم حتى ذلك الحين، وأن يحملوا الحريق والقتل حتى الشعوب المجاورة التي لم تعتنق الدين الجديد بعد... إنّ تولستوي ينطلق، بقفزات عملاق، وإرادة إله جبار، في هجوم صاعق على الإيمان، ولكن شيئاً لا يثبت أنّه قد استولى عليه حقاً وبلغ إليه... وإذا كان الإيمان راحة في اللّه،

---

(1) بطل قصة دستويفسكي الشهيرة: الجريمة والعقاب.

(2) يقول يسوع: مَن أراد منكم أن يتبعني، فليترك أباه وأمه، وليحمل صليبه ويتبعني.

وإذا كانت المسيحية تقوم في العيش في الطمأنينة والصبر؛ فإنّ هذا المتسرّع الذي لا يعرف الصبر لم يكن إذن ـ في يوم من الأيام ـ مؤمناً، وهذا الملتهب الذي لا يعرف سبيلاً إلى الرضى لم يصبح قط مسيحياً حقاً... إنّ هذا الباحث عن اللّه، هذا المضطرب الأبدي، لا يمكن أن يُعدّ بين المتواضعين إلّا إذا كنّا نسمي حنيناً عظيماً إلى الشعور الديني باسم الدين، وإذا كانت رغبة لاهبة في اللّه تكفي لأن تجعل الإنسان كائناً مسيحياً حقاً.

ولكن الأزمة التي مرّ تولستوي بها لا تتخذ قيمة رمزية وتتجاوز مرتبة الحوادث الفردية إلّا لأن هذا النجاح قد ظل بالضبط ناقصاً، ولأن القناعة الدينية التي توصّل إليها يعوزها اليقين، بحيث تصبح تلك الأزمة مثالاً لا ينسى على مر الدهر، يبرهن أنّه لا يمكن، حتى للإنسان الذي وهبته الطبيعة الإرادة الأشد عنفاً وقوّةً أن يقضي على الشكل البدائي لشخصيته، ويبدل ـ بفعل إرادي متسلّط ـ الشخصية الخاصة به بشخصية معاكسة. إن شكل الحياة الذي مُيّزنا به يقبل بدون ريب بعض التحسينات، وشيئاً من الصقل والتنقية، كما أنّ العاطفة الأخلاقية تستطيع ـ بكل تأكيد ـ أن تنمّي فينا، بفضل عملٍ واعٍ مستمر، ما نتمتع به من صفات مناقبية جيدة... ولكنها لن تستطيع قط أن تمحو الخطوط الأساسية لشخصيتنا، ولا أن تنظّم فكرنا وجسدنا حسب شكل هندسي آخر غير الذي جُبلنا عليه...

عندما يعلن تولستوي أن الإنسان يستطيع «أن يتخلّص من الأنانية مثلما يتخلّص من عادة التدخين»، أو أنّه يستطيع أن «يغزو» موهبة المحبة و«يكتسب الإيمان عنوة»؛ فإنّ نتيجة متواضعة للغاية تكذب، عنده بالذات، جهداً عملاقياً قد أصبح جنوناً تامّاً تقريباً... ذلك أنّ شيئاً لا يثبت أنّ تولستوي، المراقب الجبار، القاسي، العدمي في جوهره، الإنسان الغاضب الذي «تلقي عيناه الشرر منذ اللحظة التي يعارضه أحد فيها أقل معارضة» قد أصبح مباشرة، في إثر اهتدائه المسبب عن محاولة عنيفة، مبذولة من قبله، مسيحياً، مسالماً، لطيفاً، عذباً،

طيباً، «خادماً للّه»، و«أخاً لإخوته»... إنّ «تبدّله» قد بدّل حقاً أفكاره وآراءه وكلماته، ولكن ليس طبيعته الصحيحة (وكما يقول جوته: إن الناموس الذي تلقّيته عند ولادتك؛ سوف تسير عليه بالضرورة، ولن تستطيع أن تفلت منه قط). إنّ نفس القلق ونفس التعطّش إلى العذابات، قبل «اليقظة» وبعدها، يعكّران نفسه القلقة ويلقيان الاضطراب فيها... إنّ تولستوي لم يولد كي يبلغ الرضى، واللّه لم «يعطه»، بسبب هذا التسرّع وفراغ الصبر بالضبط، الإيمان مباشرة... بل كان لا بدّ له أن يناضل دون كلل طوال ثلاثين عاماً أخرى، حتى آخر ساعات حياته... إنّه لن يجتاز طريقه إلى دمشق[1] في ليلة واحدة، ولا في سنة واحدة، ولن يقنع بأيّ جوابٍ حتى تنطفئ نفسه، ولن يرضيه إيمان قط، بل إنّ الحياة ستظل ـ حتى لحظتها الأخيرة ـ لغزاً مغلقاً في نظره لا سبيل إلى حلّ رموزه.

وهكذا ليس من جواب على السؤال الذي يطرحه تولستوي عن «معنى الحياة»، وسلام الإيمان لم يُعطَ لقلقه الديني، وانطلاقه نحو اللّه، القوي المتعطش، لا ينتهي إلى أية نتيجة مطلقاً... ولكن الفنان يملك ينبوعاً ثرّاً أبداً في كل مرة لا يستطيع أن يتغلب فيها على نزاعٍ ما يمزق نفسه؛ إنه يستطيع أن يسقط حزنه إلى الخارج، وأن ينشره على الإنسانية بأسرها، وأن يجعل من المشكلة التي تشغل نفسه مشكلة عامة... وهكذا فإن تولستوي، هو الآخر، يضاعف من شدة الصيحة، الطافحة ذعراً أنانياً، المنطلقة من أزمته الفردية: «إلامَ سأصير؟» فيجعل منها ـ هذه الصيحة ـ الأشد والأعنف: «إلامَ سنصير؟»... لا يستطيع أن يقنع فكره، فكره العنيد الصلب المراس، فإنه يجرب أن يقنع الآخرين... وإذ لا يستطيع أن يغيّر نفسه؛ فإنه يسعى إلى تغيير الإنسانية بأسرها... إن سائر أديان مختلف الأزمنة والعصور قد نشأت على هذا الغرار، كما أنّ سائر تطورات العالم (وإن نيتشه، أكثر الناس نفوذاً إلى لب الأشياء، ليعرف ذلك جيداً) منشؤها «الهرب من

(1) إن بولس الرسول قد اعتنق المسيحية وهو في طريقه إلى دمشق كي يضطهد المسيحيين فيها.

الذات»، هرب إنسان وحيد مهدّد في نفسه يريد أن يحوّل عن صدره الخاص السؤال المحتوم فيلقي به وسط الجميع، محيلاً هكذا قلق الفرد قلقاً جماعياً.

ولم يصبح، إنه لم يصبح أبداً، مسيحياً تقياً، فرنسيسكاني الروح، هذا الإنسان ذو الأهواء العظيمة، والعينين اللتين لا يمكن خداعهما، هو الذي يسكن الشك في قلبه القاسي الملتهب... ولكنه أقدم على أكثر محاولات العصور الحديثة جنوناً، مدّعياً ـ لأنه يعرف بالضبط العذاب الذي يثيره غياب الإيمان ـ إنقاذ العالم من بؤس العدمية، وجعله أكثر إيماناً ممّا كان عليه هو نفسه. «إنّ الوسيلة الوحيدة للخلاص من يأس الحياة هي إسقاط الأنا في الكون بأسره»... وإنّ هذه الأنا المعذبة العطشة إلى الحكمة، هذه الأنا التي تخص تولستوي، تبسط عندئذ أمام كل الإنسانية ـ كهتاف يتضمّن معنى التحذير والإنذار وكعقيدة في الوقت نفسه ـ السؤال المرعب الذي هاجمها بصورة خاصة وضيّق عليها الخناق.

# عقيدة تولستوي والضلال الذي فيها

**«لقد راودتني فكرة عظيمة أستطيع أن أضحّي في سبيل تحقيقها بحياتي كلّها... هذه الفكرة هي تأسيس دين جديد، دين المسيح نفسه، لكن مخلّصاً ممّا فيه من عقائد ومعجزات».**

**تولستوي**
**«مذكرات الفتوّة»: آذار 1855**

**يضع** تولستوي، في أساس عقيدته، أساس «رسالته» إلى الإنسانية، كلمة الإنجيل: «لا تقاوموا الشر». ويفسّرها على هذه الصورة الخصبة التالية: «لا تقاوم الشر بالعنف».

هذه الجملة تتضمن سائر مبادئ تولستوي الأخلاقية في حالة الكمون؛ إنّ المقاتل العظيم قد ألقى بعنفٍ شديد، على جدار العصر، حجارة هذا المقلاع، ألقاها بكل الحميّة الخطابية والأخلاقية التي يتميز بها وجدانه المرتعش ألماً وعذاباً؛ حتى ليحسّ المرء ـ اليوم أيضاً ـ بذلك التزعزع الشديد في الصقل نصف المتحطّم. ويستحيل أن نقيس الأثر الأخلاقي لهذا الهجوم في كل فعّاليته ومداه البعيد: إنّ إلقاء الروسيين لأسلحتهم برضاهم وإرادتهم بعد معاهدة بريست ليتوفسك، و«عدم المقاومة» الذي يبشّر غاندي به، ونداء رومان رولان الداعي للسلام في معمعان الحرب الصاخبة، والمقاومة البطولية التي أبداها عدد

وفير من الأفراد الذين لا نعرف حتى مجرّد أسمائهم تجاه العنف المطبق على وجدانهم، والنضال ضد حكم الإعدام، وسائر الأفعال المماثلة التي حدثت مع القرن الوليد، والتي تبدو في الظاهر منعزلة عن بعضها البعض دون رابط يصل فيما بينها؛ لَمدينة جميعاً لرسالة ليون تولستوي بانطلاقها العنيف وتيّارها الآتي. حيثما أعلنت الحرب اليوم على العنف، سواء في اعتباره وسيلة أو سلاحاً أو حقاً، أو في اعتباره مؤسسة إلهيّة فيما يدعون معدّة للدفاع، ومهما تكن الذريعة التي يريدون أن يبرّروا العنف بها، أكانت الأمم تلك الذريعة، أم الأديان، أم الجنس، أم الملكية، حيثما يرفض الحسّ الأخلاقي، الموجّه نحو الإنسانية بأسرها، أن يهرق الدم، وأن يقبل بجريمة الحرب، ويرفض أن يعترف ـ إذ يعود القهقرى حتى «حق القوّة» الذي كان يسيطر في العصور الوسطى ـ بأيّ انتصارٍ حربيٍّ كتعبير عن العدالة الإلهية، في كل مكان، حتى في هذه الأيام؛ يجد كل ثوري أخلاقي في سلطة تولستوي وحميّته تأكيد قوّة أخوية وعضدها.

حيثما يخوّل وجدان مستقل العاطفة الأخوية للإنسانية فقط ـ باعتبارها القاضي الأخلاقي الوحيد ـ حق إصدار القرار الأعظم، بدلاً من أن يمنح ذلك الحق إلى الصيغ الكنسية الباردة أو إلى ادعاءات الدولة الطموحة، أو إلى عدالة صدئة لم تعد تعمل إلّا بصورة صورية فقط، حيثما يتصرف وجدان مستقل على هذا الغرار؛ فإنّه يستطيع أن ينتسب إلى ذلك العمل المثالي الذي قام تولستوي به، وهو نظير لوثر في هذا المضمار، عندما أنكر بصورة مطلقة على هذه البابوية الحديثة التي هي سلطة الدولة، هذه الدولة التي تدّعي العصمة لنفسها، كل حق على نفس الإنسان الفرد، منادياً كل ما عند البشر من إنساني كي لا يدين أحد منهم قط ويصدر أحكامه إلّا «بقلبه» وحده.

ولكن ما هو هذا «الشر» الذي يريدنا تولستوي أن نحاربه دون اللجوء إلى العنف؟ إنّه العنف نفسه بكل بساطة، العنف الجوهري الذاتي، حتى إنْ

أخفى عضلاته وخبّأها تحت ثياب الاقتصاد السياسي المؤثرة، أو ثياب الازدهار القومي، والطموحات الشعبية، والتوسّع الاستعماري، وحتى إن زوّر، بكل الحذق والمهارة الممكنين، غريزة القوة والغريزة الدموية عند الإنسان، كي يجعل منهما مثلاً أعلى فلسفياً ووطنياً... يجب ألّا ننخدع قط... إنّ العنف، حتى في تصعيداته الأكثر إغراءً، يعمل دوماً ليس على جعل البشر أكثر أُخوّة وقرباً من بعضهم البعض، بل على مضاعفة سلطة فريق وحيد وتزمّته؛ وهو بذلك يُبقي عدم المساواة الموجودة في العالم ويخلّده. وفي الحقيقة أنّ العنف يهدف إلى التملّك، إلى الحصول على خيرات مادية، ومضاعفة هذه الخيرات باستمرار. ولذا فإنّ كل عدم مساواة، بالنسبة إلى تولستوي، يبدأ مع الملكية. لا ريب أنّ النبيل الشاب لم يُمضِ عبثاً ساعات وساعات برفقة برودون عندما كان مقيماً في بروكسل، لا بل إنّه يطرح ـ هو الذي كان يومذاك أكثر الاشتراكيين جذرية ـ مع ماركس نفسه البديهة التالية: «إنّ الملكية هي أصل كل شر وكل ألم، وهناك خطر نزاعٍ عتيدٍ بين الذين يملكون فائضاً من الخيرات وبين الذين لا يملكون شيئاً منها»؛ ذلك أنّ الملكية، كي تحافظ على وجودها، مضطرة بالضرورة إلى الدفاع، بل إلى العدوان أيضاً، فالعنف ضروري إذن لاكتساب الملكية، وهو ضروري في سبيل إنمائها، وهو ضروري كذلك في سبيل الدفاع عنها. ولذا فإنّ الملكية تخلق ـ من أجل الدفاع عنها ـ الدولة التي تخلق بدورها ـ كي تؤمّن وجودها ـ الأشكال المنظّمة للسلطة الأرضية: الجيش، والعدالة، و«كل هذا النظام من الإرهاب الذي لا يعمل إلّا على حماية الملكية فقط»، والذي يخضع للدولة وينصاع لها ويعترف بها، ويسلّم نفسه لهذا المبدأ من القوّة كل التسليم. لا بل إنّ الناس المستقلّين حسب ظواهر الأشياء ـ أي المفكرين ـ يعملون، حسب مفهوم تولستوي، في الدولة الحديثة ـ دون أن يدركوا ذلك ـ على إبقاء خيرات عدد ضئيل من أصحاب الامتيازات في حوزتهم وملكيتهم، بَلْهَ كنيسة المسيح نفسها

(التي «تناهض الدولة في مغزى الكنيسة الحقيقي») تنحرف «بعقائد كاذبة» عن واجبها الرئيسي والأوّلي؛ وذلك حين تبارك الأسلحة، وتوفّر الحجج لدعم النظام القائم، الذي هو ظلم في جوهره؛ فهي بالتالي تتجمّد في صيغ متيبّسة، وتتفسّخ إلى عادات وأمور اتفاقية. أمّا الفنّانون، هؤلاء الذين هم أبناء الحرية، الذين وُلدوا محامين للوجدان ومدافعين عن الحق البشري؛ فيكتفون من جهتهم بنقش أبراجهم العاجية الحقيرة، و«يخدّرون الوجدان» بمثل هذا العمل الذي ينصرفون إليه بكلّيتهم. أمّا الاشتراكية فإنّها تسعى ـ هي الأخرى ـ إلى شفاء ما لا يمكن شفاؤه، بينا الثوريون، وهم الوحيدون الذين يريدون، بفهم صحيح للأشياء، أن يدمّروا نظام العالم المغلوط من أُسسه وجذوره؛ يرتكبون خطيئة استعمالهم ـ هم أيضاً ـ وسيلة خصومهم المظلمة فيخلدون بذلك الظلم على الأرض؛ إذ لا يقضون على مبدأ «الشر»، يعني العنف، بل يقدّسونه بالأحرى.

وبالنتيجة فإنّ أساس الدولة والعلاقة القائمة حالياً بين البشر على سطح هذه البسيطة، هما مغلوطان ومتعفّنان في مفهوم هذه المطالب الفوضوية؛ ولذا فإنّ تولستوي يرفض في حميّة وعنف، على اعتبارها عديمة الجدوى وغير كافية، كل التحسينات المدخلة على شكل الحكم، والتي يقترحها الديمقراطيون، والمتفائلون، والمسالمون، والثوريون على حدٍّ سواء. وفي الحقيقة أنّه ليس من دوما[1]، وليس من مجلس نيابي (وليس من ثورة بالأحرى) تستطيع أن تخلّص الأمة من «شر» العنف... إنّه ليستحيل أن يوطّد المرء أركان منزل مبني على تربة غير ثابتة، بل هو لا يستطيع إلّا هجره وبناء بيت آخر يقطن فيه؛ ولكن الدولة الحديثة تقوم على مبدأ القوّة، وليس على مبدأ الأُخوّة... ونتيجة ذلك بالنسبة إلى تولستوي أنّ هذه الدولة محكوم عليها بالانهيار بصورة لا مردّ لها، ولن تنفع سائر ترقيعات الاشتراكية والليبرالية إلّا في إطالة احتضارها فقط، فما يجب تبديله ليس العلاقة السياسية

(1) طراز من البرلمان الروسي في عهد القياصرة.

القائمة بين **الشعب والحكومة، بل البشر أنفسهم**... إنّ رباطاً أخلاقياً داخلياً من الأُخوّة وحدها يجب أن يرص كل تجمّع من البشر ويمتّنه، بدلاً من ذلك العنف المطبق عليهم من علٍ من قبل الدولة. وما دامت تلك الأُخوّة الدينية والأخلاقية لم تأخذ مكان الشكل الراهن من الإرهاب الذي يرهق المواطنين، فإنّ تولستوي يعلن على رؤوس الأشهاد أنّ حياة أخلاقية حقّة تستحيل، إلّا خارج الدولة، خارج الأحزاب، في الفراغ السرّي والخفي الذي يوجد في الوجدان الفردي وحده. وما دامت الدولة توحّد نفسها مع العنف، فإنّ إنساناً تلهمه الأخلاق يجب ألّا يوحّد نفسه مع الدولة مطلقاً. إنّ ما يلزم هو **ثورة دينية**، تحرير كل إنسان ذي وجدان من سلاسل جماعيةٍ مؤسسةٍ على قاعدة من العنف. ولذا فإنّ تولستوي يضع نفسه، بقرار مفاجئ عنيف، خارج أشكال الدولة، ويعلن نفسه مستقلاً أخلاقياً عن سائر الواجبات التي لا يمليها عليه ذات وجدانه فقط. إنّه يرفض أن يعترف بأنّه «يشكّل جزءاً من شعب ومن دولة دون سواهما، أو أنّه رعيّة لأيّة حكومة كانت». وينفصل بملء إرادته عن الكنيسة الأرثوذكسية، ويقلع، مبدئياً، عن التوجّه إلى أيّة عدالة أو أيّة مؤسسة أقامها المجتمع الحالي؛ حتى لا تكون له أيّة علاقة مع هذا الشيطان الذي هو الدولة القائمة على أساس من العنف. وبالنتيجة يجب ألّا نخدع، بفعل الوداعة الإنجيلية التي يتحلّى بها تبشيره عن الأُخوّة، وصبغة التواضع المسيحي التي تكسو أقواله، والتجائه إلى الإنجيل دوماً، يجب ألّا نخدع بالصفة المناهضة كلّياً للدولة، إلى تميّز نقده الاجتماعي، والطاقة المتدفقة والحزم الواعي الذي يعلن بهما تولستوي ـ وهو أكثر هراطقة العصر جرأة، وأكثر فوضوية جذرية ـ الحرب بصورة علنية على القيصر، والكنيسة، وسائر الإلزامات التي تفرضها الدولة على الروح الجماعية. إنّ عقيدته عن الدولة هي أكثر العقائد المناهضة للدولة فوضوية، والانفصال الأكثر كمالاً، منذ لوثر، الذي يحققه فرد عن هذه البابوية الجديدة التي هي مفهوم عصمة الملكية.

حتى لينين وتروتسكي لم يقوما، نظرياً، بخطورة تتجاوز شعار «كل شيء يجب أن يتبدّل» الذي ينادي تولستوي به. ومثلما كان جان جاك روسو، «صديق البشر»، يهيّئ بكتاباته أروقة الألغام التي نسفت بها الثورة الفرنسية الملكية فيما بعد؛ كذلك ليس من روسي قد زعزع ـ بمثل هذه القوّة ـ القلاع والحصون الأساسية للنظام القيصري والرأسمالي، بتهيئة الهجوم عليها؛ كهذا الثوري الجذري الذي نعتبره عندنا، وقد خُدعنا بلحيته البطريركية، وبشيء من الطلاوة والليونة في عقيدته، رسولاً للوداعة ليس غير. ومثلما كان روسو يستاء لو شاهد أعمال «جنود الثورة»؛ كان تولستوي دون أدنى ريب يستاء ـ أيضاً ـ من الأسلوب الذي لجأت إليه البلشفية؛ لأنّه كان يكره الأحزاب (إنّه يقول في كتاباته بصورة نبوئية حقاً: «مهما يكن الحزب الذي سينتصر، فلسوف يحتاج، كي يحفظ سلطته، ليس إلى استعمال سائر أساليب العنف الموجودة فحسب، بل إلى ابتداع أساليب جديدة أيضاً»). ولكن مفهوماً مخلصاً أميناً عن التاريخ سوف يبرهن يوماً أنّ تولستوي كان أفضل سابق لهذه البلشفية، وأنّ سائر قنابل الثوريين وألغامهم لم تنسف السلطة في روسيا وتزعزعها بمقدار ما فعلت ثورة هذا الفرد ـ وهو أعظم الأفراد على الإطلاق ـ العلنية على السلطات التي لا يمكن قهرها فيما يبدو، والمتحكّمة في وطنه: القيصر، والكنيسة، والملكية. ومنذ أن اكتشف ـ هو أكثر المشخّصين عبقرية ـ عيب البناء الذي ينخر في أسس حضارتنا، ألا وهو قيام عمارة دولتنا ليس على قاعدة الإنسانية، قاعدة الجماعية البشرية، بل على القسوة والتسلّط والسيطرة؛ فقد استخدم كل عنفه الجدلي، ومجموع قوّته الأخلاقية الهائلة، طوال ثلاثين عاماً، في هجمات متجدّدة أبداً ضد النظام القائم في المجتمع الروسي... لقد كان، دون إرادة منه، يحمل ثورة، ومتفجرات اجتماعية، وقوّة بدائية وأساسية للتهديم والقلب؛ وبذلك كان يحقق، دون وعي، ولكن بصورة كاملة، الرسالة الواقعة على عاتق العبقرية الروسية. ذلك أنّ كل

فكر روسي لا بدّ له، بصورة محتومة مقدّرة، من أن يدمّر قبلاً، بصورة جذرية وفي الأصول، قبل أن يعمد إلى البناء، وليست الصدفة وحدها التي تجبر كلاً من الفنانين الروسيين على الانغماس قبلاً في أشد طبقات العدمية القاتمة الشائكة حلكةً وسواداً؛ كي تحصّل فيما بعد، في يأس متأرّث عظيم الإشراق، إيماناً جديداً حامي الوطيس متأجج النيران. إنّ المفكر والشاعر وإنسان العمل لا يتقدمون عند الروسيين مثلهم عندنا نحن الأوروبيين، بتحسينات خجولة واحتياطات مليئة بالتقوى والحياء، بل إنهم، على العكس من ذلك تماماً، يهاجمون القضايا بمثل العنف الذي ينهال به الحطّاب على الخشب، وبمثل تلك الجرأة المدمّرة التي تغذّي التجارب المحفوفة بالأخطار. إن روستوبشين[1] لا يتردد، في سبيل إحراز النصر، في حرق موسكو، هذه المدينة المدهشة الرائعة، حتى عتبات دورها. وكذلك فإنّ تولستوي (وهو نظير سافونارولا في ذلك) لا يتردد في إلقاء سائر خيرات الإنسانية المتمدّنة ـ بما فيها الفن والعلم ـ إلى المحرقة؛ كي يبرّر هكذا نظرية جديدة أفضل، ليس غير. لعل الحاكم الديني، الذي هو تولستوي، لم يدرك قط النتائج العملية التي تنشأ عن مثل هذا الهجوم العنيف الذي يشنّه، وهو لم يجرؤ، بكل تأكيد، أنْ يحسب كم من الحيوات الأرضية، ستلحق بالانهيار المفاجئ لمثل هذا البناء الجبار. لقد اكتفى بأن يزعزع، بكل قوى روحه وعناد إيمانه، أعمدة بناء الدولة الاجتماعي... وأن شمشون مثل هذا، عندما يمد قبضتيه، فإن أعظم سطح ينحني تحت ضغطهما ويتهاوى.

ولذا فإن سائر المناقشات ذات الطابع الرجعي، المستهدفة معرفة إلى أية درجة كان تولستوي يؤيد أو يناهض الثورة البلشفية؛ إن سائر هذه المناقشات تظل عديمة الجدوى في حضور هذا الحادث الأكيد الثابت الذي لا يتطرّق الشك

---

(1) سياسي روسي، وحاكم مدينة موسكو عام 1812، وهو الذي أحرقها عند دخول جيوش نابليون إليها.

إليه مطلقاً؛ ألا وهو أن شيئاً لم يساعد الثورة الروسية فكرياً بمقدار ما ساعدتها الحرب المهووسة التي أعلنها تولستوي على الخير الفائض وعلى الملكية، وبنسبة ما قدمت إليها المعونة صواريخ مقالاته وقنابل كراساته. ليس أحد من نقاد عصرنا، حتى ولا نيتشه الذي لم يكن يهدف، على اعتباره ألمانياً، إلّا الناس المثقفين من دون سواهم، والذي كان أسلوبه الديونزيوسي الشعري يجرد نقده من كل تأثير في الجماهير. ليس ناقد في عصرنا إذن قد ألقى الاضطراب في النفوس، ونسف إيمان الجماعات الشعبية مثلما فعل تولستوي. إنّ محيّاه لينتصب، بالرغم من رغبته وبالرغم من إرادته، إلى أبد الدهور في البانتيون الخفي عن الأنظار؛ هذا الذي يضم كبار الثوريين ومدمّري السلطات ومبدلي وجه العالم.

نقول بالرغم من رغبته وبالرغم من إرادته؛ لأنّ تولستوي قد ميّز بجلاء تامٍّ ثورته الفردية والمسيحية، ميّز فوضويته عن مفهوم الدولة، عن كل ثورة أخرى تتحقق بالأفعال والعنف جميعاً. إنّه يكتب في «السنابل الناضجة»: «عندما نلتقي ببعض الثوريين، فإنّنا كثيراً ما نقع فريسة الأوهام عندما نعتقد أنّنا لا نفعل. وإياهم إلّا واحداً. إنّهم ينادون، مثلنا: لا دولة، لا ملكية، لا فوارق! وبكثير من الأشياء الأخرى المماثلة. ولكن هناك فرقاً كبيراً بالرغم من ذلك بينهم وبيننا: إنّ الدولة لا توجد بالنسبة إلى المسيحي، أمّا هم فيريدون على العكس أن يبيدوا الدولة. إنّ الملكية لا توجد بالنسبة إلى المسيحي، أمّا هم فيريدون أن يقضوا عليها. إنّ سائر البشر متساوون بالنسبة إلى المسيحي، أمّا هم فيريدون أن يدمروا عدم المساواة. إن الثوريين يحاربون الحكومة من الخارج، أمّا المسيحية فهي لا **تحارب**، بل تهدم أسس الدولة في الداخل». وهكذا نرى أن تولستوي كان يريد، لا أن يدمر الدولة عن طريق العنف، بل أن ينتزع منها الذرة بعد الذرة، الفرد في إثر الفرد، حتى تنحل عضوية الدولة من تلقاء ذاتها؛ لأنّ القوّة أصبحت تعوزها وتنقصها. وعلى أية حال، فإن النتيجة النهائية تظل هي نفسها لا تتبدل: تحطيم

كل سلطة ودمارها... ولقد خدم تولستوي هذه القضية، بكل حميّة، طوال حياة كاملة. صحيح أنّه كان يطلب، في الوقت ذاته، نظاماً جديداً، كنيسة تكون هي الدولة، وأن يجابه الرباط الاجتماعي والإيجابي للدولة الحاضرة برباط ديني آخر، وصحيح أنّه كان يريد أن يؤسس ديناً للحياة، أكثر إنسانية وأكثر أخوّة، أن يحقق الإنجيل، القديم والجديد في وقت واحد، إنجيل المسيحيين الأوّلين وإنجيل المسيحية التولستوية معاً، ولكن (ولتكن الأمانة رائدنا الأوّل) لا بدّ من أن نعمد ـ كي نقدّر عمله في البناء الروحي الجديد حق قدره ـ إلى تمييز واضح جلي بين النقد العبقري للحضارة؛ هذه العبقرية البصرية والأرضية التي في تولستوي، وبين الأخلاقي المتردد، الناقص، المتقلب الأهواء والمتناقض، الذي نجده في تولستوي الذي صار مفكراً، هو الذي يريد، في نوبة من علم التربية، ليس أن يدرّس أبناء فلاحي ياسنايا بوليانا مثله قبلاً فحسب، بل أن يعلّم، في مقدار مخيف من الطيش الفلسفي، أوروبا بأسرها الأبجدية العظيمة للحياة الوحيدة «العادلة». ليس من احترام يستطيع أن ينحني كما يليق به أمام تولستوي ما برح هذا الأخير، الذي وُلد دون أجنحة، يشرح في عالم الحواس بنية الإنسانية بأعضائه العبقرية، ولكنه لا يكاد يزمع أن ينطلق حراً في ميدان ما وراء الطبيعة، حيث لا تستطيع حواسّه أن تطبق على أيّ شيءٍ كان، أو تراه أو تمتصّه، حيث يتلمّس بإحساساته الفراغ عبثاً، لا يكاد يزمع ذلك حتى يلقي بسخفه الفكري الذعر في القلوب بكل معنى الكلمة. كلّا، إننا لا نستطيع أن نشدد على هذه النقطة بما يكفي من القوّة: إنّ تولستوي، بصفته فيلسوفاً نظرياً ومنهاجياً، قد ضلّ الطريق بصورة مفجعة، مثله مثل نيتشه ـ هذا الند لعبقريته ـ بصفته مؤلفاً موسيقياً. وكما أن موسيقية نيتشه، الخصبة بصورة رائعة حقاً في حضن لحن الكلمات وعذوبتها، قد فشلت بصورة بائسة تقريباً في نطاق الأصوات الموسيقية، يعني في التأليف الموسيقي؛ هكذا ينكشف فكر تولستوي الجبار مباشرة، عندما يخرج

من ميدان النقد الحواسّي، ويغامر في ميدان النظرية والمجرّد. وإننا نستطيع أن نتحقق من هذا الفارق في مؤلَّف واحد، مثلاً في كرّاسه الاجتماعي: «ماذا يجب أن نفعل؟» الذي يصف قسمه الأول، بصورة موضوعية وحسب التجربة الحسّية، أحياء موسكو البائسة؛ يصفها بإتقان يجعل القارئ يلهث طوال الوقت مسحوراً بها مأخوذاً بدقتها. إن النقد الاجتماعي لم يتظاهر أبداً على حاجة أرضية أكثر عبقرية وروعة منه في وصف هذه الأكواخ الحقيرة، وهذه الإنسانية الذبيحة. ولكن الطوباوي الذي في تولستوي لا يكاد ينتقل، في القسم الثاني من الكتاب، من التشخيص إلى المداواة، ويدّعي أنّه يقدم، بصورة علمية، اقتراحات تهدف إلى تحسين تلك الأحوال البائسة؛ حتى يصبح كل مفهوم سديمي البنية، وتختلط الحدود والاستدارات، وتتزاحم الأفكار متسارعة عجلى تدوس على بعضها البعض، وإنّ هذا الاضطراب ليتفاقم من مشكلة إلى مشكلة، بمقدار ما تزداد جرأة تولستوي، واللّه يعلم إلى أية درجة تصل جرأته. إنه يشنّ هجماته في مباحثه، دون أيّة تربية فلسفية، ويفقد الاحترام المطلق، على كل المشاكل التي ما برحت دون حلٍّ منذ الأزل، معلّقة في اللانهاية بسلاسل من الكواكب، ويعتقد أنّه قد جعلها «محلولة» مثل الهلام!

وكما أن هذا الفكر الذي لا يعرف معنى الصبر أبداً، قد أراد، في تسرّع وعجلة أثناء أزمته، أن يتعطّف «إيماناً» فكأنّ الإيمان معطف من الفرو ليس غير، ويصبح بذلك مسيحياً ومتواضعاً في ليلة واحدة فقط، هذا هو حالياً يريد، في كتاباته التي تدّعي تثقيف العالم «أن ينبت غابة كاملة بإشارة واحدة من يده»! وهكذا فإنّ ذلك الذي هتف، في 1878، يائساً ملتاعاً: «إنّ كل حياتنا الأرضية عبث غير معقول»، يقدّم لنا بعد ثلاث سنوات فقط، لاهوته العمومي، جاهزاً حاضراً كي نستفيد منه، متضمّناً حلول سائر ألغاز هذا العالم ومشكلاته. وطبيعي أن كل تناقض، في هذه العمارة العجلى، سيلقي كثيراً من الاضطراب

في نفس مثل هذا المفكر «العجول»؛ ولذا فإنّ تولستوي يعلم وأذناه مغلقتان دوماً، متجاوزاً كل تناقض، مانحاً نفسه ـ في سرعة مشبوهة مثيرة للشكوك ـ الحل المطلق لجميع القضايا دون تفريق. أيّ إيمانٍ غير ثابت هو ذلك الإيمان الذي يحس، في كل لحظة، ضرورة «الإثبات»! أي فكر غير منطقي تعوزه القوّة هو ذلك الفكر الذي تتقدم إليه، كلما أعوزته الحجج، كلمة من الإنجيل لها القرار الأخير، والقول الفصل، والسلطة العليا الوحيدة التي لا يمكن دحضها كما لا يمكن مناقشتها! كلا، كلا، كلا، إننا لا نستطيع أن نعلن ذلك بما يكفي من العنف: إن مباحث تولستوي العقائدية (بالرغم من بعض التفاصيل التي تتحلّى ـ وهذا أمر محتوم لا مناص منه ـ بميزة عبقرية) لهي من عداد مؤلّفات الهوس الأكثر قباحة التي يعرفها الأدب العالمي... إنها أمثلة بغيضة تنمّ عن فكر متسرّع مضطرب، متكبّر واعتباطي، بل (وذلك مشهد مؤثر عند رجل الحقيقة الذي هو تولستوي) غير شريف أيضاً.

ذلك أن أكثر الفنانين إخلاصاً، الرسول النبيل والمثالي للأخلاق الذي هو تولستوي، هذا الرجل العظيم الذي يكاد أن يبلغ القداسة، يلعب بكل تأكيد، بصفته مفكراً نظرياً، لعباً رديئاً ومغلوطاً. إنه يبدأ، كي يدفع في حقيبته الفلسفية الكون اللامتناهي للفكر بأسره، بحيلة فظة من الشعوذة تقوم في تبسيط سائر القضايا أوّلاً، بحيث تصبح رقيقة متمثّلة كورق اللعب... وهكذا فإنه يشرح في المحل الأول، ببساطة محفوفة بالأخطار، مفهوم «الـ» إنسان، ومن ثمّ مفهوم «الـ» خير، و«الـ» شر، و«الـ» خطيئة، و«الـ» شهوانية، و«الـ» أخوة، و«الـ» إيمان. ومن ثمّ فهو يغلط الورق في إقدام وشجاعة، ويرفع «الـ» حب فوق رأسه ويلوّح به كالورقة الرابحة دوماً، وهذا هو ـ تصوّروا! ـ يربح. إن مشكلة الكون بأسرها؛ هذه المشكلة اللامتناهية وغير المحلولة التي درستها ملايين من الأجيال البشرية، تجد حلّها، في ساعة قصيرة واحدة، على مائدة الكتابة في ياسنايا بوليانا... وإن

الرجل العجوز ليدهش لذلك كل الدهشة حقاً، فعيناه صافيتان مثل عيني طفل صغير، وشفتاه الرماديتان تبتسمان سعادة وفرحاً... إنه مذهول، مذهول كثيراً؛ إذ يرى «ما أبسط كل شيء مع ذلك!». كيف السبيل بعد هذا إلى تفسير الظاهرة التالية، ألا وهي أن سائر الفلاسفة، سائر المفكرين الذين يضطجعون، منذ ألف عام، في ألف ضريح في ألف بلد، قد عذّبوا فكرهم بكل هذا الألم وهذا التعقيد، بدلاً من أن يلاحظوا أنّ «الحقيقة بأسرها محتواة، منذ زمن سحيق، في الإنجيل، واضحة كوضوح الشمس» بشرط أن يفعلوا كما فعل هو، ليون نيقولايفيتش، في سنة الرب 1878، «فيفهمونها كما يجب للمرة الأولى منذ ثماني عشرة مائة من السنوات»، وينظفون أخيراً الرسالة الإلهية من «الجبس الذي طليت به»؟ (بلى، إنه يقول، حرفياً، مثل هذه الكلمات الكافرة!).

بعد الآن إذن قد انقضت كل الآلام وسائر العذابات، بعد الآن سوف يضطر البشر إلى الاعتراف كم يسهل أن تعاش الحياة: ما عليك إلّا أن ترمي بكل ما يضايقك تحت المائدة بكل بساطة، وأن تحذف الدولة، والدين، والفن، والثقافة، والملكية، والزواج. وهكذا نصفّي إلى الأبد «ال» شر و«ال» الخطيئة، فإذا ما قام كل إنسان بحراثة أرضه، وعجن خبزه، وإصلاح حذائه؛ لا يعود هناك دولة، ولا يعود هناك أديان، بل لا يبقى إلّا مملكة اللّه الخالصة على الأرض؛ وعندئذٍ «فإنّ اللّه هو المحبّة، والمحبّة هي غاية الحياة». إذن فلنبعد عنا سائر الكتب: لا فكر ولا عمل فكر بعد اليوم! إن «ال» محبّة تكفي، ويمكن أن تتحقق منذ الغد، «بشرط أن يريدها البشر».

تولستوي على الطريق بين موسكو وباسنايا بوليانا

ويلوح للوهلة الأولى أنّنا نبالغ كثيراً عندما نعرض محتوى اللاهوت التولستوي الشامل هكذا، مثلما هو في جوهره وحقيقته. ولكن من المؤسف أن تولستوي هو الذي يبالغ على هذه الصورة المفجعة، في حميّة المهتدي الحديث، فيتردّى بالتالي، ساعياً إلى الإفلات من تربة حججه المتقلقلة غير الثابتة، في عنف مثل هذا الإيمان. حقّاً ما أبدع الفكرة الأساسية لحياته؛ إنجيل عدم استعمال العنف، وما أكثر وضوحها وأشد ثباتها! إنّ تولستوي يريد منا جميعاً أن نكون عطوفين، متسامحين ومتواضعين روحياً، وهو يدعونا؛ كي نتجنّب النزاع المحتوم الذي سيثيره عدم المساواة المتفاقم أبداً بين الطبقات الاجتماعية، **أن نستبق الثورة القادمة من الأسفل بأن نبدأها، بملء إرادتنا، من الأعلى**، وأن نضع العنف خارج الميدان بوداعة ملائمة، خليقة بالمسيحية البدئية. يجب على الغني أن يضحّي بثرائه، وعلى المفكّر أن يضحّي بغروره، وعلى الفنّانين أن يهجروا بروجهم العاجية ويقتربوا من الشعب ويتفهّموه. ونحن جميعاً، يجب أن نروّض أهواءنا، أن نروّض «فرديّتنا الحيوانية»، ونطوّر فينا، بدلاً من الرغبة في الأخذ، الموهبة المقدّسة على العطاء. وتلك مطالب سامية بكل تأكيد، قد نادت بها، منذ الدهور السحيقة، سائر أناجيل العالم، مطالب أبدية؛ لأنّه يجب ـ حتى الآن ـ أن نجدّدها كي تستطيع الإنسانية أن تتابع صعودها نحو الأعالي. ولكن فراغ الصبر غير المحدود الذي يميّز تولستوي لا يكتفي، مثل تلك الطبائع الدينية، بأن يرى في هذه المطالب مجرد بديهية بسيطة، بديهية أرفع، مثل أعلى، يمكن للفرد أن يعتنقه، بل يطلب، في فراغ صبره المتسلّط، وبخنق عظيم في الوقت نفسه، أن تتحقق وداعة الروح هذه في التو واللحظة دون أدنى تأخير، وعند سائر البشر دون أيّ استثناء مطلقاً. وهكذا تستسلم عبقريته الملتهبة، سعياً وراء الإسراع في إقناعنا، إلى أكثر المبالغات هوساً ونقمة... إنّه يطلب أن نتنازل جميعاً، تلبية لوصيّته الدينية، عن كل شيء حالاً ودون تأخير، أن نهجر ونضحّي

في التو واللحظة بكل ما يربطنا شعورنا به، إنّه يطلب (هو الذي بلغ الستين من عمره) الزهد من الشبّان (هذا الزهد الذي لم يمارسه هو نفسه أبداً في نضوجه الرجولي)، إنه يطلب من المفكرين اللامبالاة، بَلْهَ الازدراء، تجاه الفن وسائر أمور الفكر (وهي التي وقف نفسه عليها طوال حياته). ولكي يقنعنا حالاً، بسرعة البرق ـ إن صح التعبير ـ بتفاهة الغرور الذي تضيع كل ثقافتنا فيه وتتلاشى؛ فإنه يهدم بلكمات غضبىٰ يكيلها بكلتا يديه كل عالمنا الفكري. ولكي يجعل النسك التام أكثر إغراء بالنسبة إلينا فقط؛ فإنه يلعن بصورة علنية كل ثقافتنا المعاصرة، وسائر فنّانينا وشعرائنا، ومجمل تكنيكنا وعلمنا، ولا يتورّع عن اللجوء إلى أكثر المبالغات والمغالطات فظاظة في سبيل ذلك. وهو في ذلك كلّه يكيل الإهانات لنفسه ويذل شخصه في المحل الأول دوماً؛ كي تكون له الحرية التامة بعد ذلك على مهاجمة الآخرين وإهانتهم.

إنه يعرض أكثر النوايا الأخلاقية نبلاً على الخطر بثرثرة متوحّشة يضيق عنها كل إفراط، ولا يستطيع أي وصف أن يبلغ إلى فظاظتها المبالَغ فيها، أم عسانا نعتقد حقاً أن ليون تولستوي الذي كان طبيب خاص يفحصه يومياً ولا يفارقه لحظة واحدة، يعتبر الأطبّاء والطب «أشياء عديمة النفع»، ويرى أنّ الحياة «خطيئة» فادحة، وأنّ الملكية «زينة تافهة» لا حاجة إليها؟ هل قضى حقاً ـ هو الذي تملأ مؤلفاته رفّاً من المكتبة كاملاً ـ حياته بأسرها «كطفيلي عديم الفائدة»، «كبرغوث» لا جدوى من وجوده؟ هل قضى هذه الحياة حقاً بالطريقة التي يصفها هو نفسه بصورة شعرية المبالغة: «إنّي أطعم، وأثرثر، وأستمع إلى الآخرين، ومن ثمّ أطعم من جديد، وأكتب وأقرأ، يعني أني أتحدث وأستمع من جديد، ومن ثمّ أطعم أيضاً، وألعب، وأطعم وأتحدث مرة أخرى، ومن بعد أطعم أيضاً وأغدو إلى فراشي». أحقاً أنّ «الحرب والسلم» و«آنا كارنينا» قد ولدا إلى الوجود هكذا؟ أحقاً أنّ الموسيقى بالنسبة إليه، هو الذي يذرف الدموع السخينة

إذا ما أصغى إلى عزف سوناتا لسوبان، ليست إلّا ما هي بالنسبة إلى أولئك «المرتجفين[1] الضيّقي التفكير، ليس إلاّ نايأً ينفخ الشيطان فيه؟ أيعتبر بيتهوفن حقاً «غاوياً شهوانياً»، ومآسي شكسبير «عبثاً مطلقاً»، ومؤلفات نيتشه «ثرثرة فظة»، «سخيفة وغير معقولة؟» أيعتقد حقاً أنّ مؤلفات بوشكين لا تصلح، هي الأخرى، «إلا كي توفّر للشعب ورقاً للفائفه؟». والفن الذي خدمه بصورة أروع وأعظم ممّا فعله أي إنسان آخر، أهو حقاً مجرد «زينة أناس عاطلين» ليس غير؟ وهل الخياط جريشا، والحذّاء بيوتر، هما حقاً بالنسبة إليه حكم استيطيقي أسمى من أي حكم أصدره تورجنيف أو دستويفسكي مثلاً في ذلك المضمار؟ أيعتقد حقاً، هو الذي «كان في شبابه زانياً لا يكل ولا يتعب»، والذي أنجب فيما بعد، في سرير الزوجية، ثلاثة عشر ولداً؟ أيعتقد حقاً أن سائر الشبّان سوف يصبحون نماذج للعفة، ويشوهون أنفسهم مثل المخصبين متأثرين بنداءاته، راغبين في الزهد حسب وصاياه؟

من الواضح أن تولستوي يبالغ مثلما يفعل رجل مهتاج حانق. ولا ريب أنّ السبب في هذه المبالغة، منطقياً، هو ما يعانيه من تأنيب الضمير، أو لعلّه يريد من ذلك ألّا يلاحظ ـ أي إنسان كان ـ كيف فاز هو نفسه بنصيب الأسد من «براهينه». وفي الحقيقة أنّ الإحساس الذي يراوده أحياناً بكون هذا العبث الصاخب ينهار بذات المبالغة التي يتضمّنها، يخترق أعمق أعماق وجدانه النقدي كالبريق الخاطف، حتى لقد كتب ذات يوم: «إنّ أملي ضئيل في أن يقبل الناس

(1) تعريب كلمة quakers الإنكليزية، وهم فريق ديني تشكّل في القرن السابع عشر، كانوا يجتمعون في قاعات عارية وينتظرون في صمت حلول الروح القدس، فإذا أحس به أحدهم ـ وذلك يتضح بارتجافه ـ قام وخطب في الآخرين الذين يصغون إليه بانتباه عظيم، والمرتجفون لا يعترفون بالأسرار، ولا يقسمون الأيمان في المحاكم، ولا يمسكون السلاح قط، ويعتبرون الحرب صراعاً بين إخوة، ولا يعترفون بالرتب الكهنوتية، ولا يكشفون عن رؤوسهم حتى أمام الملك.

براهيني، أو حتى في أن يناقشوها بصورة جدّية!» وإنّه محقٌّ في ذلك بصورة رهيبة حقاً! إذ مثلما كان يستحيل مناقشة هذا الفكر، الذي يدّعي التسامح، أثناء حياته (إنّ امرأته تتنهّد وتقول: «يستحيل إقناعه أبداً». وتقول أفضل صديقاته أيضاً: «إنّ محبته لذاته لا تسمح له أبداً بالاعتراف بخطيئة واحدة ارتكبها»)، كذلك لا يعقل الدفاع عن بيتهوفن أو شكسبير ضد تولستوي. يحسن بمن يحب تولستوي أن يغمض عينيه حيث يظهر الرجل العجوز بصورة واضحة جداً صنف منطقه، ويتعامى عنه. والحقيقة أن ليس إنسان يتمتع ببعض الاعتبار قد فكر لحظة واحدة، تجاه هذه الانفجارات اللاهوتية الصادرة عن تولستوي، أن ينكر بصورة مباغتة ألفي سنة من النضال في سبيل السمو بالحياة إلى مراتب الروح، كما يفعل المرء مثلاً حين يغلق صنبور الغاز في داره، وأن يلقي بين الأقذار قيمنا الأكثر قداسة دفعةً واحدة. ذلك أن أوروبا، وقد ولد لها في ذلك الحين بالضبط مفكر مثل نيتشه، يرى أنّ أفراح الفكر وحدها هي التي تجعل أرضنا الثقيلة قابلة للسكنى حقاً، لم تخامرها أدنى رغبة قط ـ واللّه يعلم ذلك ـ في أن تخشوشن، وتتبلّد، وتعيش حياة منغولية، تلبية لوصية أخلاقية بسيطة ساذجة، فتنزلق في خضوع تحت الكيبيتكاوتنكر ـ على اعتباره خطيئة «مجرمة» ـ ماضياً فكرياً عظيم الروعة والبهاء!

لقد كانت أوروبا، وستظل دوماً، عميقة الاحترام حتى لا تخلط بين الأخلاقي الأمثل ورائد الوجدان البطولي الذي في تولستوي، وبين هذه المحاولات اليائسة في سبيل تحويل الأزمة العصبية التي انتابته إلى فلسفة عمومية، والعذاب الحرج المشوب بالقلق الذي طغى عليه إلى اقتصاد سياسي قائم بذاته. ولسوف نميز دوماً بين الدوافع الأخلاقية العظيمة التي نشأت عن حياة هذا الفنان البطولية، وبين ذلك التطهير للثقافة الذي أراد هذا العجوز الغضوب كالفلاح الفظ ـ المعتصم في قلاع النظرية المحضة ـ أن يمارسه ويخرجه إلى حيّز التحقيق. إنّ

خطورة تولستوي ورزانته قد زادا وجدان جيلنا عمقاً بصورة لا مثيل لها، ولكن نظرياته المتداعية تشكّل اعتداءً منقطع النظير على فرحة الحياة، ميلاً قميناً براهب نسكي يريد أن يرجع القهقرى بثقافتنا حتى مسيحية بدئية يستحيل تحقيقها، مسيحية قد تخيّلها شخص ليس هو بالمسيحي؛ وبالتالي فهو فكر قد تجاوز مرحلة المسيحية وتخطاها.

كلا، إننا لا نعتقد أن «الزهد يسيّر الحياة بأسرها»، وإن من واجبنا أن نحيل هوى الأمور الدنيوية هزيلاً جداً في نفوسنا، فلا نحملها إلّا واجبات وأحكاماً مستقاة من التوراة. إننا لا نثق بدليل لا يعرف شيئاً من قوّة الفرح الخلاقة المحيية، ولا يهدف إلّا إلى تضييق الخناق على ألعاب حواسّنا الحرة وعرقلتها، بما فيها أكثرها سمّواً وجمالاً على الإطلاق: الفن! إننا لا نريد أن نهمل شيئاً من فتوحات العلم والتكنيك، لا نريد أن نهجر شيئاً من تراثنا الغربي، لا شيء على الإطلاق، لا كتبنا وآثارنا الفنّية، ومدننا، وعلمنا، ولا إصبعاً، ولا «حبّة واحدة من واقعنا الحسّي والمرئي، وذلك في سبيل ـ لست أدري ـ أية جملة فلسفية، وأقل من ذلك أيضاً في سبيل جملة رجعية ومتداعية ستعود بنا القهقرى إلى حياة السهب وإلى البلادة الفكرية. إننا نرفض أن نستبدل، مقابل غبطة سماوية، الثراء المدهش لحياتنا الراهنة ببساطة ضيقة لست أدري ماهيتها... إننا نفضل أن نملك الجرأة على أن نكون «خطاة»، بالأحرى من أن نكون بدائيين، أن نكون متوقّدين هوى من أن نكون حمقى وصالحين حسب التوراة. وهذا هو السبب في أن أوروبا قد ألقت بمجموعات نظريات تولستوي الاجتماعية في خزانة القراطيس الأدبية بكل بساطة، فعلت ذلك وهي مليئة حقاً بالاحترام نحو تلك الإرادة الأخلاقية بصورة مثلى، ولكن ليس دون أن تضعها جانباً بالرغم من ذلك، اليوم وإلى الأبد. ذلك أن التأخر والرجعية، حتى في أكثر أشكالهما ارتفاعاً وسمواً، وحتى إذا قدمتهما عبقرية رائعة كعبقرية تولستوي؛ لا يمكن أبداً أن يصبحا

خلّاقين، كما أن ما ينشأ عن اضطراب النفس الفردي لا يمكن قط أن يوضح اضطراب النفس العمومية ويبيّنه. فلنكرر ذلك مرة أخرى وبصورة نهائية: إن أقوى منقّب نقدي في عصرنا، تولستوي، لم يزرع حبة واحدة في أرض مستقبلنا الأوروبي، وهو بذلك روسي في الصميم، من عبقرية جنسه وجيله حقاً وفعلاً.

وفي الحقيقة أن مغزى القرن الأخير ورسالته كانا يقومان، بالنسبة إلى روسيا، في نبش سائر الأعماق الأخلاقية، وحفر سائر المشاكل الاجتماعية، وتعريتها حتى جذورها الأصلية، وكل ذلك في قلق مقدس وعاطفة لا تقف عند حدٍّ أبداً. وإن احترامنا لينحني كثيراً في النهاية، أمّا النتاج الجماعي لفنانيها العباقرة، فنحن إذا كنا نحس كثيراً من القضايا بصورة أعمق من ذي قبل، وإذا كنا نعرف قضايا أخرى بصورة أكثر ثباتاً ويقيناً من ذي قبل، وإذا كانت قضايا الزمان والقضايا الأبدية التي تعرضت الإنسانية لها تتقدم إلينا بصورة أشد قسوةً وإيلاماً وأقل شفقة ورحمة من ذي قبل؛ فإننا مدينون إلى روسيا وإلى الأدب الروسي في الدرجة الأولى، وإننا مدينون إلى هذا الأخير أيضاً بذلك القلق الخلّاق الذي يمكننا، بتجاوز الحقائق القديمة، من بلوغ حقائق جديدة والارتقاء إليها. إن التفكير الروسي بأسره هو اختمار روحي، قوة مرنة ومتفجرة، ولكنه ليس بإيضاح للفكر أبداً، إنه يشترك، مثل تفكير سبينوزا، ومونتين، وبعض الألمانيين، في توسيع المدى الفكري للكون بصورة رائعة، بل ليس أي فنان معاصر قد نبش روحنا مثلما فعل تولستوي ودستويفسكي، ولكن أيّاً منهما لم يساعدنا على خلق نظام جديد، بل إننا نرفض حلولهما، حيث يحاولان أن يستخرجا، من فوضاهما الخاصة، من فوضى نفسيهما اللامتناهية، ردّ فعلٍ يعطينا معنى لهذا الكون ومغزاه؛ ذلك أن كلاهما، تولستوي ودستويفسكي على حدٍّ سواء، يرتميان في رد فعل ديني بدافع قلق بدائي، يسعيان إلى الإفلات من ربقة الذعر الذي تبعثه فيهما العدمية المفتوحة أمامهما كالهاوية السحيقة... وأنّ كلاهما يتعلقان، كي لا يسقطا في

قعر هاويتهما الداخلية، بالصليب المسيحي في عبودية، ويغمران العالم الروسي بالسحب، في ذات الوقت الذي كانت صواعق نيتشه المطهّرة تحطم فيه سائر آلهة الذعر العتيق إرباً إرباً، وتضع بين يدي الأوروبي، مثل مطرقة مقدسة، الإيمان بقوّته وحريته.

يا للمشهد الخيالي الغريب! إن تولستوي ودستويفسكي، وكلاهما أقوى فكرين أنجبهما الوطن الأم، يرتجفان فرقاً على حين غرة... إن ارتعاشاً ترسله الرؤى في أوصالهما يجتاحهما في ملء عملهما، فيرفع كلاهما عندئذٍ، إلى الأمام منه، الصليب نفسه، الصليب الروسي، ويدعوان المسيح معاً، مسيحاً يختلف حسب كل منهما كمخلّص ومفتدٍ للعالم الذي ينهار.

هذان هما ينتصبان، كل في كرسيه، مثل راهبين حانقين من رهبان القرون الوسطى، متعارضين إنْ في فكرهما أو في حياتهما أيضاً؛ دستويفسكي رجعي مغرق في رجعيته، مدافع عن الحكم المطلق، مبشّر بالحرب والإرهاب، مستسلم في جنون وحميّا إلى نشوة القوّة التي تتسلّط على كل شيء وتسيطر عليه، أجير للقيصر الذي ألقى به في الزنزانات، عابد لمخلص استعماري يغزو الكون ويجتاحه. أمّا تولستوي فينتصب في وجهه، ساخراً، بذات الهوس المجنون، بكل ما يمجّده الآخر، فوضوياً بصورة صوفية بمقدار ما عليه الآخر من الذل والعبودية بصورة صوفية أيضاً، مسمّراً إلى عمود الإعدام؛ القيصر كقاتل مجرم، والكنيسة والدولة كسارقين مذنبين، لاعناً الحرب، حاملاً المسيح كذلك في شفتيه والإنجيل في يديه، ولكن كلاهما يرفضان العالم في انطواء التواضع والبلادة، بفعل رعب عجيب يملأ نفسيهما المتزعزعتين. لا بدّ أن هذين المفكرين يملكان، لست أدري، أيّ تألّهٍ نبوئي كي ينشرا على شعبهما، بمثل هذه الصورة العاتية، خشيتهما الرؤيوية، يملكان حدساً عن نهاية العالم والدينونة الأخيرة، علم الملهم الذي يحس الأرض الروسية تحت قدميه وقد امتلأت بأكثر الانقلابات هولاً، إذ إلام تصير

وظيفة الشاعر ورسالته، إن لم تقوما في الإحساس السابق النبوئي بالحميّا التي تولد في جو العصر والرعد الذي يتأهب في السحب العالية، إن لم تقوما في إيقاف سيطرةِ اضطرابِ مخاضِ عصرٍ جديدٍ عليه وتملكه لروحه؟ إنهما ينتصبان، وكلاهما مبشّران بالتوبة، وكلاهما نبيّان للغضب نشوانان بالمحبة، مستضيئان بصورة مفجعة على عتبة عالم يموت، يحاولان دوماً أن يمنعا الكارثة التي أخذت اهتزازاتها تشمل الجو منذ الآن، أشبه ما يكونان بوجهين عملاقين من وجوه العهد القديم لم يرَ عصرنا مثيلاً لهما قط.

ولكنهما لا يستطيعان إلّا التنبؤ بما سيحدث، دون أن يستطيعا تبديلاً لمجرى الأمور. إن دستويفسكي يسخر من الثورة، ولكن هذه القنبلة التي قضت على القيصر، تنفجر في إثر مأتمه تماماً. إن تولستوي يجلد الحرب جلداً، وينادي بالمحبة على هذه الأرض، ولكن التربة لم تكد ترتدي الخضرة أربع مرات فوق نعشه، حتى دنّست العالم أبشع جرائم التذابح الأخوي التي عرفها التاريخ. إن شخصياته ـ التي كان هو نفسه يحتقرها ـ وفنّه قد عاشت جميعاً، ولكن النسمة الأولى من الريح قد أطاحت بعقيدته، فكأنها فقاعة من الصابون ليس غير. إنه لم يشاهد انهيار ملكوت اللّه، لم يحضر الفشل المطلق التام الذي مُنيت به عقيدته عن الحب، ولكنه قد أحس ذلك دون ريب؛ لأنّ خادمه قد حمل إليه، وهو جالس في طمأنينة بين أصدقائه في السنة الأخيرة من حياته، رسالة فضّها وقرأ فيها:

«كلا، يا ليون نيقولايفيتش، لست أستطيع أن أفكر، مثلك، أنّ العلاقات بين الناس يمكن أن تتحسن بواسطة الحب وحده. إن الناس ذوي التربية الحسنة والذين يأكلون حتى شبعهم يستطيعون وحدهم أن يتكلموا هذه اللغة. ولكن ماذا تقول لأولئك الذين يتضوّرون جوعاً، منذ طفولتهم، والذين ينحنون طوال حياتهم تحت نير الطغاة؟ إنهم سيناضلون وسيجربون أن يخرجوا من العبودية. وإني أقول لك ذلك، في عشيّة موتك يا ليون نيقولايفيتش: إن العالم سوف

يختنق بعد تحت أمواج الدماء المهرقة، ولسوف يُقتل ويُمزّق إرباً إرباً أكثر من مرّة أخرى، ليس الأسياد وحدهم دون تفريق في الجنس فحسب، بل أولادهم أيضاً؛ حتى لا يعود هناك ما تخشاه الأرض من جانب هؤلاء. وإنّي لآسف أنّك لن تكون عندئذٍ على قيد الحياة؛ كي تكون شاهداً عيانياً على خطيئتك. إنّي أتمنّى لك موتاً هادئاً».

إنّ أحداً لا يدري مَن الذي كتب هذه الرسالة الشبيهة بالإعصار؛ أهو تروتسكي، أم لينين، أم أحد الثوريين الذين يتعفّنون في قلعة شلوسلبورغ؟ إننا لن نعرف ذلك قط، ولكن لعل تولستوي قد أدرك منذ تلك اللحظة أن عقيدته ليست إلّا دخاناً، وإلا باطلاً في وجه الواقع، وإن الهوى المتوحش المتبلبل سوف يكون أقوى دوماً بين البشر من المحبة الأخوية. ويحدثنا الشهود أن سيماء وجهه قد اكتست عندئذٍ بطابع الخطورة، وأنه تناول الرسالة وانسحب إلى غرفته مستغرقاً في التفكير، وكأنما جناح التنبؤ الجليدي قد احتف برأسه الذي كبر وشاخ.

# النضال في سبيل التحقيق

**«إنّه لمن الأسهل أن يكتب المرء مجلّدات عديدة في الفلسفة، من أن يضع مبدأً واحداً في حيّز التطبيق».**

**تولستوي**
**«المذكرات» 1847**

لا ريب أنّ تولستوي لم يقرأ دون انفعال، في الإنجيل الذي كان يتصفّحه في ذلك الحين بحميّا عظيمة، هذه الكلمات النبوئية: «إنّ من يزرع الريح يحصد العاصفة»؛ لأنّ ذلك هو المصير الذي تحقق حالياً في حياته؛ ليستحيل على أيّ فردٍ كان، وعلى فكر عنيف أقل من أيّ كائنٍ آخر أيضاً، أن يلقي في العالم بقلقه الروحي دون أن يضطر بالضرورة إلى التكفير عن ذلك؛ تلك الثورة سوف تنعكس إذن على صدره الخاص وتتدفّق بعنف عظيم، في ألف شكل وشكل، تجتاح كل شيء في إعصارها الجبار. ونحن لا نستطيع اليوم، بعد أن خفّت حدّة المناقشة منذ زمن طويل؛ أن نقدّر بصورة تامة عظم الرجاء المجنون الذي أشعلته رسالة تولستوي منذ ندائها الأول في روسيا، وأبعد من ذلك أيضاً في العالم بأسره؛ تلك كانت ثورة للنفوس دون أدنى ريب، يقظة جبارة لوجدان شعب كامل. وعبثاً منعت الحكومة التي ذعرت لنتائج مثل هذا الانقلاب كتابات تولستوي الجدلية، فهي تمر من يد إلى يد منسوخة على الآلة الكاتبة، أو تعبر الحدود خفية بعد أن طُبعت في الخارج، وقلب الإنسانية المفتوح لكل رسالة خلاصية يستدير في تهلّل

نحو صاحبها بمقدار ما يشدد هذا الأخير هجومه الجريء على عناصر النظام القائم: الدولة، والقيصر، والكنيسة، وبمقدار ما يطالب في حماسة عظيمة بنظام اجتماعي أفضل بالنسبة إلى قريبه الإنسان. ذلك أن عالمنا الروحي قد احتفظ تماماً بالرغم من الخطوط الحديدية والبرق واللاسلكي، بالرغم من المجهر، ومن كل سحر التكنيك المتقدّم، بذات التوقّع المسياني الذي يستدير نحو حالٍ أخلاقية أسمى، هذا التوقع الذي كان يتصف به أيام المسيح، ومحمد، وبوذا! إنّ طموحاً متجدداً دوماً إلى دليل ومعلم يحيا ويهتز، بصورة خفية، في نفس الجماعات البشرية المتعطشة أبدياً إلى المعجزات. وذلك هو السبب في أن الإنسان يمس العصب الحساس لهذا العطش، إلى الإيمان في كل مرة يتوجه فيها إلى الإنسانية، ممنّياً إيّاها ببعض الوعود. وإنّ مؤونة لا متناهية من الاستعداد للتضحية تستقبل في كل مرة ذلك الذي يجد الجرأة على النهوض، ويجد الشجاعة على أن يتفوّه بهذه الكلمة، الثقيلة بالمسؤولية أكثر من أية كلمة أخرى: «إنّي أعرف الحقيقة».

ولذا فإنّ ملايين الأنظار الطافحة بالنفوس تلتفت في نهاية القرن، من كل حدب وصوب في روسيا، إلى تولستوي منذ اللحظة الأولى التي يعلن فيها عن رسالته الرسولية. إنّ «الاعترافات» التي لم تعد بالنسبة إلينا، منذ زمن طويل، إلا وثيقة نفسانية، تسكر الشبيبة المؤمنة مثل بشارة إلهيّة منزلة من السماء، فيهتفون في نشوتهم العظيمة: هذا أخيراً إنسان قوي، حر، والأكثر من ذلك أنّه أعظم شعراء روسيا، يعبّر ـ كي يجعل منه حقاً مشروعاً ـ عمّا لم يكُ حتى ذلك الحين إلا موضوع شكاوى المحرومين في الأرض، عمّا كان البشر نصف الأرقّاء وحدهم يهمسون به بصورة خفيّة، ألا وهو أنّ النظام الراهن في العالم نظام ظالم، غير أخلاقي، وبالنتيجة غير قابل للدفاع عنه، وأنه يجب بالضرورة التفتيش عن شكل جديد وأفضل لهذا النظام.

وهكذا فإن انطلاقاً لم يكن في الحسبان يشمل بغتة سائر المستائين، ولا

يصدر عن فيه أحد أولئك المنمقين الممتهنين لحديث التقدم، بل عن فيه فكرٍ حرٍّ عصيٍّ على الفساد لا يجرؤ أيّ إنسانٍ أن يرتاب في سلطته وإخلاصه. ويسمع هؤلاء المستاؤون أن ذلك الرجل يريد أن يبين الطريق بمثال حياته الخاصة، بكل فعل من أفعال وجوده، فيتنازل عن ميزاته ككونت نبيل، ويتنازل عن أملاكه كرجل ثري، ويريد ـ هو أول عظماء هذا العالم وملّاكيه ـ أن يأخذ مكانه، متجاهلاً كل الفروق، بين جماعة الشعب الذي يكدّ جسدياً ويكدح حتى تتظاهر أخيراً على هذه الأرض الأخوّة الدينية بدلاً من طغيان الدولة، وملكوت الحب الإلهي بدلاً من قيصرية العنف والإرهاب. وإن رسالة هذا الفادي الجديد للمحرومين تبلغ حتى غير المثقفين من الناس، حتى الفلاحين والأميين أنفسهم... وما أسرع ما يتجمع التلامذة الأولون، ويأخذ فريق التولستويين بتحقيق كلمة المعلم بصورة حرفية؛ بينا تسهر من ورائهم وتنتظر كتلة المضطهدين الذين لا يُحصى لهم عدد، يريدون أن يعرفوا إن لم يكن هذا الإنسان المخلص قد وجد عوناً لهم، قد عثر على رجاء يقدمه لهم، هم الذين طالما خابت آمالهم وتحطمت في هذا العالم القاسي. وهكذا فإنّ ملايين القلوب، ملايين الأنظار تتطلع إلى الأمام من تولستوي صاحب البشارة الجديدة، وتراقب في نهم كل فعل وكل حدث من حياته التي اتخذت حالياً أهمية عمومية شاملة: «ذلك أن هذا الرجل قد تعلّم شيئاً، ولسوف يعلّمنا».

ولكن تولستوي ـ وذلك أمر غريب حقاً ـ لا يبدو أنّه أدرك، منذ البدء، أية مسؤولية عظيمة قد ألقاها على عاتقه، عندما جرّ في محيط حياته الخاصة هذا التيار غير المنتظر من ملايين الأفراد الذين أخذوه على حين غرة. إنّ له من البصيرة ما يكفي ـ بكل تأكيد ـ كي يدرك أنّ مثل هذه العقيدة عن الحياة لا يمكن أن تظل أحرفاً باردة على الورق فقط بالنسبة إلى من ينادي بها ويبشّر، بل لا بدّ من إنجازها بصورة مثالية في وجوده الخاص. ولكنه يحسب (وتلك

هي الخطيئة التي يرتكبها في البدء) أنّه قد فعل الكثير ما دام قد بيّن بصورة رمزية، بتطبيق سطحي على شخصه، كيف يمكن تحقيق تعاليمه الاجتماعية والأخلاقية الجديدة، ووهبها من حين لآخر، في سلوكه العام، اعتناقاً مبدئياً. وهكذا فهو يرتدي ثياب الفلاحين؛ كي لا يظل هناك أي فارق بين السيد وخدمه، ويشتغل في الحقل بالمنجل والمحراث، ويطلب من «رجيبين» أن يرسمه في هذا المشهد؛ كي يعرف الناس جميعاً ويتحققوا بواسطة هذا البرهان الموضوعي أن تولستوي لا يعتبر عمل الحقل، العمل الفظ والشريف الذي ينجزه المرء كي يكسب خبزه، أمراً مخجلاً أبداً، وكي لا يخجل أحد بعد الآن من هذا العمل، ما دام هو نفسه، ليون تولستوي، الذي لا حاجة به إلى ذلك السلوك كما يعرف الجميع حق المعرفة، والذي قد أعفته عبقريته تماماً من هذا الإلزام، يقبل بذلك العمل في فرح ويُقبل عليه عن طيبة خاطر. وإنه ينقل سائر خيراته، كل ما يملكه (وكانت أملاكه تبلغ في ذلك الحين قرابة نصف مليون من الروبلات) إلى زوجته وعائلته؛ كي لا يدنس أبداً نفسه بعد الآن «بخطيئة» الملكية، ويرفض من الآن فصاعداً أن يتناول مالاً على مؤلفاته أو أية قيمة أخرى تعوض عن أتعابه فيها. وإنه يقوم بأعمال البر والصدقة، فيعطي وقته لأكثر البشر ـ الذين يتوجهون إليه ـ تواضعاً وشهرة مغمورة، فيستقبلهم في داره، أو يكتب إليهم، ويهتم بكل ظلامة وكل إثم على الأرض بمحبة ومساعدة أخويّتين مجرّدتين. ولكن ما أسرع ما يضطر إلى الاعتراف بأن الناس يطلبون منه أكثر من ذلك؛ لأنّ الأغلبية العظمى من هؤلاء المؤمنين، هذا «الشعب» بالضبط الذي يفتش عنه بكل حواس نفسه، لا يرضى بهذه الرموز عن التواضع التي لا تملك إلا مغزى روحياً فقط، إنه يطلب أكثر من ذلك من ليون تولستوي، إنه يطلب الإملاق التام، والاقتسام المطلق لبؤسه وشقائه. إن الشهادة وحدها تستطيع أن تخلق مؤمنين حقيقيين ومقتنعين حقيقيين (ولذا فإنّ هناك دوماً، في بدء كل دين،

إنساناً يضحّي بنفسه كلّياً). أمّا موقف يكتفي بالتوجيهات والوعود فيعجز عن ذلك دوماً. غير أن ذلك ما فعله تولستوي حتى ذلك الحين، كي يوطد عقيدته في إمكانية تحقيقها، لم يكن أكثر من إشارة بسيطة تدل على التواضع، لم يكن إلا فعلاً رمزياً عن إرادة دينية طيبة، فعلاً يمكن تشبيهه ـ مثلاً ـ بذلك الفعل الذي تفرضه الكنيسة الكاثوليكية على البابا والملوك الذين يحسون إيماناً حيّاً عندما يغسلون أقدام اثني عشر شيخاً يوم الخميس المقدس، أي مرة واحدة في كل عام، بحيث يرى الشعب ويفهم أن أكثر الأعمال تواضعاً ليليق حتى بعظماء الأرض وكبرائها. ولكن كما أن البابا أو امبراطور النمسا أو ملك إسبانيا لا يتجردون، بهذا العمل السنوي الدال على التوبة، عن قوّتهم، ولا يصبحون أبداً مستخدمين في حمام عام، كذلك لا يصبح الشاعر العظيم الذي هو تولستوي إسكافياً، لأنه ينكب ساعة من الزمان فوق القالب والمخرز، ولا يصير فلاحاً قط لأنه يشتغل ساعتين في الحقل، ولا يمسي مستعطياً حقيقياً لأنه قد نقل ثروته إلى عائلته. إن تولستوي لم يفعل في البدء إلا تبيان إمكان ممارسة عقيدته، ولكنه لم يمارسها قط بصورة حقيقية. ولكن الشعب الذي (بغريزة عميقة) لا يكفيه الرمز، ولا يمكن أن يقنعه إلّا كمال التضحية وحده، هذا الشعب قد انتظر بالضبط من تولستوي أن يمارس عقيدته بنفسه؛ لأنّ تلامذته قد فسروا دوماً بصورة أشد دقة وحرفية وقوة من معلمهم، عقيدة هذا الأخير وفلسفته.

ومن هنا تنشأ تلك الخيبة المفاجئة التي يحسّونها عندما يضطرون إلى التحقق؛ إذ يحجّون إلى قرب نبي الفقر الإرادي، إنّ فلاحي ياسنايا بوليانا ما برحوا، مثلهم في أراضي النبلاء الأخرى، يتعفّنون في البؤس ويفنون، بينا هو نفسه، ليون تولستوي، يستقبل ضيوفه، مثله قبلاً، كسيّدٍ عظيمٍ في مسكنه الفخم، بحيث يشكل دوماً واحداً من «طبقة الناس الذين يسلبون، بمختلف الأحابيل، الشعب ويحرمونه من الضروري». إن نقل تلك الأملاك الذي أعلن عنه

تولستوي في صخب عظيم لا يبدو لهم تنازلاً حقيقياً، كما أنّ زهده لا يبدو لهم فقراً صحيحاً؛ ما داموا يرون أنّ الشاعر ما برح يتمتع بكل ما في العيش من رغد ورفاهية مثله قبلاً، لا بل إن تلك الساعة التي يخصصها للزراعة أو لصنع الأحذية لا يمكن أن تقنعهم أيضاً. ويزمجر فلاح عجوز في نقمة واستياء: «أي نوع من الرجال هو هذا الذي يبشر بشيء ويصنع نقيضه تماماً؟»؛ بينا الطلاب والشيوعيون الحقيقيون يعلقون بصورة أقسى على هذا التناقض الملتبس القائم بين العقيدة وبين السلوك. ولا تلبث الخيبة التي يثيرها موقف تولستوي المبهم أن تشمل شيئاً فشيئاً أكثر أنصار نظرياته رسوخاً بالضبط، فإذا رسائل كثيرة، بَلْهَ هجمات رعاعية في بعض الأحيان، تدعوه بشدة متعاظمة دوماً إمّا إلى أفكار عقيدته، وإمّا إلى ممارستها أخيراً بصورة حرفية، وليس بشكل أمثلة رمزية ومؤقتة فقط.

ويعترف تولستوي أخيراً، وقد أذعرته هذه الدعوة، بعظم المطالب التي أثارها... إنه يعترف بأن الأفعال وحدها، وليس الكلمات، إن التبديل التام لوجوده، وليس أمثلة الدعاية فقط؛ يمكن أن تمنح الحياة لرسالته. إن ذلك الذي ينتصب خطيباً وصانعاً للوعود على منصة عامة ـ على أرفع منصة في القرن التاسع عشر ـ يضيئه النور الشديد الذي ترسله مصابيح مجده، وتراقبه ملايين الأزواج من العيون، لا مناص له في النهاية من التنازل عن كل حياة خاصة ومتساهلة، كما لا يكفيه أن يظهر رأيه برموز اتفاقية، بل هو في حاجة إلى تضحية تامة وحقيقية تكون من شهادة ذات قيمة. وهكذا يجد تولستوي نفسه ملزماً، في حياته الشخصية، بواجبات لم تخطر في حسبانه قط عندما ألقى إلى العالم بنداءاته: «لا بدّ للمرء كي يسمعه العالم؛ من سقي الحقيقة بالعذاب، بل أفضل من ذلك بالموت أيضاً».

وهكذا يأخذ تولستوي على عاتقه، وهو مرتجف الأوصال، طافح بالاضطراب،

مرتاب في قوّته، متألم حتى أعمق أعماق نفسه، الصليب الذي تحمّله عقيدته إياه، والذي يقوم في الشهادة لمعتقداته بكل من أفعال حياته دون أي تردد أو حذر، وفي الصيرورة خادماً لعقيدته الدينية مليئاً بالقداسة، في قلب عالم عظيم السخرية، كثير الثرثرة.

الخادم المليء «بالقداسة»: إن الكلمة قد قيلت، بالرغم من سائر ابتسامات السخرية والاستهزاء. ذلك أن القديس يبدو، بكل تأكيد، غير معقول ومستحيلاً تماماً للوهلة الأولى في عصرنا الموضوعي، وكأنه خطيئة زمنية أفلتت من العصور الوسطى التي انقضت واندثرت إلى الأبد. ولكن رموز كل نموذج روحي وشكله الخارجي هي وحدها التي تزول وتفنى، أمّا النموذج نفسه فإنّه يعود دوماً بصورة إجبارية ومنطقية إذا ما دخل مرة في دائرة الأشياء الأرضية، إلى دائرة اللعب اللامتناهي الذي يشمل العلاقات التي نطلق عليها عادة اسم التاريخ. إن بعض الناس، دوماً وفي كل عصر من العصور، سوف يجبرون على الطموح إلى القداسة؛ لأنّ الشعور الديني الذي تتميّز الإنسانية به يحتاج دون انقطاع إلى هذا الشكل الروحي الأمثل، فهو يسعى بالتالي إلى خلقه وإيجاده. لكن تحقيقه المادي يختلف دوماً بالضرورة، حسب التبدّلات البشرية المتعاقبة. إن مفهومنا عن تقديس الوجود لم يعد له أدنى علاقة بهوس وجوه الأسطورة المذهّبة، الذين كانوا يدفنون أنفسهم في القبور، ولا بصلابة آباء الصحراء العموديين[1]؛ لأنّنا قد خلّصنا منذ زمن طويل صورة القديس وحرّرناها من كل صلة بتعاريف مجامع اللاهوتيين ومجالس البابوية. أن يكون المرء قدّيساً، ذلك يعني بالنسبة إلينا في هذه الأيام أن يكون المرء بطلاً ليس غير؛ بمعنى امتثال مطلق لوجوده

(1) بعض المسيحيين الناسكين في القرن الرابع، الذين كانوا يقضون أيامهم على قمة عمود خاص بنوه خصيصاً، وأشهرهم سمعان العمودي، الذي ما برحت وسيلة نسكه قائمة حتى الآن في شمال سوريا.

إلى فكرة يحياها دينياً بكل كينونته. إنّ الإشراق الفكري، تلك الوحدة «المنكرة للعالم» التي عاشها قاتل الآلهة في سيلس ـ مازيا[1]، أو أيضاً ذينك الزهد والتقتير اللذين فرضهما على نفسه قاطع الماس في أمستردام[2]، لا تبدو في أعيننا أدنى أبداً من إشراق أولئك المهووسين الذين يجلدون أنفسهم كي يكسبوا القداسة ويحصّلوها. إن قديس الفكر ما برح ممكناً في أيامنا الحاضرة أيضاً، فيما وراء منطقة المعجزات، في عصر الآلة الكاتبة والنور الكهربائي، في وسط مدننا ذات الزوايا المربعة، المغمورة بالضياء، التي تجتازها جموع من البشر لا حصر لها. إنّ قديس الروح ما برح ممكناً إذن كشاهد حي، ذي لحم ودم، للضمير والوجدان، إلّا أنّه لم تعد بنا حاجة إلى اعتبار هذه الكائنات الرائعة والنادرة ككائنات معصومة إلهيّاً، واقعة خارج حدود كل زوال أرضي، بل إننا ـ على النقيض من ذلك تماماً ـ نحب هؤلاء «المجربين» العظماء، هؤلاء الأرواح المجربة بصورة محفوفة بالأخطار، في أزمانهم ونضالاتهم بالضبط، وحيث نحبهم أكثر من أي مكان آخر، لا نحبهم بالرغم من تعرّضهم للضلال والخطأ دوماً، بل بسبب هذا التعرض بالضبط؛ فجيلنا لا يريد بعد الآن أن يجل قديسيه كمرسلين من اللّه قادمين من عالم آخر فوق أرضي، بل يريد أن يجلّهم على اعتبارهم أكثر الإنسانيين أرضية على وجه الدقة.

ولذا فإن ما يؤثر فينا أكثر من كل شيء آخر في محاولة تولستوي الجبارة كي يعطي حياته شكلاً أمثل، هو شكوكه من دون سواها... إن فشله الإجباري ليلوح لنا أكثر تأثيراً من كل قداسة. وحتى إن كنّا كافرين كل الكفر بعقيدته؛ فإن العذابات التي قاساها بسبب هذه العقيدة تقنعنا بارتفاع مصائره العظيم وسموّها الرائع.

---

(1) يعني نيتشه.

(2) يعني سبينوزا.

وهكذا فإن حياة تولستوي تصبح بالضرورة، في اللحظة التي يقبل في أي المحاولة البطولية التي يريد بها أن يتنازل عن أشكال الحياة الزمنية والاتفاقية، كي يحقق أشكال وجدانه الأبدية فقط. إن حياته تصبح مشهداً مفجعاً، أعظم من سائر المشاهد التي رأيناها منذ ثورة نيتشه وسقوطه. ذلك أن مثل هذا الفصم العنيف لسائر الروابط الاعتيادية التي تتميز بها العائلة، ونبل المحتد، والملكية، وقوانين العصر جميعاً، لا يمكن أن يتم دون أن يمزّق تلك الشبكة العصبية ذات الألف عروة، دون أن يجرح، صاحب العمل أو أقرباءه، وبالصورة الأشد إيلاماً وتعذيباً. ولكن تولستوي لا يخشى الألم، بل إنه ـ على العكس من ذلك، كروسي حقيقي، يعني كمتطرف حتى الدرجة القصوى ـ لا يستسلم عن طيبة خاطر إلى كل من التجارب التي يتعرض لها فحسب، بل إنه متعطش أيضاً إلى العذابات الحقيقية التي ستكون البرهان المرئي عن إخلاصه وصدقه. لقد تعب منذ زمن طويل، وكلّ من الحياة الفاضلة التي يعيشها، فالسعادة العائلية المسطّحة، ومجد آثاره، واعتبار معاصريه له وإجلالهم إياه، جميعها أمور تنفر وتبعث الاشمئزاز في نفسه. إن الإنسان الخالق فيه ليتوق، بالرغم منه، إلى مصير أشد توتراً وأكثر تنوعاً، يتوق إلى الاقتراب أكثر فأكثر من القوى الأساسية للإنسانية، من الفقر، والبؤس والعذاب، التي يتعرف على مغزاها الخلّاق للمرة الأولى منذ أزمته. وكي يثبت بصورة علنية طهارة عزمه على التواضع ونقاوته؛ فإنه يريد أن يعيش حياة إنسان من أدنى الطبقات، لا يملك بيتاً، ولا مالاً، ولا عائلة، حياة إنسان ملطخ بالسخام والأقذار، مصاب بداء القمل، محتقر من الناس، مضطهد من الدولة، محروم من الكنيسة. إنه يريد أن يعيش في جسده الخاص، في عظامه وفي دماغه، ما قد وصفه في كتبه على اعتباره أهم أشكال الإنسان الحقيقي، والشكل الوحيد الذي يتحلى بالخصب الروحي بالإضافة إلى ذلك، يعني حياة ذلك الذي لا وطن له، الذي لا يملك شيئاً، والذي تطرده الريح أمامها

مثل ورقة خريفية. إن تولستوي (وهنا يبني من جديد ذلك الفنان العظيم الذي هو التاريخ إحدى تناقضاته العبقرية والساخرة معاً) يريد، بكل قوى إرادته من أعمق أعماقها، أن يكون له مصير دستويفسكي، نقيضه بالضبط، المصير الذي تحقق بالرغم من إرادة هذا الأخير. ذلك أن دستويفسكي قد عانى كل العذابات المرئية، كل وحشية وصلابة المصير الذي يريد تولستوي في حميّة، بدافع مبدأ تربوي، وبفعل رغبة في الشهادة عاتية جبارة، أن يعانيه ويقاسي أهواله. إن الفقر الحقيقي، المعذِّب، المحرق، الذي يلتهم كل فرح ويأتي عليه، هو بالنسبة إلى دستويفسكي رداء قنطورس[1]، إنه يضرب على وجهه، دون وطن، عبر سائر بلدان الأرض، يقرض الداء جسده، ويجره جنود القيصر حتى عمود الإعدام، ويلقونه في سجون سيبيريا الرهيبة، قد أعطي له بكل حرية كل ما يجده تولستوي ضرورياً كي يبرهن عقيدته، ويحقق مثله الأعلى الاجتماعي؛ بينما لم تمس قطرة واحدة من هذا الكأس شفتي تولستوي المتعطش إلى العذابات بصورة مادية مرئية.

والحقيقة إن إرادة العذاب التي يحسها تولستوي لم تستطع قط أن تتوطد وتتحقق بصورة مرئية بأفعال حسّية. إن قضاءً ساخراً مستهزئاً يقطع عليه سبيل الشهادة في كل مكان. إنه يريد أن يكون معدماً، أن يمنح ثروته إلى الإنسانية، ألّا يكسب بعد الآن مالاً من كتاباته ومن مؤلفاته، ولكن عائلته لا تسمح له أن يكون فقيراً، بل إن ثروته الكبيرة تنمو باضطراد، بالرغم من إرادته، بين أيدي ذويه، إنه يريد أن يكون وحيداً منعزلاً عن الناس، ولكن مجده يغرق داره بالصحفيين والفضوليين الذين لا ينقطعون عن القدوم إليه لحظة واحدة، إنه يريد أن يكون محتقراً، ولكنه بمقدار ما يكيل الإهانات لنفسه ويحط من قدرها

---

(1) قنطورس (كائن أسطوري نصفه إنسان ونصفه حصان) أراد أن يختطف ديجانيرا، امرأة هرقل، ولكنه أصيب بسهم رماه البطل به، وبينما هو يموت أعطى رداءه إلى ديجانيرا كطلسم يعيد إليها زوجها عندما يخونها.

ويحقر آثاره الخاصة ويرتاب في إخلاصه؛ بمقدار ما يتعاظم الاحترام الذي يكنه البشر ويظهرونه له، إنه يريد أن يعيش حياة فلاح في كوخ واطئ، داخن، مجهول من الجميع، لا يعرفه أي إنسان قط، أو أنّ يتيه في الطرقات مثل حاجٍّ أو مستعطٍ معدم، ولكن عائلته تغمره بالعناية، وتدخل حتى إلى ذات غرفته تسهيلات التكنيك الحديث التي يهاجمها بصورة علنية عنيفة، إنه يريد أن يكون مضطهداً، سجيناً، مجلوداً بالسياط («ما أشد ما يصعب عليّ أن أعيش في حرية»، كما كتب ذات مرة)، ولكن السلطات تتنحى عن طريقه مخملة الأطراف، وتكتفي بأن تجلد تلاميذه وتنفيهم إلى سيبيريا.

ولذا فإنه يذهب إلى أقصى الطريق، وينتهي بأن يوجّه الإهانات إلى القيصر نفسه، كي يقتص منه، أخيراً ولو لمرة واحدة، فينفى، ويدان، ويكفّر علنياً عن ثورة إيمانه وتمرده. ولكن نيقولا الثاني يرد على الوزير الذي يقدم إليه الشكوى: «أرجو ألّا يُمسّ ليون تولستوي بأذى، فأنا لا أنوي أن أجعل منه شهيداً». ولكن هذا هو بالضبط ما كان يريده تولستوي في سنواته الأخيرة، أن يصبح شهيداً؛ كي يثبت للبشر صدق عقيدته وإخلاصها، وهذا هو بالضبط ما يرفض القدر أن يمنحه إياه، هذا القدر الذي يذهب حتى درجة حماية هذا الإنسان المتعطش إلى العذابات، فيغمره بعناية تكاد أن تكون خبيثة نوعاً ما حتى لا يصيبه أدنى سوء على الإطلاق. وهكذا يضطرب تولستوي، كالمجنون الذي يرمي بنفسه على جدران زنزانته المصنوعة من المطاط، في سجن غير مرئي من مجده، يبصق على ذات اسمه، ويكشّر في وجه الدولة، والكنيسة، وسائر السلطات، ولكن الجميع يصغون إليه في احترام عظيم، وقد رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم، وأمسكوا بها بين أيديهم في إجلال، ويروحون يدارونه مثل مجنون عريق الأصل لا يخشى أذاه. إنه لم ينجح قط في تحقيق ذلك العمل البيّن، البرهان الأكيد، الشهادة العلانية؛ لأنّ الشيطان قد وضع المجد فيما بين إرادة الإخلاص عنده وبين الواقع، كي

يخفف من شدة سائر الضربات التي يمكن أن يكيلها القضاء له، ويمنع العذاب من البلوغ إليه.

ولكن تشكيك سائر أنصاره يسأل في صبر فارغ، مثلما تسأل سخرية خصومه في استهزاء أيضاً: ولكن لماذا لا يضع ليون تولستوي في عزم حداً نهائياً لهذا التناقض المؤلم؟ لِم لا يطرد من داره الصحفيين والمصورين؟ لِم ينفذ دوماً، بدلاً من إرادته الخاصة، إرادة المحيطين به الذين يعلنون بصورة مقتنعة في احتقار تام لتعاليمه أنّ الثراء والرفاهية هما أعظم خيرات الأرض على الإطلاق؟ لماذا يتصرف أخيراً بوضوح ودون تناقض، حسب ما يأمره وجدانه به؟ إن تولستوي لم يجب قط على هذا السؤال الرهيب الذي يطرحه البشر عليه، كما لم يعتذر عن ذلك قط، بل إن الأمر على النقيض من ذلك تماماً، إذ ليس أي من أولئك الثرثارين العاطلين الذين يظهرون بإصبعهم القذرة التناقض البيّن القائم بين إرادة تولستوي والواقع، قد أدان ذلك الالتباس بمثل القسوة التي أدانه بها تولستوي نفسه. لقد كتب في «مذكراته» في عام 1908: «لو سمعت الناس يقولون عني، وكأن الأمر يتعلق بإنسان غريب، هذا رجل يعيش في البذخ، يسلب الفلاحين كل ما يستطيع أن يسلبهم إياه، ويزج بهم في السجون. وهو يؤمن بالمسيحية ويبشّر بها في الوقت نفسه، ويعطي صدقات لا تزيد عن خمس كوبيكات، ويختبئ في سائر أفعاله القبيحة خلف زوجته العزيزة، فلن أتردد لحظة في نعت مثل هذا الشخص بالخبيث واللص. وذلك هو بالضبط ما يجب أن يقال لي، حتى أنتزع نفسي من غرور العالم، فلا أعود أحيا إلّا بحياة النفس وحدها». كلا، لا حاجة لأي إنسان كي ينير تولستوي التناقض القائم بين إرادته وسلوكه؛ فقد كان هذا التناقض يمزّق نفسه يومياً دون انقطاع. وعندما اخترق هذا السؤال ـ في «مذكراته» ـ وجدانه مثل حديد أحمر مشتعل: «قل، يا ليون تولستوي،

هل تعيش حسب مبادئ عقيدتك؟»، أجاب في حنق يائس: «كلا، إني أموت من الخجل والعار، فأنا مذنب، وأستحق الاحتقار».

كان يدرك بكل وضوح أنّه لم يعد أمامه، منطقياً وأخلاقياً، بعد إعلان دستور إيمانه على رؤوس الأشهاد، إلّا طريقة واحدة ممكنة للحياة: أن يهجر منزله ويتنازل عن ألقاب نبله، ويهمل فنّه و«يذهب مثل أحد الحجاج في طرقات روسيا». ولكنه، هو الرسول، لم يستطع قط أن يحمل نفسه على اتخاذ مثل هذا القرار الأمثل، والضروري للغاية؛ لأنّه القرار المقنع الوحيد. ولكن سرّ ضعفه الأخير ذلك بالضبط، هذا العجز في نفسه عن تحقيق الإيمان الذي وضع مبادئه، يعني بالنسبة إلي جمال تولستوي الأسمى. ذلك أن الكمال مستحيل دوماً إلّا فيما وراء الأمور البشرية؛ فالقديس، حتى إن كان رسول الوداعة، يجب أن يقدر على أن يكون قاسياً، يجب أن يقدر على أن يطلب من تلامذته هذا الشيء الذي يكاد أن يكون فوق إنساني وغير إنساني، ألا وهو هجر الأب والأم والزوجة والأبناء، في لا مبالاة وعدم اكتراث، كي يبلغوا إلى القداسة. إن حياة كاملة ومنطقية بصورة مطلقة لا يمكن أن تتحقق إلا في الفراغ العاري لفردية منعزلة، كل الانقطاع عن كل رابطة أو علاقة مع الغير؛ وذلك هو السبب في أن درب القديس، في مختلف العصور، تقوده إلى الصحراء دوماً، فكأنّ الصحراء هي المسكن الوحيد والدار الوحيدة اللائقان به. وهكذا فإن تولستوي أيضاً، إذا كان يريد أن يحقق بالأفعال النتائج القصوى لعقيدته؛ يتوجّب عليه إذن أن يتحرر ليس من روابط الكنيسة والدولة فحسب، بل أيضاً من تلك الدائرة الأضيق، والأحرج، والأثقل، دائرة العائلة... لكن القوى قد أعوزته، طوال ثلاثين عاماً، في سبيل تحقيق هذا الفعل من العنف الخالص. لقد هرب مرتين، ولكنه عاد أدراجه في كلتا المرتين؛ لأنّ مجرد التفكير في أن زوجته التي سيحطمها هذا الفرار لقمينة بأن تنتحر كان يشلّ فيه كل طاقة متوحشة. إنه لا يستطيع أن يحزم أمره (وههنا خطيئته

الروحية وجماله الأخلاقي في وقت واحد!) على التضحية بكائن إنساني واحد في سبيل أفكاره المجردة. وهكذا فإنه يتحمل في صبر، وهو يزمجر، سقفاً جماعية جسدية فقط تثقل عليه وتضطهده، بالأحرى من أن يثير حنق أبنائه وغضبهم، ويدفع بزوجته إلى الانتحار. إنه يستسلم دوماً في القضايا الحاسمة، كقضيتي وصيته وبيع كتبه مثلاً، وهو يناضل في يأس طوال الوقت، وإن ظل بالرغم من ذلك أكثر إنسانية من أن يجرح شعور عائلته بأفعال يمليها العنف عليه، ويفضل أن يتعذب شخصياً من أن يجعل الآخرين يتألمون. إنه يكتفي، في ألم شديد، بأن يكون إنساناً ناقصاً، من أن يكون قدّيساً صلداً كالصخر الأصم.

وهكذا فإنّ الخطيئة القائمة في كونه فاتر الحرارة يعوزه الإخلاص تقع على عاتقه، وعلى عاتقه فقط، في أعين الناس. إنه يعرف أنّ كل صبي صغير يملك الحق بعد الآن في السخرية منه، وإنّ كل إنسان مخلص يملك الحق في الارتياب به، وإن كلًّا من أنصاره يملك الحق في إدانته، ولكن ما يشكل بالضبط، أكثر من كل شيء آخر، صبره العظيم طوال هذه السنوات القاتمة، هو قبوله هذا الاتهام بعد الإخلاص، مطبق الشفتين متقلصهما، دون أن يعتذر مرة واحدة. وإنه ليكتب منفعلاً، في عام 1858، في «مذكراته» هذه الكلمات: «إن مركزي محفوظ أمام الناس، ولعله من الضروري أن يكون كذلك». ويأخذ شيئاً فشيئاً بالتعرف على المغزى الخاص الذي تتصف به التجربة التي يخضع لها، ألا وهو أن شهادته المجردة عن الظفر، إن طريقته في التألم من الظلم الواقع عليه دون أن يدافع عن نفسه أو يعتذر؛ تشكّل فعلاً أشد إيلاماً وأكثر أهمية ممّا يمكن أن يكون في الشهادة في ساحة عامة من ألم وأهمية؛ هذه الشهادة الأخرى المسرحية التي طلبها لمصيره طوال سنوات عديدة: «لقد رجوت كثيراً أن أتعذب وأتحمل الاضطهاد، ولكن هذا يعني أني كنت جباناً رعديداً، وأني كنت أريد أن أجعل الغير يعمل في مكاني، بمعنى أنّه كان يعذبني، بينا لا يبقى لي أنا سوى أن

أتعذب بكل بساطة». إن أكثر البشر فراغ صبر، ذلك الذي كان يغطس بكل طيبة خاطر، وبقفزة واحدة ليس غير، في جوف العذابات، والذي كان يقبل بلذة فائقة تقريباً أن يحترق على مذبح عقيدته وإيمانه؛ ليعترف بأن تجربة أقصى بما لا يقاس قد فرضت عليه، ألا وهي هذا الاحتراق البطيء على نار تضطرم، وازدراء أولئك الذين لا يعرفونه، وقلق وجدانه الأبدي، هذا الوجدان الذي يعرف مع ذلك واقع الأمر وحقيقته.

إنه مجبر في كل لحظة على الاعتراف بتردده وتناقضه مع نفسه، وعلى إدانة نفسه والاقتصاص منها لإهمالها، واحتقارها لغرورها الخاص، وإن كان يحس في الوقت ذاته أن هذا القلق ضروري له، فيكتشف فيه بالضبط ـ هو الذي وُلد عزيزاً متكبراً ـ ضعفه وعيبه الخاصين. إنه مضطر دون انقطاع إلى الاعتراف بأنه عاجز عن إملاء رسالته المثلى، القائمة في أن يحيا وجوداً أمثل، وأنه عاجز عن تحقيق أكثر رغباته سرّية وعمقاً، الكامنة في أن يعيش حياة مقدسة ومتفقة مع مبادئه. إنه ملزم على الاعتراف، في خجل لا حدود له، بأنه عاجز عن تكميل ما يطلبه من الإنسانية جمعاء في حياته الخاصة، وإن هذا العذاب الخفي الذي يقرضه باطنياً يجعل سنوات ليون تولستوي الأخيرة أشد أسىً من كل بطولة خارجية، ومن منطق عقيدته، وتطبيقها الحرفي، اللذين كان يمكن أن يحققهما في أسلوب حياته، بحيث تبدو لنا إرادة هذا الأخلاقي الكبير متضاعفة العظمة والتأثير؛ بالضبط لأنه لا يرضي، لا يستطيع أن يرضي مطالبه الأخلاقية الخاصة التي ينادي بها ويبشر.

ولكن تولستوي، هذه العبقرية العديمة الرأفة الموجهة نحو استكشاف الأنا ـ وهو أقسى على نفسه من أي إنسان آخر يقسو عليه ـ ليذهب في إحدى الساعات السرّية إلى ما لا نهاية، حتى درجة الارتياب في إخلاص إرادته نفسها. إن ما كان خصومه يهمسون به في الخفاء أحياناً، ألا وهو أنّه قد اتخذ الدور

العاطفي لمخلّص العالم ورسول الإنسانية العلني، ليس بروح الإخلاص والأمانة، بل بدافع من الإرضاء المسرحي تجاه أناه الخاصة، بدافع من المجد الباطل والغرور الرديء، إن هذا الارتياب الرهيب قد صاغه تولستوي ضد نفسه بصورة لا تعرف للرحمة معنى، ولا إلى الشفقة سبيلاً، وذلك في ساعة من ساعات الوحدة التي يقوم فيها بفحص روحي لشخصه وأناه. إن من يريد أن يعرف حتى أية أعماق قد عذب تولستوي وجدانه كي يبلغ إلى الإخلاص الأمثل؛ لا يلزمه إلّا أن يقرأ هذه القصة التي وجدت بين أوراقه بعد وفاته، والتي تحمل عنوان «الأب سيرج». ومثله مثل القدّيسة تيريزا المذعورة من رؤاها، التي تسأل معرّفها في قلق واضطراب إن كانت هذه البشائر قد أُرسلت إليها من قبل اللّه حقاً، وليس من قبل نقيض هذا الأخير، ربما، الشيطان، في سبيل امتحان كبريائها، هكذا يتساءل تولستوي في قصته هذه إن كانت أصول عقيدته وسلوكه أمام البشر إلهّية حقاً، يعني أخلاقية وجيدة، فهي لا تصدر إذن عن شيطان الغرور ومحبة المجد والبخور. وإنه ليصف، في هذا القدّيس، تحت ستار شفّاف جداً، مركزه في ياسنايا بوليانا: إن التائبين والمعجبين يأتون إلى قرب الراهب صانع المعجزات، مثلما يأتي إلى قربه، هو تولستوي، المؤمنون، والفضوليون، وحجاج الإعجاب. ولكن هذه الصورة طبق الأصل عن وجدانه لتتساءل، مثل تولستوي نفسه، في ملء الضوضاء التي يثيرها أنصاره، إن كان يملك، هو الذي يجلّه جميع الناس كقدّيس كبير، قلب قديس حقاً، إنه يتساءل: «حتى أية درجة أصنع ما أصنعه محبةً في اللّه؟ وحتى أية درجة أصنعه محبة في الناس فقط؟». ويجيب تولستوي على سؤاله، بلسان الأب سيرج، بصورة ساحقة مرهقة:

«كان يحس في أعماق نفسه أن الشيطان قد وضع مكان جهوده الموجهة نحو اللّه محركاً آخر للسلوك توحي به الرغبة في المجد البشري وحدها، كان يحس ذلك؛ لأنه مثلما كان يغتبط فيما مضى عندما لا يأتي أحد يعكر عليه صفو

عزلته، فإن هذه العزلة قد أصبحت الآن عذاباً مضنياً بالنسبة إليه. كان يحس أن الزائرين يضايقونه، وأنهم يتعبونه ويرهقون قواه، ولكنه يغتبط في أعماق قلبه، بالرغم من كل شيء، إذ يراهم، ويتهلّل عندما يسمع كلمات المديح التي يغمرونه بها. وكان ينقصه دوماً الوقت اللازم لتربيته الروحية وصلواته، فيخيّل إليه أحياناً أنّه أشبه ما يكون بمكان قد انبثق ينبوع منه، ينبوع صغير من الماء الحي، صادر عن أحشائه، متدفق بفضله، لكن الماء لم يعد يستطيع الآن أن يتجمع عندما يتأصّص المارّون العطاشى على ضفافه ويتدافعون بالمناكب. لقد داسوا على كل شيء، فلم يبقَ بعد الآن إلّا الطين وحده... الآن لم يعد في صدره حب، ولا تواضع ولا طهارة».

ولقد رفض تولستوي دوماً، بمثل هذا الثبات، وبمثل هذه الشدة على نفسه أن يصدق أن تألهه بصورة قدّيس أمر ممكن: إنه لم يعتبر نفسه قط إلّا كائناً يبحث ويتحسس، إنساناً يجهد بصعوبة عظيمة، وفي وسط عيوب ونواقص لا حصر لها، أن يذهب نحو اللّه. وإنه ليتساءل، في قلق واضطراب عظيمين، بلسان صورته: «ولكن أفلم يكن هناك إرادة في خدمة اللّه؟». وبالرغم من أنّ الجواب يأتي محطّماً كل أبواب القداسة، في وضوح لا يرحم وشدة لا تلين متردداً في هذه الكلمات العنيفة: «بلى، لقد كانت هذه الإرادة موجودة، ولكن المجد قد أفسد كل شيء ودنّسه. إن اللّه لا يوجد بالنسبة إلى من عاش، مثلي، في سبيل المجد البشري»، فإن بريقاً من الرجاء يرتجف في حياء، كما في قعر منجم من المتفجرات قد انهدم: «ولكني أريد أن أبحث عنه».

«أريد أن أبحث عنه». إن هذه الكلمات تحوي إرادة تولستوي الأكثر إخلاصاً، وتضم مصيره الذي ليس هو العثور على اللّه، بل للبحث عنه، الذي ليس هو صياغة الجواب الذي تتوق الإنسانية إليه، بل مساعدة هذه الإنسانية على طرح أسئلة جديدة، وعلى إثارة مشاكل جديدة في إخلاص أكثر، وبصورة أشد قسوة

ممّا فعله أي إنسان من قبل. إن تولستوي لم يصبح قدّيساً، لم يصبح نبيّاً مفتدياً للعالم، بل إنه لم يستطع حتى إعطاء حياته شكلاً واضحاً وشريفاً بصورة تامة ومطلقة، لقد بقي دوماً إنساناً مثل الآخرين، مليئاً بالعظمة في بعض الأحايين، ومن ثم، بعد برهة وجيزة مباشرة، مسكيناً وغارقاً في الكذب؛ إنساناً لا يبرأ من الضعف، والنواقص، والتناقضات، والالتباسات، لكن واعياً دوماً لأخطائه في التو واللحظة، مجرباً في اندفاع لا مثيل له في أن يسير نحو الكمال.

إنه لم يكُ قدّيساً، لكن إرادة قدّيسة، لم يكُ مؤمناً، لكن إيماناً عملاقاً، لم يك صورة عن الإلهي، هادئة، مطمئنة، ومنطوية على نفسها في كمالها الخاص، بل رمز إنسانية لن تقف قط في دربها؛ لأنها لن ترضى أو تقنع قط، فهي أبداً في نضال دائم، في كل يوم وفي كل ساعة، كي تبلغ إلى شكل أكثر طهارة ونقاء مما كانت عليه.

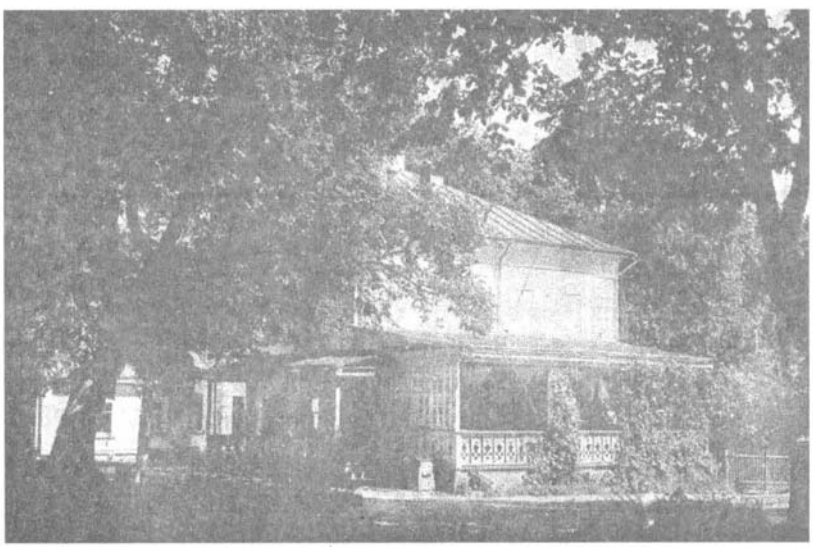

أحد مشاهد ياسنايا بوليانا: «شجرة الفقراء» إلى الأيسر من الصورة

# يوم من حياة تولستوي

**«لست مرتاحاً في عائلتي؛ لأنّي لا أستطيع أن أقاسم أهلي عواطفهم. إنّ كل ما يبهجهم، الامتحانات المدرسية، والنجاحات الدنيوية، والمشتريات، كل هذا أعتبره بؤساً وشرّاً بالنسبة إليهم، ولكنّي لا أستطيع أن أصرّح به. وفي الحقيقة أنّي أستطيعه وأفعله أيضاً، ولكن لا أحد يفهم كلماتي قط».**

**«تولستوي**
**«المذكرات»**

إليكم كيف أتصور، بفضل شهادات أصدقائه واعترافاته الخاصة، يوماً من أيام تولستوي، مأخوذاً من عداد ألف من الأيام المشابهة.

إن النعاس يسيل، منذ الصباح الباكر، رويداً رويداً من أجفان الرجل العجوز، فيستيقظ، ويتطلع حواليه: إن ضياء الفجر يلون منذ الآن زجاج النوافذ... إن النهار يبدأ. وينبثق التفكير من الأعماق المظلمة، فإذا الشعور الأول الذي ينتابه هو شعور دهشة سعيدة: «إني ما برحت أحيا». لقد تمدد في العشية، مثلما يفعل في سائر الليالي على الإطلاق، في تواضع استسلام مطلق يقبل عدم النهوض في الصباح، فخط مرة أخرى في «مذكراته»، تحت نور المصباح المتأرجح، هذه الأحرف إلى جانب تاريخ الغداة: إ. ب. ح. (إذا بقيت حيّاً). يا عجباً، إن هبة

الوجود قد منحت له مرة أخرى، إنه يعيش، إنه يتنفس، إنه في صحة جيدة! إنه يستنشق، مثل تحية مرسلة من اللّه، الهواء والنور ملء رئتيه، وبكل نهم عينيه الرماديتين! يا عجباً، إنه ما زال يحيا، إنه ما برح في صحة جيدة!

وينهض الرجل العجوز، وهو يطفح امتناناً، ويتجرد من ثيابه جميعاً، فيلوّن تدفق الماء المتجلد بالحمرة الصحية جسده المتين دوماً، ويروح يطوي قامته ويقومها، في فرحة الرياضي المحترف حتى تئن الرئتان، وتطقطق المفاصل، ومن ثمّ يرتدي قميصه ورداءه المنزلي، ويلف بهما جلده المفروك حتى الاحمرار، ثمّ يفتح النوافذ بعد ذلك، ويكنس غرفته بنفسه، ويرمي في النار بقطع الخشب التي تصرخ في اللهيب وتطقطق في حيوية... هكذا يخدم نفسه، دون معونة أحد قط.

ومن ثم يهبط كي يتناول إفطاره، حيث تنتظره صوفيا اندرييفنا، وبناته، وأمين سرّه، وبعض الأصدقاء. إن الشاي يغلي في السماور، وأمير سره يحمل إليه، في صينية خاصة، الكوم المتنوع للرسائل، والمجلات، والكتب الواردة إليه، والمزيّنة بطوابع صادرة عن جهات العالم الأربع، وينظر تولستوي في استياء شديد إلى هذا البرج من الورق، ويفكر في صمت:

ـ «تملق وإضجار، وإقلاق راحة إلى أية حال. يجب أن يكون المرء أكثر وحدة مع نفسه ومع اللّه، وألا يلعب دوماً بسرة الكون. يجب أن يبعد عنه كل ما يدفعه إلى الاضطراب والشرود، كل ما يدفعه إلى التكبر، والغرور، والانسياق وراء المجد الزائف وعدم الإخلاص. يُفضَّل أن أرمي بكل هذه الأشياء في المدفأة؛ كيلا أبعثر نفسي وأدخل إليها خطيئة الكبرياء».

ولكن الفضول يتغلب عليه، فينبش بأصابعه سريعة اللمس هذه الكومة المضطربة من التوسلات، والاتهامات، وطلبات الصدقة، واقتراحات الأعمال،

وإعلانات الزيارة، والثرثرات المضطربة الفارغة. هذا براهماني يكتب من الهند أنّه قد فهم بوذا بصورة سيئة، وهذا مجرم حكم عليه بالأشغال الشاقة يروي قصة حياته ويسأل النصح، وهؤلاء فتيان يتوجهون إليه في مشاكلهم، وشحاذون يلتفتون إليه في بؤسهم، والجميع يستديرون نحوه في تواضع على اعتباره ـ حسبما يقولون ـ الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يساعدهم، على اعتباره وجدان هذا العالم بأسره. وتنحفر غضون جبينه أشد عمقاً منها قبل لحظات.

ويتساءل:

ـ «من أستطيع أن أمد له يد المعونة، أنا الذي لا أعرف كيف أمد يد المعونة لنفسي؟ إني أتيه من يوم لآخر، وأفتش عن معنى جديد كي أتحمل هذه الحياة التي لا يسبر غورها، وأتحدث في خيلاء عن الحقيقة كي أوهم نفسي وأضللها. فأي عجب إذن أن جاء سائر هؤلاء القوم وراحوا يهتفون: «يا ليون نيقولايفيتش، علمنا الحياة!؟» إن ما أصنعه ليس إلا كذباً، وادعاءً، وبهلوانية. وفي الحقيقة إني تعبت منذ فترة طويلة؛ لأني أبذل نفسي وأبعثرها في ألوف وألوف من البشر، بدلاً من أن أنطوي على ذاتي، لأني أتكلم، وأتكلم، وأتكلم، بدلاً من أن أعتصم بالصمت وأصغي في سكون إلى صوت الحقيقة الداخلي. ولكني لا أستطيع أن أخيب رجاء البشر في ثقتهم... يجب أن أجيبهم».

ويمسك برسالة فترة أطول من بقية الرسائل، ويقرؤها مرتين، بَلْهَ ثلاث مرات: إنها واردة من طالب يهينه بصورة حانقة لأنه يبشر باستعمال الماء، وهو نفسه يشرب النبيذ دوماً. لقد حان الوقت أخيراً كي يغادر بيته، ويعطي خيراته للفلاحين، ويصبح تائهاً في طرقات اللّه الواسعة.

ويفكر تولستوي:

ـ «إنه على حق، إنه يتحدث مثل وجداني، ولكن كيف أفسر ما لا أستطيع أن أفسره لنفسي؟ كيف أدافع عن نفسي، ما دام يهاجمني ويتهمني بنفس اسمي؟».

ويتناول الرسالة وينهض نحو غرفة عمله كي يجيب عليها في التو واللحظة، فيتقدم إليه أمير سرّه قرب الباب، ويذكره أن مراسل «التايمس» سيحضر عند الظهيرة من أجل المقابلة: هل يجب استقباله؟... ويظلم محيّا تولستوي:

ـ «دوماً هذه المضايقات؟ ما عساهم يريدون منّي؟ أن يلقوا فقط على وجودي نظراتهم البلهاء. إن كل ما لديّ من الأقوال موجود في كتاباتي، وسائر من يعرفون القراءة يستطيعون أن يفهموها».

ولكن بعض الضعف المجبول من الغرور سريعاً ما يحمله، بالرغم من كل شيء، على الموافقة والرضوخ.

ويقول:

ـ «فليكن! ولكن سأمنحه نصف ساعة فقط».

ولا يكاد يجتاز عتبة غرفة العمل، حتى يروح ضميره يزمجر:

ـ «لِم رضخت مرة أخرى؟ إني أتصرف دوماً، وقد شاب شعري وأصبحت على قاب قوسين أو أدنى من الموت، كمغرور متباهٍ، وأستسلم إلى ثرثرة البشر البلهاء. إني أضعف دوماً، كلما طلبوا مني شيئاً بصورة متملقة. متى أتعلم أخيراً أن أختبئ، أن أصمت؟ ساعدني يا رب، ساعدني إذن».

هذا هو، أخيراً، وحيد مع نفسه في غرفة عمله. إن منجلاً، ومجرفة، وفأساً، قد علقت جميعاً على الجدران العارية، بينما ثبت كرسي ضخم في الأرض اللامعة كثيراً أمام المائدة العارية، أشبه بالأرومة منه بالمقعد... تلك غرفة نصف رهبانية، نصف فلّاحية. إن عمل البارحة، ولمّا ينتهِ بعد، ما برح مستريحاً على المائدة: «أفكار عن الحياة». إنه يعيد قراءة كلماته نفسها، ويمحو منها شيئاً، ويبدل شيئاً، ويكتب شيئاً جديداً. إن خطه ما يزال دوماً سريعاً، كبيراً جداً مثل خط ولد صغير. وسرعان ما يتوقف عن الكتابة!

ـ إني سطحي كثيراً، متسرع جداً. كيف أستطيع أن أتحدث عن اللّه ما دامت مفاهيمي في هذا الشأن لم تتضح بعد، ما دمت أنا نفسي لا أملك اليقين حتى الآن، وما دامت أفكاري تترنح من يوم لآخر؟ كيف أستطيع أن أكون دقيقاً ومفهوماً من سائر البشر عندما أتحدث عن اللّه، الذي لا يمكن التعبير عنه، وعن الحياة التي تظل على الدوام ممتعة عن الإدراك؟ إن ما أقدم عليه ههنا ليتجاوز قواي. يا ربي، كم كنت أسير، فيما مضى، بثبات ويقين عندما كنت أكتب مؤلفات أدبية، وأقدم إلى البشر الحياة كما جعلها اللّه أمام أعيننا، وليس كما أرغب أنا، الرجل العجوز المضطرب القلق، أن تكون في الواقع! أنا لست بالقدّيس، كلا... أنا لست قدّيساً، ويجب عليّ ألّا أعلّم البشر... أنا لست إلّا رجلاً قد وهبه اللّه، كي يرى الكون الذي خلقه، عينين أكثر استنارة، وحواسّ أفضل ممّا وهبه لآلاف من الآخرين. ولربما كنت يومئذٍ، عندما كنت لا أفعل سوى خدمة الفن، أصدق وأفضل مني الآن حين ألعن ذلك الفن بصورة غير معقولة.

ويتوقف، ويتطلع فيما حوله بالرغم منه، فكأن أحداً يتجسس عليه، ومن ثم يغدو إلى درج سرّيٍّ ويتناول منه الروايات التي يعمل فيها حالياً في الخفاء (لأنه قد احتقر الفن علناً وأذلّه، على اعتباره «تفاهة» و«خطيئة»). هذان هما المؤلفان المكتوبان سراً والمخبآن عن عيون الناس: «الحاج مراد»، و«الورقة المفقودة...». إنه يتصفحهما، ويقرأ بعض صفحاتهما، فتشرق عينه من جديد:

ويشعر في صميم نفسه:

ـ بلى، إن هذا المكتوب جيد، إن هذا لجيد! إن اللّه قد دعاني كي أصف عالمه فقط، وليس كي أخمّن أفكاره. ما أروع الفن، وما أشد طهارة الإبداع الفني، وما أكثر إيلام الفكر الفلسفي! ما أشد ما كانت سعادتي يومئذ، عندما كنت أكتب هذه الأوراق! كنت أنا نفسي أذرف الدموع عندما كتبت أصف الصباح الربيعي في «السعادة الزوجية»، بَلْهَ إن صوفيا أندرييفنا كانت تأتي إلي، حتى في الليل،

متوهّجة العينين وتقبّلني... وبينا كانت تنسخ كتاباتي، كانت تحس نفسها مجبرة على التوقف عن ذلك كي تشكرني، وكنا نقضي الليل بطوله سعيدين هانئين، كنا نقضي العمر بأسره. ولكني الآن لا أستطيع أبداً أن أعود القهقرى. ليس يحق لي أن أخدع الناس وأخيّب رجاءهم، بل لا بدّ لي من الاستمرار في التقدم في الدرب التي بدأتها؛ لأنّ البشر يأملون منّي، في بؤس نفوسهم، المساعدة والمعونة. يجب عليّ ألّا أتوقف؛ لأنّ أيامي قد أصبحت معدودة.

ويصعد تنهيدة عميقة، ومن ثم يعيد الأوراق إلى مكانها من الدرج السرّي، ويتابع الكتابة في أبحاثه الفلسفية مثل كاتب مأجور، أخرس، سيئ المزاج، وقد احتفرت الغضون جبينه، وانخفضت ذقنه كثيراً حتى إن لحيته البيضاء تروح، هي الأخرى، تحك الورق مثل ريشته، مثيرة تلك الضوضاء التي تصدر عادة عن الأشياء التي تتجعد.

هذه الظهيرة أخيراً! كفى عملاً هذا النهار! إنه يرمي الريشة بعيداً عنه، وينهض بقفزة واحدة، ويهبط السلم بخطواته القصيرة الخفيفة وهو يدوم في رشاقة أثناء ذلك. إن السائس يمسك «دلير»، فرسه المفضلة، جاهزة مهيأة للركوب، فيعتلي تولستوي السرج بقفزة واحدة، فإذا القامة التي كانت منحنية أثناء الكتابة تنتصب منذ الآن، فيبدو صاحبها أكبر منه قبلاً، وأقوى، وأكثر حيوية، بينا هو يندفع نحو الغابة، مستقيم العود، رشيقاً حراً مثل قوزاقيٍّ فتىً على صهوة الحصان ذي الحوافر الضيقة. وتتموج لحيته البيضاء، وتسبح في الريح، وهو يفتح شفتيه الواسعتين في لذة فائقة، كي يبتلع إلى باطنه ذفرة الحقول حتى أقصى درجة ممكنة، وكي يحس الحياة، الحياة الحية، في جسده الذي يشيخ، فإذا لذة الدماء التي تزعزت تزمجر بحرارة وعذوبة في أوردته حتى أطراف أصابعه، وحتى قوقعة أذنه الصمّاء.

وفي اللحظة التي يهم فيها بدخول الغابة الفتية، يتوقف بغتة كي يرى، كي

يرى مرة أخرى كيف تفتحت الأزهار الدبقة من جديد، تحت تأثير شمس التجدد، وراحت ترفع نحو السماء اخضراراً دقيقاً مرتجفاً، ناعماً مثل تطريز رائع جميل. ويحث الحصان، بضغط عنيف من فخذيه، صوب أشجار السندر، وعيناه الحادتان كعيني العقاب تلاحظان في انفعال عظيم كيف يتنزه النمل على اللحاء، الواحدة منه في إثر الأخرى، سالكاً الاتجاهين معاً، مشكّلاً مسبحة مجهرية فائقة البهاء، وبعض أفراده محملون منذ الآن ببطن ضخم، بينا الآخرون يحاولون أن يمسكوا طحين الشجرة بفكوكهم الصغيرة الخيطية. ويظل هناك ـ البطريرك الأشيب ـ طوال بضع دقائق، جامداً في إعجابه، يتطلع إلى هذا المشهد العظيم في صغره، ودموع حارة تسيل مدرارة في لحيته.

ما أشد روعتها، هذه المرآة الإلهية عن الطبيعة، التي تحوي دوماً، منذ سبعين عاماً، عجائب جديدة؛ الخرساء والبليغة في وقت واحد، الطافحة أبدياً بالصور، النابضة بالحياة دوماً، والأكثر حكمة في صمتها من سائر الأفكار ومختلف الأسئلة! وتنفخ الفرس تحته وقد نفذ صبرها، فيستيقظ تولستوي من تأمله العميق، ويضم عطفي الفرس بشدة بين ركبتيه كي يحس منذ الآن، في صفير الريح، ليس الأشياء الصغيرة الدقيقة فحسب، بل حميّا الحواس اللاهبة وهواها الجامح أيضاً. ويخب، ويخب، ويخب، سعيداً مجرداً عن كل فكرة، ويجتاز هكذا عشرين فرسخاً، حتى يغطّي عرق لامع عطفي الفرس بزبد أبيض، وعندئذ يوجّهها نحو الدار في عدْوٍ هادئ. إن عينيه نور بكاملهما، ونفسه قد ارتاحت وانبسطت، وهو سعيد طرب مثله يوم كان يمر خلال هذه الغابات، وهو ما برح طفلاً بعد، فبهذه الدرب ذاتها المألوفة لديه منذ سبعين عاماً، هو الذي أصبح الآن عجوزاً، أصبح إنساناً عجوزاً جداً.

ولكن محيّاه المشرق يظلم على حين غرة عندما يشارف على القرية. إن عينه العارفة قد تفحصت الحقول: ههنا، في قلب أراضيه، بقعة من الأرض مهملة لم

يحسن الاعتناء بها، قد تعفّن سياجها وزال نصفه وتلاشى كي يشعل ناراً بكل تأكيد، بينا التربة قد ظلت دون حراثة على الإطلاق. ويجتاحه الحنق، فيتقدم على جواده يسأل إيضاحاً، فتخرج إليه من الباب امرأة مشحرة الوجه، عارية القدمين، شعثاء الشعر، منخفضة النظر، قد تعلّق بثوبها الممزّق طفلان أو ثلاثة أطفال نصف عراة يتملّكهم ذعر شديد، وطفل رابع يصرخ أيضاً فيما وراءها، في داخل الكوخ الوطئ الداخن. ويسأل، مرتفع الحاجبين، عن السبب في هذا الإهمال، فتبكي المرأة وتنطق بكلمات لا تتابع فيها: إن زوجها في السجن منذ ستة أسابيع، وقد اعتقل لأنه سرق حطباً. كيف تستطيع أن تعتني بالأرض من دونه، هو الرجل القوي الدؤوب على العمل؟ أما هو فلم يسرق الحطب إلّا عندما دفعه الجوع إلى ذلك وأرغمه عليه. إن سيدي الكونت يعرف هو نفسه معنى الموسم السيئ، وارتفاع الضرائب، وأجرة الأرض بالإضافة. وعندما ينظر الأطفال إلى أمهم تبكي، يأخذون هم الآخرون بالصياح، فيمد تولستوي يده سريعاً إلى جيبه، ويناول المرأة قطعة من الفضة كي يضع حدّاً لكل إيضاحٍ لاحق، ومن ثم يولّي الأدبار بأقصى سرعة ممكنة فكأنه هارب من السجن. لقد أظلم محيّاه، وتلاشت فرحته.

ـ هذا إذن ما يجري على أرضي؟ كلا، بل على الأرض التي أعطيتها لزوجتي وأبنائي. ولكن لماذا أخفي دوماً ذنبي وخطيئتي وراء زوجتي؟ إنّ نقل أملاكي إليهم لم يكن إلّا مهزلة مُثّلت في سبيل خدع العالم، ولم يكن شيئاً آخر قط، إذ مثلما تغذيت أنا بعناء الفلاحين، فإن أهلي يمتصون الآن أموالهم ويتركونهم في مثل هذا البؤس الشديد. إني أعرف ذلك حق المعرفة: إن كل آجرة استعملت في بناء المسكن الذي أقطن فيه قد صنعت بعرق هؤلاء العبيد... إنها من جسدهم وتعبهم مجبولين. كيف أمكن أن أعطي زوجتي وأولادي ما لا يخصني، أرض هؤلاء الفلاحين التي يحرثونها ويستثمرونها؟ يجب أن أخجل أمام الذي أُبشّر

باسمه، إني أُبشّر، أنا ليون تولستوي، بالعدالة، بينا أتفرّج يومياً، من نافذتي، على مشهد بؤس الآخرين وشقائهم. لقد أصبح محيّاه غضباً بأسره، وازداد ظلمة أكثر فأكثر عندما دخل، بعد أن مر أمام الأعمدة الحجرية، إلى حصن الدار الفخمة، فاندفع الخادم في لباسه الرسمي والسائس الذي ينتظر عودته، وخرجا من الباب بسرعة عظيمة كي يساعداه على النزول عن صهوة جواده. ويهتف حانقاً في وليجة نفسه، وقد اجتاحه ذلٌّ عظيم يدفعه إلى اتهام نفسه: «عبيدي».

إن المائدة الطويلة تنتظره منذ الآن في قاعة الطعام، وقد ازدهرت بالبياض الناصع واكتست بالأوعية الفضية المتلألئة. ههنا توجد زوجته، وبناته، وأبناؤه، وأمين سرّه، والطبيب الخاص، والفتاة الفرنسية، والفتاة الإنكليزية، وبعض الجيران، وطالب ثوري ينهض بأعباء وظيفة المدرس، ومن ثم الصحفي الإنكليزي. إن هذا الخليط البشري يغلي في فرح واغتباط عظيمين في اضطرابه وتراكمه الغامضين، ولكن الضوضاء تنقطع عندما يدخل على حين غرة، دلالة على الاحترام والإجلال، فيحيّي تولستوي الضيوف في رزانة وأدب نبيل، ومن ثم يجلس إلى المائدة دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. وعندما يقدم له الآن الخادم الذي يرتدي لباساً رسمياً أطعمته المنتخبة من النباتات فقط (هليون مستورد من الخارج ومهيأ على أدق صورة وألذها)، فإنه يفكر بالرغم منه في المرأة المهلهلة الثياب، في الفلاحة التي أعطاها عشر كوبيكات. هذا هو يجلس هناك، قاتم الوجه، وهو يسبر أغوار نفسه:

ـ لو يفهمون أخيراً أني لا أستطيع ولا أريد أن أعيش هكذا، محاطاً بالخدم، وغدائي الذي يتشكل من أربعة أصناف يقدم إلي في أوعية من الفضة، غارقاً في مختلف أنواع التفاهات، بينما الآخرون لا يجدون حتى أشد ما يحتاجون إليه ضرورة! وإنهم ليعرفون جميعاً مع ذلك أني لا أسألهم سوى هذه التضحية، هذه التضحية الوحيدة، أن يتنازلوا عن هذه الأبهة، هذه الخطيئة ضد المساواة

التي يريدها الله أن تحكم بين الناس جميعاً بالعدل والقسطاس. ولكن هذه زوجتي التي يجب أن تقاسمني أفكاري مثلما تقاسمني فراشي وحياتي، تنتصب أمامي عدوة لأفكاري، إنها تتعلق بعنقي مثل رحى الطاحون، إنها ثقل يثيد على وجداني، ويجرني إلى حياة مغلوطة كاذبة. كان يجب أن أقطع الربطة التي يقيدونني بها منذ زمن طويل. ما علاقتي بهم بعد الآن؟ إنهم يعكرون صفو حياتي، وأنا أصنع الأمر نفسه بحياتهم أيضاً. إني زائد ههنا، أثقل على نفسي وعلى سائر الناس.

ويدير عيني غضبه بالرغم منه، حانقاً، ويتطلع إليها، هي صوفيا أندرييفنا، زوجته، يا إلهي، لشد ما شاخت ولشد ما ابيضت! إن الغضون تحتفر جبينها، هي الأخرى، وإن الحزن قد لوى فمها الهرم، هي الأخرى أيضاً، وإذا موجة من الوداعة تملأ بغتة قلب الرجل:

إنه يفكر:

ـ يا إلهي، كيف هي قاتمة، ولشد ما تبدو كئيبة، هي التي أدخلتها إلى حياتي فتاة ضاحكة بريئة! لقد مضى حتى الآن عمر رجل كامل، أربعون أو خمس وأربعون سنة ونحن نعيش معاً! لقد أخذتها فتاة صبية، أنا الذي كنت يومذاك رجلاً نصف مهترئ، ولقد منحتني ثلاثة عشر سليلاً، وساعدتني في تأليف كتبي، وأرضعت أبنائي. وأنا، ماذا فعلت منها؟ امرأة يائسة، تكاد أن تكون مجنونة، مرهقة الأعصاب دوماً، يجب أن تخفي عنها المخدرات كي لا تنتزع حياتها بنفسها، لشدة ما جعلتها شقية تعيسة! أمّا أبنائي، فإني أعرف أنهم لا يحبونني. أما بناتي، اللائي يقعدن ههنا الآن، فقد قرضت شبابهن قرضاً. بينا أمناء سرّي يقيدون كل كلمة ألفظها، وينقرون كل ما أقوله مثلما تنقر العصافير الدورية روث الجياد. وهم قد هيؤوا منذ الآن، في علبة خاصة، المراهم والدهون اللازمة كي يحتفظوا بمومياتي في متحف الإنسانية. وهذا الأبله الإنكليزي أيضاً ينتظر،

ودفتره في يده، أن أوضح له «الحياة». خطيئة ضد اللّه وضد الحقيقة، ذلك هو واقع هذه المائدة، وهذه الدار المليئة بالأسرار المقيتة، والمجردة عن كل طهارة. وأنا أبقى جالساً بالرغم من ذلك في هذا الجو، أجد نفسي دافئاً مرتاحاً، بدلاً من أن أقفز إلى الخارج وأنطلق في حال سبيلي. كان يفضل بالنسبة إلي، كان يفضل بالنسبة إليهم، لو أني كنت ميتاً. إني أعيش طويلاً، ولا أعيش كفاية في الحقيقة، لقد حانت ساعتي منذ زمن طويل في الحقيقة.

ويقدم الخادم له أطعمة أخرى، وثماراً محلاة، محاطة بزبد حليبي، ومبردة بالجليد، ولكنه يدفع الصحن الفضي بحركة حانقة من يده.

وتسأل صوفيا أندرييفنا ـ ما أشد سذاجتها! ـ في قلق:

ـ أليس الطعام جيداً، أهو ثقيل جداً بالنسبة إليك؟

ولكن تولستوي يكتفي بأن يجيب في مرارة:

ـ إن ما هو ثقيل بالضبط بالنسبة إليّ، هو كونه جيداً جداً.

ويتطلع الأبناء إليه، مغتاظين، وتنظر المرأة صوبه في دهشة، ويستدير الصحفي بناظريه نحوه في جهد: إن المرء يستطيع أن يرى أنّه يحاول حفظ هذه الحكمة.

وينتهي الغداء أخيراً، فينهض الجميع ويدلفون على قاعة الجلوس، حيث يدخل تولستوي في نقاش حامٍ مع الثوروي الفتي الذي يرد عليه، بالرغم من كل احترامه، في جرأة وحميّة. إن عين تولستوي ترسل بروقاً حادة، وهو يتحدث في عنف بكلمات سريعة متلاحقة، بل يكاد أن يصرخ صراخاً، فالمناقشة ما برحت حتى الآن تطبق عليه في هوًى لا يمكن ترويضه أو إخضاعه مثلما كان الصيد والتنس يفعلان به في غابر الزمان، ولكنه يضبط نفسه، بغتة، في الجرم المشهود

نهباً للهياج والحنق، فيجبر نفسه على التواضع، ويخفف من حدة صوته، في جهد، وهو يقول:

ـ ولكن لعلني أخطئ فيما أذهب إليه. إن اللّه قد بعثر أفكاره بين الناس، وليس إنسان يدري إن كان ما يعبّر عنه هو الأفكار الإلهية أم أفكاره الخاصة ليس غير.

وكي يبدل الموضوع، يتوجه إلى الآخرين بهذه الدعوة:

ـ فلنخرج إلى الباحة في نزهة قصيرة.

ولكن لا بدّ من وقفة قصيرة قبلاً، إن الزائرين من الطبقات الشعبية، المستعطين والتابعين، هؤلاء «المظلومين» جميعاً ينتظرون تولستوي تحت شجرة الدردار العتيقة جداً، مقابل عتبة الدار عند «شجرة الفقراء» الشهيرة. لقد جاؤا عن بعد عشرين فرسخاً يحجون إلى دار العلم؛ كي يسألوا نصيحة أو يطلبوا قليلاً من المال، وهؤلاء هم، وقوفاً هناك، تحرقهم الشمس اللاهبة، ويرهقهم التعب والإعياء الشديدان، وقد اغبرّت أحذيتهم حتى أصبحت بيضاوية اللون.

وعندما يتقدم «السيد»، «الإقطاعي»، منهم، ينحني بعضهم حتى الأرض على الطريقة الروسية، بينا يذهب تولستوي إليهم بخطى سريعة متأرجحة:

ـ ألديكم طلبات تقدمونها؟

ـ إني أود، يا سيدي...

فيقول تولستوي معنّفاً:

ـ أنا لست «سيدي». ليس أحد «يا سيدي» سوى اللّه.

أحد مشاهد ياسنايا بوليانا

ويروح الفلاح الصغير يفتل في فرق طاقيته بين يديه، وأخيراً يتمتم ببعض الأسئلة المضطربة المرتبكة، يريد أن يعرف ما إذا كانت الأرض ستصبح الآن حقاً ملكاً للفلاحين؟ ومتى سينال هو حصته منها؟ ويرد تولستوي عليه في صبر فارغ، إن كل غموض يثيره ويبعث الحنق في نفسه، ومن ثم يلتفت إلى موظف الغابة الذي يطرح عليه أسئلة عديدة تتعلق باللّه، فيسأله تولستوي إن كان يجيد القراءة، فيجيبه الآخر بالإيجاب، وعندئذٍ يرسل في طلب المؤلف الذي عنوانه: «ماذا يجب أن نفعل؟» ويصرف الرجل به. وحينئذٍ يقترب بعض المستعطين الواحد في إثر الآخر، فيصرفهم تولستوي بسرعة، وقد نفذ صبره منذ الآن، وهو يعطي كلّاً منهم خمسة كوبيكات. وإذ يلتفت، يلاحظ أن الصحفي قد التقط صورته وهو يقوم بالصدقة على هذا المنوال، فيظلمّ محيّاه من جديد.

ـ هكذا يمثلونني، أنا تولستوي، الكريم، قرب الفلاحين، أنا الرجُل المحسن، الإنسان النبيل الذي أمد يد المعونة إلى الجميع! ولكن لو أنهم كانوا يستطيعون أن يروا إلى داخل قلبي لعرفوا أني لم أكن قط طيباً، وأني قد حاولت فقط أن أصبح كذلك. إن أناي هي الشيء الوحيد الذي شغلني بصورة فعلية، وأنا لم أكن محسناً في يوم من الأيام؛ لأني لم أعطِ الفقراء طوال حياتي نصف ما كنت أخسره فيما مضى، في موسكو، في ليلة واحدة في لعب الورق. أبداً لم يخطر لي على بال أن أرسل إلى دستويفسكي، الذي يشكو الجوع فيما أعلم، المائتي روبلاً التي كانت تنقذه شهراً كاملاً، وربما تنقذه إلى مدى الحياة. ومع ذلك فإني أسمح بأن يمجّدني الناس وأن يحيّيوني كأنبل البشر على الإطلاق، بينا أعلم حق العلم أني ما برحت حتى الآن في بداية البداية!

إنه في عجلة من أمره، يريد أن يقوم بنزهة في الحديقة، فهو ـ هذا الشيخ الصغير الرشيق ذو اللحية المتموجة ـ يركض في فراغ عظيم، حتى إن الآخرين لا يستطيعون اللحاق به إلّا بصعوبة عظيمة. كلا، لم تعد القضية بعد الآن تقوم

في الإكثار من الحديث، بل كل ما يريده هو أن يحس عضلاته بكل بساطة، وأن يشعر بمرونة أوتاره، وأن يلقي نظرة على بناته اللواتي يلعبن التنس، نظرة على براءة اللعب الحكمي ورشاقته. إنه يلاحق كل حركة باهتمام فائق ويضحك فخوراً لدى كل ضربة ناجحة، ومن ثم يتابع طريقه ـ وقد ارتاحت حواسّه واغتبطت ـ عبر الطحلب ذي العبق اللذيذ. ولكنه يعود بعد ذلك إلى غرفة عمله يقرأ قليلاً، ويرتاح قليلاً، إنه يحس في بعض الأحايين بتعب شديد، ويشعر بأن ساقيه ثقيلتان جداً. وبينا هو يضطجع هكذا وحيداً على الديوان المشمع الجلد، مغلق العينين، يحس بالتعب والشيخوخة، فيروح يفكر في سكون:

ـ ومع ذلك فإن الأمور تسير على ما يرام، أين هي تلك الفترة، أقصد الفترة الرهيبة التي كنت أرهب الموت فيها، مثلما أرهب شبحاً مفزعاً؟ أين هي الفترة التي كنت أريد فيها أن أختبئ من وجه الموت وأن أنكر نفسي؟ أما الآن، فليس بي أدنى خشية على الإطلاق، بل إني لأشعر بالارتياح قرب الموت أيضاً.

وينهض، وتروح أفكاره تنتقل في السكون، ويخطّ في بعض الأحايين كلمة سريعة بالقلم، ومن ثم يتطلع طويلاً وفي جدٍّ عظيم إلى الأمام منه. وإنه لجميل عندئذ، محيّا الرجل العجوز المتعب الذي يرين عليه التأمل والحلم، وهو وحيد مع نفسه ومع أفكاره.

ويهبط مساءً إلى حلقة الحديث مرة أخرى، بلى، إن العمل قد تحقق. ويسأل الصديق غولدنويزر، العازف على البيانو، إن كان يستطيع أن يعزف شيئاً ما.

ـ بكل طيبة خاطر، بكل طيبة خاطر.

ويستند تولستوي إلى البيانو، ويداه تخيمان على وجهه كي لا يرى أحد كيف يجتاحه سحر الأصوات المتناسقة، إنه يرهف سمعه، مغلق الجفنين، وهو يأخذ أنفاساً عميقة جداً. يا عجباً، إن الموسيقى التي طالما هاجمها بعنف شديد لتغني

في أذنيه بصورة مدهشة، توقظ فيه كل ما في قلبه من حنان وعطف؛ إنها تعيد إلى نفسه، بعد سائر تلك الأفكار الصارمة القاسية، الوداعة والطيبة جميعاً.

ويفكر في وليجة نفسه في سكون:

ـ كيف أمكنني أن أهين الفن وأحتقره؟ أين يمكن أن يجد المرء العزاء إلّا في الفن؟ إن كل فكر يثقل على الروح، وكل علم يعكر صفوها ويبعث الاضطراب فيها، فأين نستطيع أن نحس بكل وضوح حضور اللّه إن لم يكن في صورة الفنان وكلمته؟ إيه يا بيتهوفن ويا شوبان، إنكما أخواي! إني أشعر بنظراتكما ترتاح فيّ كلّياً الآن، وإن قلب الإنسانية ينبض في قلبي، اصفحا عنّي، يا أخويَّ؛ لأني أسأت إليكما!

وتنتهي الموسيقى بمقطع رنّان، فيصفق الجميع، وكذلك يفعل تولستوي بعد تردد قصير، لقد شفي كل قلق كان يثقل عليه. وينضم إلى الجماعة المتأصّصة هناك وعلى شفتيه ابتسامة عذبة، ويتمتع بملذات الحديث. وأخيراً فعل شيئاً كالغبطة، والسكون يسبح فيما حوله، ليبدو أن اليوم ذا المظاهر المتعددة قد انتهى.

ولكنه يذهب مرة أخرى، قبل أن يسعى إلى فراشه، إلى غرفة عمله؛ إن تولستوي سيقاضي نفسه مرة أخرى قبل أن ينتهي النهار، وسيحاسب نفسه، مثله دوماً، عن كل ساعة كما سيحاسبها عن حياته بكاملها. ويفتح «مذكراته»: إن هذه الأوراق البيض لأشبه ما تكون بعين الوجدان التي تراقبه. ويفكر تولستوي في كل ساعة من النهار المنصرم ويحكم عليها، إنه يفكر في الفلاحين، وفي البؤس الذي هو سببه، والذي مرّ من أمامه حبيساً خلال نزهته على صهوة فرسه دون أن يقدم إليه أية معونة، اللهم إلّا تلك القطعة الصغيرة من المال. ويتذكر أنّه كان فارغ الصبر مع المستعطين، وأن أفكاراً قاسية وخبيثة قد راودته فيما يخص زوجته، إنه يسجل سائر الخطايا في كتابه، كتاب الاتهام، ويخط بقلم حانق هذا الحكم:

«لقد كنت متوانياً مرة أخرى، وكانت نفسي جبانة رعديدة. إني لم أصنع ما يكفي من الخير، ولم أتعلم بعد كي أحقق الفعل الصعب، كيف أحب البشر الذين هم حولي، بدلاً من حب الإنسانية... مدّ لي يد المعونة يا إلهي، مدّ لي يد المعونة».

ومن ثم تاريخ الغداة، وتلك الأحرف الغامضة السرية: «إ. ب. ح.» (إذا بقيت حياً). لقد تم إنجاز العمل الآن، وهذا يوم آخر قد انتهى، فهو يغدو ـ الرجل العجوز ـ وقد انحنى كتفاه، إلى الغرفة المجاورة، ويخلع قميصه وحذاءيه الثقيلين ويمدد جسده، جسده الثقيل، في الفراش ويروح يفكر، مثله دوماً، في الموت أولاً. إن الأفكار، هذه الفراشات الملونة، تحوم مرة أخرى في اضطراب فوقه، ولكنها تأخذ بالضياع شيئاً فشيئاً كما تضيع الفراشات في الغابة التي تزداد ظلمتها أكثر فأكثر باستمرار، لقد أخذ النوم يلفّه بظله القريب...

ولكن هذا هو ينتفض ذعراً على حين غرة، أفلم يسمع لتوّه صدى خطوات؟... بلى، إن شخصاً ما يسير في الغرفة المجاورة، غرفة عمله، بهدوء وخطى سريعة. وسرعان ما يقفز من سريره نصف عريان، دون أن يثير أية ضوضاء، ويلصق عينيه اللاهبتين في ثقب المزلاج، بلى، إن هناك نوراً في الغرفة المجاورة التي دلف إليها شخص ما يحمل مفتاحاً في يده، وهو الآن ينقّب في مكتبه، ويتصفح «مذكراته»، السرية جداً؛ كي يقرأ كلمات وجدانه وأحاديثه، هذا الشخص، إنها صوفيا أندرييفنا، زوجته. إنها تتجسس عليه حتى في أكثر أسراره خصوصية، وهؤلاء الذين يحيطون به لا يتركونه وحيداً، حتى مع اللّه! إنه محاط في كل مكان، في كل مكان على الإطلاق، في داره، في حياته، في نفسه، بطموح البشر وفضولهم. وترتعش يداه غضباً وحنقاً، ويمسك بالمزلاج يريد أن يفتح الباب بصورة مباغتة، وأن يهجم على زوجته التي خانته، ولكنه يتغلّب على غضبه في اللحظة الأخيرة:

ـ لعل هذا أيضاً تجربة قد فُرضت عليّ.

وحينئذٍ يجر نفسه حتى فراشه، أخرس، منقطع الأنفاس، متطلعاً في أعماق نفسه مثلما يتطلع في قعر نبع قد نضب معينه وجف. وهكذا يظل يقظاً فترة طويلة بعد ذلك، هو، ليون نيقولايفيتش تولستوي، أعظم رجال عصره وأقواهم، مخدوعاً في ذات منزله، معذّباً بالقلق المرهق، متجمّداً بالوحدة القاسية.

# العزم والتجلّي

**«كي يؤمن الإنسان بالخلود؛ لا بدّ له أن يعيش على هذه الأرض حياة خالدة».**

**تولستوي**
**«المذكرات» 6 آذار 1896**

اجتاز ليون تولستوي، في عام 1900، عتبة القرن الجديد وله من العمر اثنتان وسبعون سنة. إن العجوز البطولي متيقّظ الفكر دوماً، يسير قُدماً نحو الكمال وقد أضحى منذ الآن شخصية أسطورية. إنّ محيّا هذا التائه الشيخ الذي يجوب أرجاء الكون العظيم ليشرق أكثر وداعة منه قبلاً تحت لحيته الثلجية. أمّا جلده، المصفر شيئاً فشيئاً، فقد أصبح أشبه بورق شفّاف تغطيه غضون وأخاديد لا عدّ لها. وكثيراً ما تعشّش الآن ابتسامة صبورة مستسلمة حول شفته المرتاحة التي هدأت واستكانت. أمّا الغضب فيندر أن يرفع حاجبيه الكثّين، بينا سيماء آدم العجوز الحانق قد أصبحت رقيقة عذبة، وكأنها قد تبدّلت وتجلّت.

ويقول أخوه مدهوشاً، هو الذي عرفه طوال حياته متمرداً لاهباً:

ـ لشدّ ما أصبح طيباً!

وفي الحقيقة إنّ هواه الجامح قد أخذ ينطفئ، فقد تعب وكَلّ من النضال ومن تعذيب ذاته، فنفسه تتنفس حالياً في ارتياح أعظم من ذي قبل، وكثيراً ما تتمتع بشيءٍ من الراحة من وقت لآخر. إنّ بريقاً جديداً من الوداعة ينوّر محيّاه،

في ضياء المساء الأخير، فإذا ما كانت الظلمة تطغى في ما مضى من الزمان لدى تأمّله؛ فقد اتخذ الآن مظهراً مؤثراً في الحقيقة، لكأنّ الطبيعة قد جهدت طوال ثمانين عاماً كي يتظاهر الجمال الصميمي لهذا الرجل، كي يتظاهر سمو هذا الشيخ المصنوع من العظمة والعلم والغفران، في شكله الأمثل والنهائي. وإن الإنسانية لتحصد بالضبط هذا المحيّا المتجلّي ميراثاً لها؛ لأنّها ترى فيه وحده صورة تولستوي الحقيقية، وإنّ الأجيال إثر الأجيال سوف تحتفظ بصورة وجهه الرزين الهادئ على هذا الغرار، وهي تكن له أعظم الاحترام وأعمقه.

إنّ السن، الذي يُضغر ـ عادة ـ وجه الرجال الأبطال ويشوّهه، يضفي على محيّا تولستوي جلاله الأكمل؛ هذه القسوة قد أصبحت عظمة، والهوى قد تحوّل إلى وداعة، والعنف والصرامة قد صارا طيبة هادئة وتفهّماً أخوياً لسائر الأشياء. وفي الحقيقة إنّ المناضل الشيخ لا يرغب إلّا في السلام وحده، إلّا في «السلام مع اللّه ومع البشر»، وفي السلام أيضاً مع ألدّ أعدائه؛ الموت، لقد مر، لقد انقضى ـ لحسن الحظ ـ ذلك الخوف المرعب، الرهيب، الحيواني، من المنيّة، والعجوز يتطلّع إلى النهاية التي تقترب بنظرة هادئة، مستعدّاً لاستقبالها في اطمئنان عظيم.

«أظن أنّه من الممكن ألّا أكون بعد على قيد الحياة في الغداة. إنّي أحاول كل يوم أن أتلف أكثر فأكثر مع هذه الفكرة، فأعتاد عليها أكثر فأكثر دوماً» يا عجباً، إنّ الفكر الخلّاق ليتجمع من جديد في هذا الإنسان، منذ اللحظة التي كفّ فيها ذلك الذعر المختلج عن اضطهاده وإرهاقه بعد أن أقلقه وأقضّ مضجعه طويلاً. وكما إن جوته يستدير، وقد أضحى شيخاً حسناً، عن تسلياته العلمية في نور المساء الأخير بالضبط كي يرجع إلى «عمله الرئيسي»، هكذا تولستوي المبشّر، الأخلاقي يلتفت هو الآخر، في سن غير معقولة، بين سنتيه السبعين والثمانين، نحو الفن الذي طالما أنكره، فإذا أقوى شعراء القرن المنصرم

وأعظمهم يبعث إلى الحياة مرة أخرى، في القرن الجديد، بكل روعته السابقة. وهكذا يوتر الشيخ، في جرأة وبأس، قوس وجوده الشيطاني، ويستغرق في تأمّل أحد أحداث سنواته القديمة التي قضاها كواحد من القوزاق، وينظم بوحيه هذه الإلياذة، هذه الملحمة العظيمة التي هي «الحاج مراد»، الغاصّة برنين أسلحة الحرب، أسطورة بطولية مرويّة بطريقة ساذجة وعظيمة، كما كان تولستوي يروي في أيامه الأكثر كمالاً.

وإن مأساة «الجثمان الحي»، والأقاصيص الرائعات: «ما بعد الحفلة»، و«كورني فاسيليو»، وعدداً كبيراً آخر من الأساطير الصغيرة لتثبت بصورة مجيدة عودة الفنان وانبعاثه، واختفاء شراسة الأخلاقي وتلاشيها. إنّ المرء لا يستطيع في أيّ موضع، من المؤلفات المتأخّرة، أن يخمّن يد العجوز المتعبة الكليلة؛ لأنّ نثرها يسيل مثل الزمان الذي يسقط تيّاره المتدفّق الرنّان في الأبدية، رائقاً حتى الدرجة القصوى، حتى أعمق أعماق النفس الخفيّة. إنّ عين العجوز العظيم الرمادية لتزن، مصونة عن الخطأ، عصية على الفساد مثلها دوماً، مصير البشر المتحرّك بصورة أبدية. إن قاضي الحياة قد عاد شاعراً، وذلك الذي كان فيما مضى عقائدياً يدّعي فهم الحياة ويسبر أغوارها، ينحني في اعترافات شيخوخته الرائعة في احترام عظيم أمام غموض الإلهي وامتناعه عن الإدراك. إن ذلك الفضول المتكبّر العديم الصبر الذي يريد أن يحل مشاكل الحياة العظمى ليخلي مكانه بطريقة متواضعة في إرهاف السمع لتلك الضوضاء المقتربة أبداً التي تثيرها موجة اللانهاية. لقد أصبح طيباً ليون تولستوي، ولكنه لم يتعب بعد، إنه ينقّب في «مذكراته»، من دون أن يستشعر كللاً قط، مثل فلاح من فلاحي العالم البدائي ـ حتى يقع القلم من يديه اللتين تبردان ـ حقل أفكاره التي لا ينضب لها معين مطلقاً.

ذلك أنّ هذا الرجل الذي لا يعرف معنى التعب، هذا الرجل الذي فرض

القضاء عليه رسالة النضال حتى اللحظة الأخيرة في سبيل الحقيقة، يجب ألّا يجد الراحة بعد. لا بدّ له قبلاً من أن ينجز ويحقق عملاً أخيراً، أكثر قداسة من سائر الأعمال الأخرى، عملاً لا يتعلّق بالحياة أبداً، بل بالأحرى بموته الخاص الذي يقترب. إنّ آخر مشاغل هذا المبدع العملاق سوف تقوم في نحت موت لائق وأمثل من أجل ذاته، فهو يبذل ـ بصورة رائعة ـ كل ما بقي له من القوى في سبيل ذلك. إن تولستوي لم يعمل في أي من آثاره بمثل هذا الصبر وبمثل هذه الحميّة، ولم يدرس أية مشكلة بمثل هذا التعمّق وبمثل هذا التفكير، إنّه يريد بالضبط، كفنّان صادق يصعب إرضاؤه، أن ينقل إلى الإنسانية، طاهراً خالياً من كل دنس، هذا العمل: موته؛ آخر آثاره وأكثرها إنسانية على الإطلاق.

وإنّ هذا النضال في سبيل موتٍ نقيٍّ كاملٍ مجرّدٍ عن كل كذب؛ ليصير معركة حاسمة في معمعان هذه الحرب التي يشنّها ذلك السبعيني العاجز عن العثور على السلام المرتجى، وهي في الوقت نفسه أشد المعارك إيلاماً وأكثرها قسوة؛ لأنّها نضال ضد دمائه بالذات. لا مناص من إنجاز فعلٍ أخير بعد، فعلٍ تقهقر أمامه دوماً طوال حياته في تردد لا نستطيع اليوم تفسيراً له، فعل هو التنازل النهائي الحاسم عن ثرواته جميعاً. لقد أجّل تولستوي دوماً ـ في خشية ووجل ـ مثله مثل كوتوزوف الذي يريد أن يتجنب المعركة الحاسمة، والذي يتأمّل أن يتغلب على خصمه الرهيب بتراجع استراتيجي مستمر، تدبير ثروته النهائي، ملتجئاً، هرباً من وجدانه، إلى «حكمة عدم العمل».

إن سائر المحاولات التي بذلها في سبيل التنازل عن حقوقه في مؤلفاته، حتى بعد وفاته، قد لاقت دوماً معارضة عائلته الضارية، بينا كان هو أضعف، وفي الحقيقة أكثر إنسانية، من أن يحطم هذه المعارضة في قسوة وعنف. وهكذا فقد اكتفى طوال سنوات عديدة بألّا يتناول، شخصياً، شيئاً من المال، وألّا يستفيد من دخله، إنما (إنه يعترف بذلك) «كان في أصل هذ الزهد كوني أنكر مبدئياً

كل ملكية، وكوني لا أهتم بثروتي بتأثير خجل مغلوط تجاه الناس، خوفاً من أن يتهموني بعدم الصدق في سلوكي». لقد كان دوماً، بعد أكثر المحاولات تنوعاً، هذه المحاولات الفاشلة دوماً التي كانت كل منها تعتبر مأساة في دائرة عائلته، يبعد عنه القرار الحاسم الذي لا رجوع فيه، الخاص بوصيته، ويؤجله إلى تاريخ غير معيّن. ولكن عندما اكتسبت عائلته فرصة يوبيله عام 1908، وهو في السنة الثمانين من عمره، كي تشرع في طبعة كاملة لمؤلفاته بأرباح ضخمة للغاية، أصبح يستحيل عليه، هو العدو العلني لكل ملكية خاصة، أن يبقى عاطلاً عن العمل، كان لا لليون تولستوي، وهو في الثمانين، من شن المعركة الحاسمة، مكشوف الوجه. وهكذا تصبح ياسنايا بوليانا، محجة روسيا حيث تتوضأ الشمس الغاربة لمجد يخيم بجناحيه على العالمين معاً، مسرح نضال عنيف وراء الأبواب بين تولستوي وذويه، نضال يتفاقم شرّه وبشاعته بمقدار ما يكون سببه شيئاً حقيراً؛ المال. نضال لا تعطي صيحات «المذكرات» المؤلمة إلّا فكرة ناقصة عن شراسته وقوّته.

ويتنهد خلال تلك الأيام (25 تموز 1908)، قائلاً:

ـ أوّاه! ما أصعب أن يتخلص المرء من هذه الملكية القذرة المجرمة!

ذلك أن نصف عائلته كانت تتنازع هذه الملكية بأظافر أشبه ما تكون بأظافر الكواسر، فإذا مشاهد خليقة بأسوأ الروايات المبتذلة تتلاحق أمام عينيه في أشد لحظات حياته أسىً؛ دروج مخلوعة، خزانات منبوشة، أحاديث يتجسّس الآخرون عليها، مساعٍ لوضعه تحت الوصاية، أضف إليها محاولات تبذلها زوجته في سبيل الانتحار، ووعيد بالفرار من قِبله: إن «جحيم ياسنايا بوليانا»، كما يسمّيه، يفتح أبوابه على مصاريعها. ولكن تولستوي ينتهي إلى أن يستقي، في هذا الإفراط من العذابات بالضبط، قراراً حاسماً، فيعزم أخيراً، قبل وقاته بأشهر قليلة، ألّا يقبل بعد الآن أبداً بأي التباس أو غموض في حياته؛ كي يؤمّن نقاء موته وصدقه، وأن يترك

للأجيال التالية وصية تمنح سائر ثرواته الفكرية للإنسانية بصورة لا مردّ لها البتّة. ولم يكن له بد، في سبيل تحقيق هذا الفعل الأخير من الإخلاص، من كذبة أخيرة، فإذا هذا الشيخ البالغ اثنتين وثمانين سنة من العمر يمتطي جواده ويغدو ـ ما دام يجد نفسه في داره مراقباً تتلصّص على حركاته العيون ـ إلى الغابة المجاورة، غابة غرومونت، وكأنه ذاهب في نزهة عادية، وهناك يوقّع أخيراً، تلك أشد لحظات عصرنا بأسره تأثيراً في الحقيقة، على أرومة شجرة عتيقة، وبحضور ثلاثة شهود والجياد التي تنفخ في صبر فارغ، تلك الورقة التي ستمنح إرادته السلطة والصحّة المتينتين فيما وراء حياته الراهنة.

لقد دمّر الآن سائر العقبات التي كانت تعترض سبيله، فهو يظن إذن أنّه قد حقق العمل الحاسم أخيراً، ولكن عملاً أصعب وأهم وأشد ضرورة ينتظره بعد؛ لأنه ليس من سرٍّ يقاوم بين جدران هذه الدار المصنوعة من الوجدان القويم الملتهب إنسانيةً، إن الشكوك والوشوشات تتسرّب من مختلف الزوايا، وتشق طريقها قطرة فقطرة، تنتقل من شخص إلى آخر بالتدريج، وما أسرع ما تعلم العائلة أن تولستوي قد اتخذ احتياطات خفيّة، فيروح أهله يغتصبون بمفاتيح مزورة سر الدروج والخزائن، وينبشون «المذكرات» كي يجدوا فيها سبيلاً يهديهم، بينا الكونتس تهدد بالانتحار إذا لم يكف تشيركوف، الشريك المكروه لتولستوي، عن زياراته. ويدرك تولستوي أنّه لن يستطيع ههنا، في وسط الأهواء والأطماع والبغض والاضطراب، أن يؤلّف أثره الفني الأخير، كمال موته، فهو العجوز، يخشى «أن يسلبوه، من وجهة النظر الروحية، هذه الدقائق الثمينة التي ربما كانت أروع لحظات الحياة». وعندئذ تنبثق مرة أخرى، من أعماق شعوره، الفكرة بأنه يتوجّب عليه، إذا أراد أن يبلغ الكمال، أن يفعل ما يطلبه الإنجيل، فيترك امرأته وأولاده، ويتنازل عن الملكية والربح، كي يبلغ القداسة ويرتفع إليها.

لقد هرب مرتين حتى الآن، الأولى عام 1884، لكن القوة أعوزته في منتصف

الطريق، فأجبر نفسه على الرجوع إلى قرب زوجته التي كانت تعاني عندئذ آلام المخاض، والتي أعطته في تلك الليلة بالذات ابنة جديدة، هي ألكسندرا هذه التي لا تبرح جانبه الآن، والتي تحمي وصيته، مستعدة دوماً لمساعدته في رحلته الأخيرة. ولقد ذهب مرة أخرى بعد ثلاثة عشر عاماً، في سنة 1897، تاركاً لزوجته هذه الرسالة الخالدة التي يعرض فيها الأمر الذي يفرضه وجدانه عليه: «لقد قررت أن أهرب؛ أولاً: لأنّ هذا الوجود يثقل علي أكثر فأكثر بمقدار ما تزداد سنواتي، فأطمح بقوة مضاعفة أبداً إلى الوحدة، وثانياً: لأنّ الأولاد قد كبروا الآن، فلم يعد وجودي في الدار ضرورياً بعد اليوم... إنّ أهم شيء هو أن نتشبّه بالهنود الذين يهربون في الغابات عندما يبلغون الستين من عمرهم، فكل رجل ديني يشعر، عندما يبلغ عتبة الشيخوخة، بالرغبة في وقف سنواته الأخيرة على اللّه وحده، وليس على التسلية واللعب، على الثرثرات الفارغة والتنس. وكذلك فإن نفسي تطمح بكل قواها حالياً، بعد أن بلغت سنتي السبعين، إلى الراحة والعزلة؛ كي أعيش في توافق مع وجداني، أو كي أفلت على الأقل، إن يكن ذلك الأمر مستحيلاً تماماً، من الاختلاف الصارخ القائم بين حياتي وإيماني».

ولكنه رجع في هذه المرة أيضاً، وقد تغلّبت الإنسانية فيه. لم تكن قوّة أناه الصميمية كبيرة بصورة كافية بعد أيضاً. ولكن الجذب الجبار للأبعاد القاصية يصبح أشد إيلاماً في الوقت الراهن منه في أي وقت مضى، ثلاثة عشر عاماً بعد ذلك الفرار الثاني، ومرتين ثلاثة عشر عاماً بعد الفرار الأول. إن هذا الوجدان من الحديد يحس قوّة لا يسبر غورها، تجرفه بصورة عنيفة ورائعة في وقت واحد. ويكتب تولستوي في «مذكراته»، في شهر حزيران من عام 1910، هذه الكلمات: «لست أستطيع أن أفعل شيئاً آخر سوى الهرب، وأن أفكر الآن في ذلك بصورة جدّية. الآن أثبت مسيحيتك! هذا هو الحين أو لن يكون أبداً (بالفرنسية في النص لتولستوي). ههنا ليس أحد في حاجة لوجودي. مدّ لي يد المعونة يا إلهي،

علمني، أنا لا أريد إلّا شيئاً واحداً، ألا وهو أن أصنع إرادتك وليس إرادتي[1]. إني أكتب هذه الأشياء وأتساءل: أصحيح ذلك حقاً؟ أفلست أتصنّع أمامك هكذا؟ ساعدني، ساعدني، ساعدني». ولكنه يتردد دوماً بعد، إن الخشية التي يبعثها مصير الآخرين في قلبه تعوقه دوماً، وهو نفسه يخشى دوماً أن تكون رغبته مجرمة، فيرهف السمع، وقد انحنى فوق أناه الخاصة مرتعش الأوصال، كي يعرف إن كان نداء يأتي من الباطن، أو رسالة من علٍ، نداء أو رسالة «يأمران» بصورة لا تقاوم حيث إرادته الخاصة ما برحت تتردد وتتمايل. وإنه ليعترف في «مذكراته» بقلقه واضطرابه، وكأنه جاثٍ على ركبتيه في الصلاة، أمّا تلك الإرادة التي لا يسبر غورها، والتي استسلم إليها، والتي يثق في حكمتها، وإن ذلك الانتظار لأشبه ما يكون بالحمى في وجدانه الملتهب، وهذا الإصغاء إلى قلبه المرتعش، لأشبه ما يكون بارتجاف ينتاب كل كينونته، فيروح يفكر منذ الآن أن القدر لا يسمعه، وأنه قد أسلم إلى الصدفة المحضة.

وعندئذ يغنّي فيه، في الساعة المناسبة الصحيحة، صوت رنّان، صوت **الأسطورة العتيق**: «انهض، وانتصب، وخذ معطف الحاج وعصاه». وإنه ليتمالك نفسه إذن، ويغدو نحو كمال ذاته...

---

(1) قارن هذه الكلمات بكلمات السيد المسيح، في بستان الجسمانية، قبل الصلب بيومين، مخاطباً أناه السماوي: ولكن فلتكن إرادتك، وليس إرادتي.

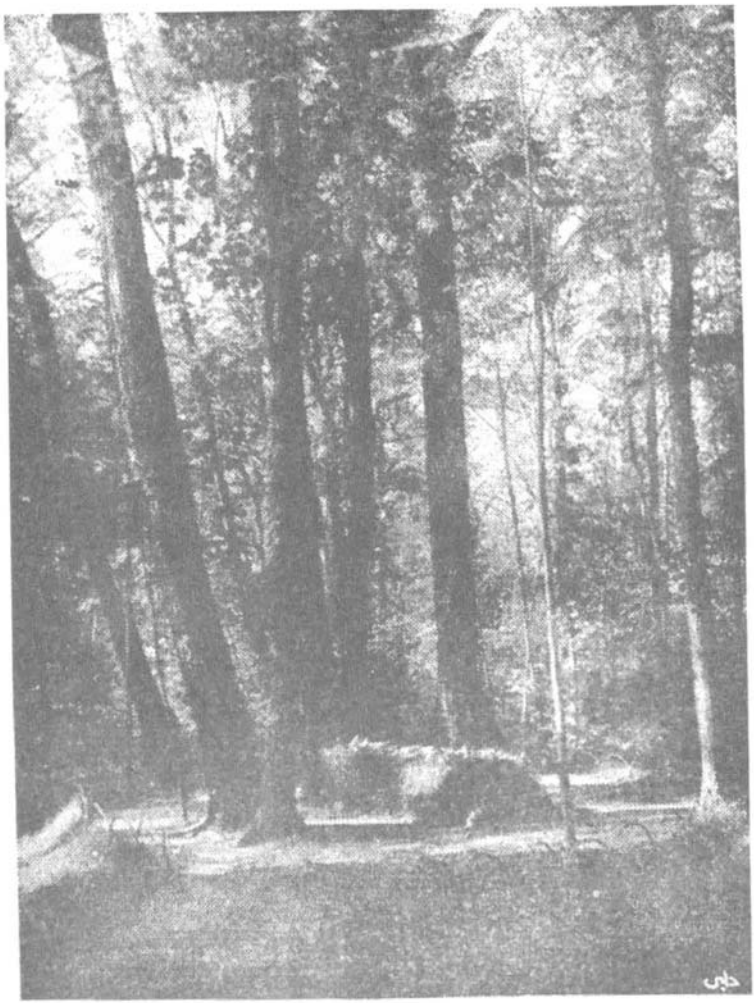

قبر تولستوي

# الهرب نحو اللّه

**«لا يستطيع المرء أن يقترب من اللّه إلّا وحيداً».**

**تولستوي**
**«المذكرات»**

في الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول عام 1910، والزمن حوالي السادسة صباحاً، وظلمة الليل المطبقة ما برحت معلّقة بين الأشجار، كانت بعض الأشباح تحوم بصورة غريبة حول دار الأسياد في ياسنايا بوليانا. إن بعض المفاتيح تطقطق، وبعض الأبواب تصرّ بصورة مذعورة عجلى، والحوذي يسرج الأحصنة إلى العربة فوق قش الاسطبل في حذر شديد للغاية كي لا يثير أدنى ضوضاء على الإطلاق، بينا يلوح خيالان في غرفتين من الدار أشبه ما يكونان بشبحين رهيبين، يتناولان رزماً من سائر الأنواع وهما يتحسّسانها تحسّساً، يسلّطان عليها ضوءاً ضعيفاً من مصباحي جيب أصمّين، ويفتحان دروجاً وخزائن، ومن ثم يتسللان عبر أبواب مفتوحة دون ضوضاء، ويتعثران خلال جذور الباحة الطينية، وهما يهمسان بشيء غير مفهوم، ومن ثم هذه عربة تجري نحو باب الباحة، متجنبة الطريق التي تمر من أمام الدار، سالكة طريقاً خلفية.

ماذا حدث؟ هل دخل بعض اللصوص إلى القصر؟ أهي شرطة القيصر تطوّق أخيراً بيت الكاتب المشبوه كثيراً، كي تقوم بتفتيشها؟ كلا، ليس إنسان قد تسلل بصورة سرّية إلى الدار، بل هو فقط ليون نيقولايفيتش تولستوي الذي يفر أخيراً من سجن وجوده مثل لص سارق، لا يرافقه إلّا طبيبه وحده. لقد وجّه النداء

إليه، أخيراً، إشارة حاسمة لا مرد لها. لقد ضبط زوجته مرة أخرى، أثناء الليل، وهي تنبش في هوس مجنون مكتبه وأوراقه، وعندئذ انبثق فيه بصورة مباغتة، قاسياً عصبياً مثل الفولاذ، العزم على هجرانها ـ هي التي «هجرت نفسها» ـ وعلى الهرب إلى أي مكان كان، نحو اللّه، نحو نفسه، كي يبحث عن الموت الذي يلزمه، الموت الذي يجد به ربّه. وهكذا فقد ألقى، على حين غرة، معطفاً فوق قميص نومه، ولبس طاقية فظّة، وحذاءيه المصنوعين من المطاط، غير مصطحب من خيراته إلّا ما يحتاجه الفكر كي يتصل بالبشر: «المذكرات»، وبالإضافة إليها قلم وريشة ليس غير... وعندما بلغ المحطة، خربش مرة أخرى رسالة إلى زوجته، وأرسلها إليها مع الحوذي: «لقد فعلت ما يفعله الشيوخ مُثلي عادة: إني أهجر هذه الحياة الدنيوية؛ كي أقضي أيامي الأخيرة في الوحدة والسكون». ومن ثم صعد إلى القطار، وهذا هو إذن، ليون نيقولايفيتش تولستوي، جالس على مقعد قذر في قاطرة من الدرجة الثالثة، ملتف بمعطفه، يرافقه طبيبه فقط، يولّي الأدبار، كي يكون وحيداً مع اللّه.

ولكنه لم يعد يُدعى ليون تولستوي، إن تولستوي قد ألقى إلى الوراء منه، مثله مثل شارل الخامس فيما مضى من الزمان، هذا السيد الذي يحكم العالمين، والذي ترك بملء إرادته شعارات القوة كي يدفن نفسه في نعش أحد الأديرة، ألقى إلى الوراء منه، بالإضافة إلى ماله، وبيته، ومجده، الخاص أيضاً، فهو يدعى بعد الآن ت. نيقولاييف، وذلك اسم مبتدع لإنسان يريد أن يبدأ حياة جديدة، ويفتش عن موتٍ نقيٍّ صالح. لقد تحطّمت سائر الروابط أخيراً، فهو يستطيع أن يكون بعد الآن التائه الذي يضرب على وجهه في طرقات غريبة، يستطيع أن يكون خادم العقيدة والكلمة المخلصة. ويستأذن من شقيقته الراهبة أيضاً في دير تشاماردينو؛ هذان شبحاهما السريعا العطب والمتقدمان كثيراً في الشيخوخة يجلسان جنباً إلى جنب بين رهبان وديعين قد تجلّوا بالراحة وألحان الوحدة الطنّانة.

ولا تلبث، بعد يومين، أن تأتي ابنته، تلك الفتاة التي ولدت في ليلة الفرار الأول الذي باء بالفشل. ولكنه لا يجد الراحة هنا أيضاً، في هذا الملجأ الذي آوى إليه، فهو يخاف أن يعرفه البشر، ويلاحقوه ويكتشفوه، فيعاد مرة أخرى إلى ذلك الوجود المضطرب الخاطئ. وهكذا فإنه يوقظ ابنته على حين غرة، وقد لمسته مرة أخرى إصبع خفيّة، في الواحد والثلاثين من تشرين الأول، ويلح على الذهاب إلى أبعد من ذلك، إلى أي مكان كان، إلى بلغاريا، أو القوقاز، أو الخارج، إلى بقعة لا يستطيع المجد والبشر بلوغاً إليه فيها، حيث يجد أخيراً الوحدة، حيث يجد نفسه ويجد اللّه.

ولكن عدو حياته وعقيدته الرهيب، المجد، هذا الشيطان الذي جُعل كي يعذبه ويجربه، لا يفلت ضحيته بعد. إن العالم لا يقبل بأن يكون «تولستويه» ملكاً لنفسه، ملكاً لإرادته العميقة النيّرة. وهكذا لا يكاد الهارب أن يجلس في جناحه، وقد دفع بطاقيته كثيراً فوق جبينه، حتى يعرف أحد المسافرين المعلم الكبير، وما أسرع ما يعرف سائر الركّاب هذا الخبر، وما أسرع ما يفضح السر، وما أسرع ما يتزاحم في الخارج، على باب القاطرة، عدد غفير من الرجال والنساء يريدون أن ينظروا إليه. إن الصحف التي يحملونها تحوي مقالات تملأ عدة أعمدة عن الحيوان الثمين الذي فرّ من زنزاته، لقد اكتُشف أمره، فهو مطوّق من كل جدبٍ وصوب... إن المجد يقطع على تولستوي مرة أخرى، المرة الأخيرة، طريق الكمال. هذه الأسلاك البرقية التي تزرع طريق القطار المزمجر تدوّي بالبرقيات، والشرطة تخطر سائر المحطات، فيتجند سائر المستخدمين للبحث عنه، بينا يطلب أهله قطارات خاصة، وينطلق الصحفيون خلفه من موسكو، ومن سان بطرسبورج، ومن نيجني نوفجورود، ومن أنحاء البلاد الأربعة، يلاحقون الطريدة الهاربة، ويرسل المجمع كاهناً كي يلقي القبض على التائب، في حين يصعد سيد إلى القطار بصورة مباغتة، ويروح يمر دون انقطاع أمام جناح تولستوي،

يرتدي في كل مرة قناعاً جديداً، إنه بوليس سري، كلا، إن المجد لا يسمح لأسيره بالإفلات، وليون تولستوي لا يستطيع، لا يحق له أن يكون وحيداً مع نفسه، والبشر لا يقبلون أن يكون ملكاً لذاته، وأن يحقق تقديسه...

هذا هو منذ الآن وقد أُحيط وطُوّق من كل حدبٍ وصوب، ولم تبقَ له أيّة أجمة يستطيع أن يرمي بنفسه فيها. وعندما وصل القطار إلى الحدود، رفع أحد المستخدمين قبعته عالياً يحييه في أدبٍ جمٍّ، ورفض أن يسمح له بالمرور. إن المجد سيأتي، حيثما فتش عن الراحة، كي يعسكر قبالته، واسعاً مدوّياً بآلاف الأصوات! كلا، إنه لا يستطيع الإفلات، فالأظفار تطبق عليه بصورة متينة. ولكن هذه ابنته تلاحظ بغتة أن ارتعاشاً جليدياً قد هزّ جسد أبيها الأشيب، وها هو يستند، مرهقاً شديد الإعياء، إلى خشب الدكة القاسي. إن العرق ينبثق من سائر مسام كينونته المرتجفة ويقطر من جبينه، وحمّى صادرة عن دمائه، حيث المرض، تنقضّ عليه كي تنقذه، وهذا الموت يسرع فيرفع معطفه القاتم كي يخفيه عن أنظار مضطهديه.

لم يكن بدٌّ من التوقّف في استابوفو، وهي محطة صغيرة على طريق السكة الحديدية، إن المريض لا يستطيع أن يذهب إلى أبعد من ذلك، ولم يكن هناك فندق، أو خان، أو قصر، يستطيع أن يستقبله، فيقدم رئيس المحطة، مضطرباً قلقاً، مكتبه الصغير، في بيت خشبي وحيد الطابق هو بناء المحطة الوحيد (إنه كعبة يحج إليها العالم الروسي منذ ذلك الحين) ويقودون الشيخ الذي يرتجف من البرد إلى ذلك المكتب، وإذا كل ما حلم به يتحقق الآن أمام عينيه؛ هذه الغرفة الصغيرة، الواطئة، العابقة بالدخان، المليئة بالهواء السميك والفقر، وهذا السرير الحديدي، والنور البخيل الذي يصدره المصباح النفطي، وهاتان الرفاهية والأُبّهة اللتان فرّ من وجههما بعيدتان هذه المرة كل البعد عنه. إن كل شيء يحيط به، في ساعة نزاعه، في لحظات حياته الأخيرة، هو بالضبط مثلما تمنّته

دوماً إرادته الصميمية! إن الموت يخضع ليد الفنان عنده بصورة كاملة نقياً، مجرداً عن كل خبث، رمزاً عظيم الجلال والمهابة، والبناء العظيم لهذه المنيّة يرتفع في أيام قليلة، تأكيداً فخماً لعقيدته، لن يستطيع حسد البشر أن يدمّره بعد الآن أبداً، ولا أن يعكّر صفوه ويخربه في بساطته القمينة بالعصور البدائية.

عبثاً يقف المجد خارجاً، أمام الباب المغلق، يتربّص لاهثاً، متعطّش الشفتين، عبثاً يتدافع وينتظر الصحفيون، والفضوليون، والجواسيس، ورجال الشرطة والدرك، والكاهن المرسَل من قِبل المجمع المقدس، والضباط الموفودون من قِبل القيصر نفسه، إن ضوضاءهم الصارخة المجردة عن الحياء لن تستطيع بعد الآن شيئاً ضد هذه العزلة المثلى والحاسمة. إن ابنته وحدها تسهر عليه، برفقة الطبيب وصديق واحد، بحيث يحيطه بالسكون، هكذا حب متواضع هادئ، بينما يرتاح على المائدة الكرّاس الصغير الذي يكتب فيه «مذكراته» إنه حامل صوته كي يتصل مع اللّه! لكن اليدين المحمومتين تعجزان بعد الآن عن الإمساك بالقلم، فيروح يملي على ابنته، لاهث الرئتين مطفأ الصوت تقريباً، أفكارَه الأخيرة، إنّه يدعو اللّه «هذا الكل غير المحدود الذي يشعر الإنسان بأنه جزء محدود منه، بأنه يتظاهر في المادة، والزمان، والمكان»، وينادي بأن اتحاد هذه الكائنات الأرضية بحياة كائنات أخرى لا يمكن أن يتحقق إلا بالمحبة. إنه يوتر سائر حواسّه، حتى قبل يومين فقط من وفاته؛ كي يمسك الحقيقة المثلى، الحقيقة العصية على الإدراك، ومن ثم تنتشر الظلمة شيئاً فشيئاً فوق هذا الدماغ المنير وتغطّيه...

إن البشر يضطربون في الخارج، يحرقهم الفضول والتشوّق إلى كشف الأسرار، ولكنه لم يعد يحس بوجودهم مطلقاً. وإن صوفيا أندرييفنا، امرأته، لتقف هناك أيضاً، أمام النوافذ، مرهقة بالتوبة والندامة، تسعى أن ترى إلى الداخل من خلال العبرات التي تسيل من عينيها بغزارة، هي التي اتحدت إليه طوال ثمان وأربعين سنة، إنها تقف هناك، تتربّص كي ترى محيّاه مرّةً أخيرة، ولو من بعيد: إنه

لا يعرفها! إن أمور الحياة تصبح غريبة أكثر فأكثر عن نظرته، أكثر النظرات الإنسانية نفوذاً، والدم يسيل أشد سواداً وأكثر ثقلاً دوماً في أوردته التي تتحطم. ويصحو مرة أخرى في ليلة الرابع من تشرين الثاني ويتنهّد: «ولكن الفلاحين، كيف يموت الفلاحون إذن؟ إن هذه الحياة الجبارة لتدافع عن نفسها دوماً ضد الموت الجبار، فلا تستطيع المنية أن تبلغ هذا الخالد إلّا في السابع من تشرين الثاني، فيتهاوى الرأس المتوّج بالبياض بين الوسائد، وتنطفئ العينان؛ هما اللتان شاهدتا العالم بوضوح أشد ممّا شاهدته أية عين أخرى، وعندئذٍ فقط يعرف المنقّب الفارغ الصبر الحقيقة ومعنى كل الحياة أخيراً...

# الخاتمة

**«إنّ الإنسان قد مات، ولكن موقفه من الكون بأسره يستمر يفعل في البشر، ليس مثلما كان يفعل أثناء حياته فحسب، بل بقوة أعظم أيضاً، وإنّ تأثيره ليمتد بمقدار ما كان يمليه من عقل ومحبة، وهو ينمو، مثل كل شيء حي، دون انقطاع ودون نهاية».**

**من رسائل تولستوي**

لقد أسماه مكسيم غوركي، ذات يوم، تولستوي «بإنسان الإنسانية»، ولَتلك كلمة لا تطاولها كلمة أخرى في حقيقتها؛ ذلك أنّه إنسان مثلنا جميعاً، قد جُبل من الطينة السريعة العطب نفسها، غير بريء من النقائص الأرضية ذاتها التي نملكها جميعاً، ولكنه يعرفها بصورة أعمق منّا، ويتألم بسببها بصورة أشد أيضاً. لم يكن ليون تولستوي من جنس يختلف عن بقية مفكّري العصر، أو يسمو عليهم، لكنه كان فقط أعظم إنسانيةً من معظمهم، وأعمق أخلاقاً، وأكثر شدّةً وأشدّ استنارةً، وأعظم يقظةً واندفاعاً؛ تجربة أولى أشدّ وضوحاً ـ إذا جاز التعبير ـ لذلك الشكل البدائي غير المرئي، المصنوع في معمل خالق الكون.

أن يحقق بطهارة تامة، وبكل الكمال الممكن، في وسط عالمنا المختلط، تلك الصورة للإنسان الأبدي التي توجد مسودتها غير الواضحة، لكن القابلة للإدراك في معظم الأحايين، في صميمنا جميعاً، ذلك هو العمل الجوهري الذي فرضه تولستوي

لحياته؛ عمل لا يمكن أن يكمل ويتحقق بصورة تامّة قط، فلا يكون إلّا بطولياً بصورة مضاعفة لهذا السبب بالضبط. لقد بحث عن الإنسان في تجسّده الأمثل وصنعه، بفضل إخلاص فكري لا مثيل له. لقد فتّش عنه واستجوبه في السر الغامض لذات وجدانه، هابطاً إلى أعماق لا يبلغها المرء إلّا إذا جرح نفسه. لقد نبش نفسه بجد لا يعرف معنى الرحمة، وبقسوة لا تدري سبيلاً إلى الشفقة، نبش نفسه دون أيّ تحفّظٍ على الإطلاق؛ كي يخلّص تلك الصورة البدائية من قشرتها الأرضية، وكي يظهر للإنسانية جمعاء محيّاها، وقد صار أنبل وأكثر شبهاً باللّه، معتبراً هذا العمل غاية جهود البشر جميعاً على حدٍّ سواء. إن هذا الفنان الذي لا يخاف شيئاً ليشتغل طوال وجودٍ كامل، دون أن يرتاح قط، ودون أن يرضى أبداً، ودون أن يمنح فنّه لحظة واحدة ذلك الفرح البريء الذي ينشأ عن لعب الأشكال الساذج، في هذا العمل العظيم الذي يقوم في تحسين أناه بتمثيل هذه الأنا. ليس من شاعر قد أعطانا، منذ جوته، مثل هذا الكشف عن ذاته، وعن الإنسان الأبدي في الوقت نفسه.

ولكن هذه الإرادة الوطيدة في الطهارة والمعرفة، التي يتمتع تولستوي بها، لم تنتهِ إلّا بصورة ظاهرة مع حياته. إنّه محيّاه البطولي، الخلّاق دوماً، ما برح يفعل في الحاضر؛ لأنّه قد دخل في عصرنا، هو آخر محيًا عظيم عرفه القرن الماضي. إنه ما يزال موجوداً، يشهد على وجوده الأرضي عدد غفير من الناس الذين شاهدوا عينيه النافذتين، الذين لمسوا يديه الأبويتين، ومع ذلك فإنّ حياة ليون تولستوي قد أصبحت اليوم أسطورية حتى أجيال وأجيال، خرافة جديدة تعلن عن جبروت حبٍّ مجبولٍ من التواضع.

ذلك أن الإنسانية تفتش دوماً، عبر فرار الزمن، عن الإنسان الذي يمكن أن يكون شعاراً ومثالاً يحتذى؛ كي تجعل منه رمز حسّها الأخلاقي الباحث عن الأبدية، ولا تختار إلّا أقوى الجميع من بين العدد الوفير، كي تثبت قوّتها. إنها لا تجسّد إرادتها إلّا في الإنسان الذي يبذل أعظم الجهود، وينقّب في حميّا جبارة فقط، إنها لا تعرف علمها وحقيقتها إلّا في إنسان الحقيقة وحده، دون سواه...

# تولستوي

"لقد عاش تولستوي، طوال ثلاثين عاماً، من العشرين حتّى الخمسين، في خلق مؤلفاته، حرّاً لا مبالياً.. وطوال ثلاثين عاماً أخرى، من الخمسين حتّى الوفاة، لم يعش إلّا لكي يعرف معنى الحياة ويفهمه، مناضلاً ضدّ ما لا يمكن إدراكه، مقيّداً إلى ما يعسر البلوغ إليه.. ولقد ظلّت مهمّته يسيرة سهلة حتّى اليوم الذي أخذ فيه على كاهله هذه الرسالة الهائلة: أن يخلّص، بنضاله في سبيل الحقيقة، ليس شخصه فحسب، بل الإنسانية بأسرها أيضاً. وإنّ إقدامه على هذه الرسالة يجعل منه بطلاً، بَلْ قدّيساً تقريباً، أمّا سقوطه في غمرة النضال في سبيل تحقيقها فيجعل منه أكثر الناس إنسانيّة على الإطلاق"..

ستيفان زفايغ

علامتان فارقتان في تاريخ الأدب الأوروبي يلتقيان في عملٍ فريد. واحدة من الدراسات الاستثنائية التي شكّلت نموذجاً خاصّاً ما يزال يُضيء لدارسي أدب تولستوي العديد من الحقائق بحيادية ومن دون رتوش، كتبها زفايغ، أحد أعمدة الأدب العالمي المعاصر بما عرف عنه من براعة في التأمّل والتشخيص والاستنباط من جهة، ومتعة فنيّة للقارئ من جهة أخرى.

الناشر

لوحة الغلاف: Scott Parker

ISBN 978-9-9226076-0-3

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain_L
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين